دوستويفسكي

نيتوتشكا نيزفانوفا

ترجمها عن الروسية: إدريس الملياني



دوستويفسكي

نيتوتشكا نيزفانوفا

الكتاب: نيتوتشكا نيزفانوفا
المؤلف: دوستويفسكي
ترجمة: إدريس الملياني
الطبعة: الأولى 2018

دوستويفسكي

نيتوتشكا نيزفانوفا

ترجمها عن الروسية:

إدريس الملياني



الفصل الأول

لا أذكر شيئا عن أبي. فقد توفي عندما كان عمري سنتين. وتزوجت أمي مرة أخرى. وحمل لها هذا الزواج الثاني آلاما كثيرة، رغم أنه تمّ بحبّ. كان زوج أمي موسيقيا. وكان مصيره فذا وفريدا جدا. إنه أغرب إنسان وأروع من كل الذين عرفتهم. وقد انعكس ذلك بقوة في الإحساسات الأولى لطفولتي، بحيث إن هذه الإحساسات أثرت في حياتي كلها.

وقبل كل شيء، لكي تفهم قصتي، سأحكي هنا سيرته الذاتية. وكل ما سأقوله الآن، علمته فيما بعد من ب. عازف الكمان الشهير، الذي كان رفيقا وصديقا حميما لزوج أمي في شبابه.

كان زوج أمي يسمى ييفيموف. ولد في قرية أحد الملاكين الأغنياء، من أب موسيقي فقير، كان قد استقر في أرض هذا الملّاك، بعد طواف طويل. وانضم إلى جوقته. كان هذا الملّاك يعيش حياة مترفة جدا، ويحبّ الموسيقى أكثر من أيّ شيء، إلى حدّ الجنون.

كان يقال عنه إنه، هو الذي لم يغادر قريته أبدا، حتى للذهاب إلى موسكو، قد قرر ذات يوم أن يسافر فجأة إلى حَمّة في الخارج، لبضعة أسابيع، وذلك لسبب وحيد، هو أن يسمع عازف كمان شهير، حسب ما تؤكد الصحف، كان سيحيي هناك ثلاث حفلات.

كانت له هو ذاته جوقة جيدة من الموسيقيين، كان بإمكانه أن ينفق عليها كل ثروته تقريبا. إلى هذه الفرقة الموسيقية انضم إذن زوج أمي عازفا على الكلارينيت.

وكان عمره عشرين عاما حين تعرف إلى رجل غريب.

كان هناك في هذه المنطقة نفسها كونت غنيّ أصيب بالإفلاس لإنفاقه على مسرحه المنزلي.

كان هذا الكونت قد فصل رئيس فرقته الموسيقية، من أصل إيطالي، لسوء سلوكه. كان رئيس الجوقة هذا، رجلا سيئا فعلا. ما إن فصل حتى أطلق العنان نهائيا لهواه، وأخذ يرتاد حانات القرى، ويسكر، ويتسول أحيانا، حتى أنه لم يعد يجد مكانا للعمل في المحافظة كلها.

وبهذا الرجل ارتبط زوج أمي. وكان هذا الارتباط غامضا ومفاجئا، لأن أحدا لم يلاحظ أي تغيير على سلوك زوج أمي، تحت تأثير رفيقه، وما لبث الملاك نفسه، الذي منعه في البداية من معاشرة هذا الإيطالي، أن غضّ الطرف عن صداقتهما. وأخيرا، تُوفي رئيس الفرقة الموسيقية فجأة.

وعثر فلاحون ذات صباح، على جثته في حفرة، قريبا من السدّ. أُجريَ تحقيق مستعجل وتبين أنه مات بسكتة قلبية.

كانت ممتلكاته مُودعة عند زوج أمي، الذي تقدم فورا بدليل على أن له الحق المطلق في حيازة تلك الممتلكات: كان المرحوم قد ترك بطاقة مكتوبة بخط يده يعين فيها ييفيموف وريثا له، في حالة ما إذا وافته المنية.

كان الإرث يتكون من "فْراك" معطف أسود، كان الفقيد محافظا عليه بكل عناية، لأنه كان يؤمل دائما أن يجد مكانا للعمل من جديد، وكمانا، كان مظهره عاديا.

لم يعترض أحد على هذا الإرث. ولكن لم يمرّ وقت طويل حتى جاء إلى الملاك عازف الكمان الأول في فرقة الكونت، حاملا من هذا الأخير رسالة. وفي هذه الرسالة كان الكونت يحاول إقناع ييفيموف بأن يبيعه الكمان الذي تركه الإيطالي، ويحبّ الكونت كثيرا أن يقتنيه لفرقته.

واقترح ثلاثة آلاف روبل وأضاف أنه كثيرا ما أرسل بالفعل في طلب ييغور ييفيموف مرارا، لإتمام الصفقة شخصيا، ولكن هذا الأخير كان يرفض دائما بعناد.

وختاما، كتب الكونت أن ثمن الكمان كان ثمنا حقيقيا، وأنه لم يحاول أن يحصل على ثمن أقل وأنه يعتبر عناد ييفيموف بمثابة ريبة جارحة بأنه يريد، في هذه العملية، الاستفادة من سذاجته أو جهله ويطلب بالتالي إقناعه بالعدول عن ذلك العناد.

وأرسل الملاك فورا في طلب زوج أمي.

وسأله:

- لماذا إذن ترفض التخلص منه، من هذا الكمان؟ لست بحاجة إليه. قدموا لك ثلاثة آلاف روبل، وهو الثمن الحقيقي، ولست عاقلا إذا كنت تظن أنك يمكن أن تُعطى أكثر من ذلك. لم يرد الكونت أن يخدعك.

أجاب ييفيموف بأنه لن يذهب إلى الكونت من تلقاء نفسه، وأنه إذا أرسل إليه فستكون تلك إرادة سيده ولكنه لن يبيع الكمان للكونت، وإذا أريد أن ينتزع منه عنوة، فستكون تلك أيضا إرادة سيده.

من الواضح أنه، بهذا الجواب، لمس وترا حساسا في طبع الملاك، الذي كان حقا يقول دائما بافتخار إنه يعرف كيف يعامل موسيقيّيه، لأنهم كانوا جميعا، من أولهم إلى آخرهم، فنانين حقيقيين وإن فرقته، بفضله، لم تكن أحسن من جوقة الكونت فقط، ولكنها ليست أسوأ من فرقة العاصمة.

أجاب الملاك:

- طيب! سأبلغ الكونت أنك لا تريد بيع الكمان، لأنك لا تريد، لأن لك الحق المطلق في أن تبيع أو أن لا تبيع، أتفهم؟ ولكن، أنا نفسي، ألقي عليك هذا السؤال: ماذا ستفعل بكمان؟ أنت تعزف على آلة الكلارينيت، حتى وإن كنت لا تجيد العزف عليها. تنازل لي عنه. سأعطيك الثلاثة آلاف روبل. (من ذا الذي يمكنه أن يعرف أنه آلة بهذه القيمة!)

قال ييفيموف مغمغما:

- لا، يا سيدي، لا أريد أن أبيعه، وطبعا، مشيئتك...

أخذ المالك يصرخ، خارجا عن طوره، خصوصا وأن ذلك كان يحدث أمام أنظار موسيقي الكونت الذي كان يمكنه، عندما يرى هذا المشهد، أن يستخلص نتائج ضارة جدا عن مصير جميع الموسيقيين في فرقة المالك:

- ولكن هل أنا أرغمك، هل ألزمك! اذهب من هنا، يا ناكر الجميل! لا ترني وجهك مرة أخرى! ماذا كنت ستفعل بدوني، وبآلة الكلارينيت التي لا تجيد حتى العزف عليها؟ أنت عندي تأكل، تسكن، تتلقى أجرا، تعيش حياة شريفة، أنت فنان، ولكنك لا تريد أن تفهم هذا، وأن تشعر به. هيا اذهب من هنا، ولا تغضبني بوجودك!

كان المالك يبعد كل الذين يغضب عليهم، بسبب خوفه من فورة نفسه وسورة حماسه. وما كان يريد أبدا أن يبدو قاسيا جدا مع "فنان" كما كان يقول عن موسيقييه.

لم تتمّ صفقة البيع إذن، وكان يبدو أن القضية كلها كانت ستبقى هناك، لو لم يقدم عازف الكمان لدى الكونت، فجأة، بعد مرور شهر، على القيام بأمر بشع: إذ تحمل مسؤولية تقديم بلاغ ضد زوج أمي، يظهر فيه أن زوج أمي كان مسؤولا عن موت الإيطالي وأنه قتله جشعا: من أجل حيازة إرث ثمين.

وأعلن أن الوصية قد كتبت تحت الإكراه، ويتعهد بتقديم شهود لدعم اتهامه. ولم يُجد لا طلبُ ولا عتابُ الكونت والمالك، اللذين تدخلا للدفاع عن زوج أمي، في ثني المتهم عن عزمه. وقد أظهرا له أن التحقيق الطبي، الذي أجري على جثة رئيس الجوقة المتوفى، قد تمّ وفق القوانين المعمول بها، وأن ادعاءه مخالف للبراهين، ربما بسبب الاستياء الشخصي، والبغضاء، بعد الفشل في الحصول على الآلة الموسيقية الثمينة التي كان المراد شراؤها له. وظل الموسيقي متعنتا، وأكد أنه كان على حق، وأظهر أن السكتة

القلبية ليست ناجمة عن السكر ولكن عن السمّ وطالب بتحقيق مضادّ.

للوهلة الأولى، كانت هذه الأسباب تبدو خطيرة.

ومن نافلة القول إن القضية قد تم إحياؤها بإجراء تحقيق جديد. فاعتقل بيفيموف وزُجّ به في سجن المدينة. وأثارت القضية اهتمام وشغف الجميع في كل أنحاء المنطقة.

وفي نهاية المطاف ثبت أن الموسيقي مذنب بالوشاية الكاذبة. كان الحكم الذي صدر عليه عادلا ولكنه ظل دوما متشبثا بآرائه وأكد أنه كان على حق.

ومع ذلك انتهى به المطاف إلى الاعتراف بأنه لم يكن لديه أي دليل، وأن جميع الحجج التي أدلى بها إنما اختلقها هو نفسه ولكنه حين كان يلفق كل ذلك كان ينطلق من افتراض، وتخمين، لأنه، حتى الآن، بعد انتهاء التحقيق الثاني، وإثبات براءة بيفيموف، مازال مقتنعا تماما، بأن سبب وفاة رئيس الجوقة المسكين يعود إلى بيفيموف، حتى ولو أنه، ربما، لم يقتله بالسمّ، ولكن بوسيلة أخرى. لم ينفذ الحكم: لأنه كان يعاني من التهاب الدماغ وأصيب بالجنون ومات في مستشفى السجن.

طوال هذه القضية، كان المالك يتصرف بأنبل طريقة ممكنة. فاعتنى بزوج أمي كما لو كان ابنه. ذهب عدة مرات ليراه في السجن ويواسيه، أعطاه مالا، حمل إليه أفضل سيجار، بعد أن علم أنه يحب التدخين، وحالما بُرئت ساحة زوج أمي، أقام حفلة للأوركسترا بكاملها.

كان المالك ينظر إلى قضية ييفيموف كمسألة تتعلق بكامل الأوركسترا، لأنه كان شديد الحرص على سمعة كل الموسيقيين، بقدر حرصه على مواهبهم، إن لم يكن أكثر من ذلك. كانت قد مرت سنة، عندما انتشرت فجأة في جميع أنحاء المحافظة شائعة عن عازف كمان شهير كان يزور عاصمة الإقليم وينوي أثناء عبوره إحياء بضع حفلات.

وعلى الفور بدأ المالك يسعى لجذبه إليه، بطريقة أو بأخرى. وتمّ ترتيب الأمور، ووعد الفرنسي بالحضور. وكل شيء كان الآن جاهزا لاستقباله، واستدعيت المنطقة كلها إذا صح القول، وإذا بكل شيء يأخذ فجأة منحى مختلفا تماما.

ذات صباح، أخبر بأن ييفيموف قد اختفى حيث لا يدري أحد. وانطلق البحث عنه ولكن لا أثر له.

وكانت الأوركسترا في مأزق: إذ كان ينقصها عازف على الكلارينيت، وعلى حين غرة، بعد اختفاء ييفيموف بثلاثة أيام، توصل المالك من الفرنسي برسالة، يرفض فيها هذا الأخير الدعوة بغطرسة، مضيفا، طبعا، بطريقة لا تخلو من لفّ ودوران، أنه من الآن فصاعدا، سيتخذ حذرا شديدا، في علاقاته مع هؤلاء السادة، الذين يتعهدون أوركسترا خاصة، وأنه لأمر قبيح أن يرى المرء موهبة حقيقية يسيرها رجل لم يقدر قيمتها، وهذا أخيرا مثال ييفيموف، الفنان الأصيل، وأفضل عازف كمان، لم يُر مثله في روسيا، يدل دلالة كافية على أهمية ما قاله.

قرأ المالك هذه الرسالة بذهول عميق. وتألم حتى النخاع.

ماذا؟ ييفيموف، هذا ييفيموف نفسه الذي اعتنى به كثيرا، وأسبغ عليه نعما شتى، ييفيموف هذا جرحه بطريقة قاسية جدا، ومخجلة، أمام فنان أوروبي، ورجل يعتبر رأيه في غاية الأهمية بالنسبة إليه! ثم إن هذه الرسالة غير مفهومة من وجهة نظر أخرى: فقد أخبر بأن ييفيموف فنان ذو موهبة أصيلة، وأنه كان عازف كمان، ولكن موهبته لم تقدر حق قدرها وأنه أجبر على الاشتغال بآلة أخرى.

كل ذلك أذهل المالك كثيرا فقرر الذهاب حالا إلى المدينة لمقابلة الفرنسي، وإذا به يتلقى بطاقة من الكونت، يدعوه فيها هذا الأخير للحضور إلى بيته على الفور، ويبلغه أنه على علم بالقضية كلها، وأن الفنان العازف يوجد الآن في منزله، مع ييفيموف، جنبا إلى جنب، وأنه ذُهل من جرأة وافتراء هذا الأخير عليه، فأمر بإيقافه، وأخيرا فإن وجود المالك كان لا يزال ضروريا في ما يتعلق باتهام ييفيموف، الذي كان يمس حتى الكونت شخصيا، وتلك مسألة خطيرة جدا، ولابد من إيضاحها في أسرع وقت.

انطلق المالك فورا إلى بيت الكونت، وتعرف بالفرنسي حالا، وشرح كل تفاصيل قصة زوج أمي، وأضاف أنه لم يشك يوما أن ييفيموف كان يمكن أن يتمتع بموهبة عظيمة، وأن ييفيموف كان عنده، بالعكس، عازفا رديئا على الكلارينيت، وأنه لأول مرة يسمع أن الموسيقي الذي تركه كان عازف كمان.

وأضاف أيضا أن ييفيموف كان رجلا حرا، وأنه كان يتمتع بحرية كاملة، وكان بإمكانه دائما أن يتركه متى أحس بأنه مضطهد حقيقة.

دُهش الفرنسي. ونُودي ييفيموف، لم يكن يمكن التعرف إليه:

كان يقف بعجرفة، ويجيب بسخرية ويتمسك بصحة ما حكاه للفرنسي. كل ذلك أثار حنق الكونت، الذي قال بوضوح لزوج أمي إنه كان وغدا، ومفتريا، ويستحق عقابا أشد خزيا.

أجابه زوج أمي:

- لا تقلق، يا صاحب السعادة، إنني أعرفك الآن تمام المعرفة، وأعرف من تكون. وبفضلك، كدت أن أخضع للمحاكمة. وأعرف من الذي أوحى لأليكسيي نيكيفوريتش، موسيقيِّك القديم، بأن يقدم ضدي شكاية.

استشاط الكونت غضبا وهو يسمع اتهاما فظيعا. لم يستطع ضبط نفسه، ولكن موظفا جاء إلى الكونت في أمر، وكان عندئذ في القاعة، أعلن أن من المستحيل السكوت على شيء مثل هذا، وأن الكلام البذيء ليفيموف يتضمن اتهاما مسيئا، باطلا، وافتراء، وبكل احترام طلب الإذن بتوقيفه فورا، وفي بيت الكونت بالذات.

وعبر الفرنسي عن غيظه الشديد وقال إنه لم يفهم مثل هذا الجحود والنكران للجميل. وعندئذ أجاب زوج أمي بعصبية بأنه كان أفضل أن يعاني من العقاب والمحاكمة، وحتى أن يخضع مرة أخرى لتحقيق قضائي، من تلك الحياة التي عاشها حتى الآن، في أوركسترا خاصة، ودون وسيلة لتركها من قبل، بسبب فقر مدقع، وحين قال هذه الكلمات خرج من القاعة مع أولئك الذين اعتقلوه، وأغلق عليه الباب في غرفة بعيدة من البيت، تحت تهديد إرساله إلى المدينة منذ اليوم التالي.

كان قد انتصف الليل لما فتح باب السجين. ودخل المالك. كان مرتديا مبذلا ومنتعلا خُفّا وحاملا في يده فانوسا مضاء. كان يبدو أنه لم يستطع النوم وأن قلقا مرهقا أجبره، في ساعة مثل هذه، على النهوض من سريره. لم يكن ييفيموف نائما، وكان ينظر إلى الذي دخل باستغراب. وضع الآخر فانوسه وجلس، بادي التأثر العميق، على كرسي أمامه.

وقال له:

- ييغور، ماذا فعلت لك كي تجرح مشاعري جرحا بليغا؟

لم يجب ييفيموف. وكرر المالك سؤاله، وكانت كلماته تنمّ عن التأثر العميق والأسى الغريب.

وما لبث زوج أمي أن أجاب محركا يده بإشارة استسلام:

- يعلم الله لماذا جرحت مشاعرك جرحا بليغا، يا سيدي! ربما الشيطان هو الذي دفعني! لا أدري أنا نفسي، من الذي ساقني لفعل كل ذلك! لا، لا أستطيع أن أعيش عندك، لا أستطيع... إن الشيطان نفسه تعلق بي!

تابع المالك قائلا:

- ييغور! عد إلي، سأنسى كل شيء، سأغفر كل شيء: اسمع: ستكون أول الموسيقيين لدي، سأعطيك أجرا أكثر من الآخرين...

- لا، يا سيدي، لا تحدثني حتى عن هذا، لا أستطيع العيش عندك! قلت لك إن الشيطان هو الذي التصق بي. سوف أضرم النار في منزلك، إن بقيت، فقد ينتابني مثل هذا القلق أحيانا، بحيث

أفضل لو أنني لم آت إلى العالم! والآن، لا أستطيع حتى الجواب عن نفسي، لا، يا سيدي، من الأفضل أن تتركني. كل هذا، تقرر منذ أن ارتبطت بصداقة ذلك الشيطان...

سأل المالك:

- بمن؟

ذلك، الذي مات ميتة كلب، هذا الإيطالي اللعين.

- هو الذي علمك العزف، يا ييغوروشكا؟

- نعم! علمني الكثير لسوء الحظ. كان من الأفضل لي ألا ألتقيه أبدا.

- كان يتقن العزف على الكمان، يا ييغوروشكا؟

- لا، هو نفسه، لم يكن يعزف كثيرا، ولكنه كان يعلم جيدا. تعلمت كل شيء بنفسي، وكان هو يرشدني فقط، كان من الأفضل أن تذوي يدي من أن يكون لي هذا العلم. أنا نفسي، ما زلت لا أعرف الآن ماذا أريد. هيا، يا سيدي، اسألني: "ييغور! ماذا تريد؟ إنني أستطيع أن أعطيك كل شيء"، ولكن، أنا، يا سيدي، لن أستطيع أن أرد عليك بكلمة، لأنني أنا نفسي لا أعرف ما أريد. لا، يا سيدي، من الأفضل أن تتركني، أقول لك هذا مرة أخرى. من الأفضل لي أن أفعل ما لا أدري، ولكن فلأرسل إلى مكان ما أبعد قدر الإمكان، ولينته كل شيء هنا!

قال المالك بعد دقيقة صمت:

- ييغور! لن أتركك هكذا. إن لم تشأ أن تخدم عندي، اذهب،

أنت رجل حر، لا يحق لي أن أمنعك، ولكن أنا، الآن، الذي لن أتركك. اعزف لي شيئا، يا ييغور، على كمانك، اعزف! بحق السماء، اعزف! ليس هذا أمرا، افهمني جيدا، أنا لا أجبرك على شيء، أطلب منك ذلك والدموع تطفر من عيني: اعزف لي، يا ييغوروشكا، بحق السماء، ما عزفت للفرنسي! عزاء وسلوى لقلبي! أنت عنيد، وأنا أيضا عنيد، أنا أيضا، أترى، لدي طبعي، يا ييغوروشكا! إنني أشعر بك، فحاول أن تشعر بي أنت كذلك. إنني لا أستطيع أن أبقى على قيد الحياة، إذا لم تعزف لي، عن طيب خاطر، وطيبة قلب، ما عزفت للفرنسي.

قال ييفيموف:

- طيب، ليكن! كنت قد قطعت عهدا على نفسي، يا سيدي، بأن لا أعزف قط أمامك، ولكن قلبي ينشرح الآن. سأعزف لك، لكن، فقط، للمرة الأولى والأخيرة، وبعد ذلك، يا سيدي، لن تستطيع أبدا أن تسمعني في أي مكان، حتى ولو وعدتني بألف روبل.

هنا، تناول كمانه، وبدأ يعزف ألحانه المتنوعة الموضوعة على أغان روسية. قال ب. إن هذه التنويعات كانت أول وأفضل قطعة لحنها على الكمان، وإنه لم يعزف أبدا شيئا آخر بمثل هذا الإتقان والإلهام.

كان المالك، الذي لم يستطع سابقا أن يبقى غير مبال بالموسيقى، يذرف دموعا حارة. ولما توقفت الموسيقى، نهض من مقعده، وأخرج ثلاثمائة روبل، ومدها إلى زوج أمي قائلا:

- الآن، اذهب، يا ييغور. سأخرجك من هنا، سأسوي الأمر مع الكونت بنفسي، ولكن، اسمع: لا ينبغي لك الآن أن تلتقي بي. أمامك طريق واسع، وإذا ما تقابلنا مرة أخرى، سيحس كل منا، أنا وأنت، بنفسه جريحة. حسنا، وداعا!... انتظر! وإليك نصيحة أخيرة للطريق، نصيحة وحيدة: لا تشرب الخمر وتعلم، تعلم دائما، ولا تغترّ! إنني أكلمك كما يكلم الأب ابنه. حذار، أقولها لك مرة أخرى: تعلم، ولا تشرب قطرة خمر واحدة، وإذا ما بدأت تشرب الخمر يوما، لتبديد حزنك (وسوف يكون لديك من الحزن الكثير!) فسيذهب كل شيء هباء، سيمضي كل شيء إلى الشيطان، وقد تنتهي أنت نفسك في حفرة، مثل صديقك الإيطالي، حسنا، والآن، وداعا! مهلا، عانقني!

تعانقا، ثم خرج زوج أمي حرا طليقا.

لم يكد يجد نفسه حرا حتى بدأ حالا بتبديد روبلاته الثلاثمائة في أول حاضرة للمنطقة، دون أن يكف عن معاشرة أقذر وأحقر المعربدين والفاسقين، بحيث اضطر أخيرا بعد أن بقي وحيدا في فقر مدقع، وبلا عون من أحد، إلى الالتحاق بأوركسترا مسرح إقليمي متجول كعازف أول أو وحيد ربما على الكمان.

كل ذلك لم يكن ملائما تماما لمقاصده الأصلية التي كانت تتمثل في أن يمضي بأسرع وقت ممكن إلى بطرسبورغ لكي يتعلم، ويجد مكانا جيدا ويستكمل تكوينه كفنان.

ولكن الحياة في الأوركسترا الصغيرة بدت مستحيلة. وسرعان ما تشاجر زوج أمي مع متعهد الأوركسترا المتجولة فغادرها.

وعندئذ، ثبطت همته تماما وأزمع حتى على اتخاذ إجراء يائس، جرح كبرياءه بعمق.

كتب رسالة إلى المالك العقاري الذي نعرفه، واصفا له حاله وطالبا منه مالا

كانت الرسالة مكتوبة بلهجة مستقلة تماما، ولكنها ظلت بلا جواب. وعندئذ، وجه إليه رسالة ثانية، طالبا مساعدته مرة أخرى، بتعبيرات مُذلة جدا (دعا المالك بالمحسن وأسبغ عليه لقب العاشق الأصيل للموسيقى)، فوصله الجواب أخيرا. وأرسل له المالك مائة روبل وبضعة أسطر، مكتوبة بخط يد أحد حجابه، طالبا منه فيها إعفاءه مستقبلا من أي طلب آخر. عندما توصل زوج أمي بهذا المال، أراد الذهاب إلى بطرسبورغ حالا، ولكنه حين أدى ما عليه من ديون، لم يبق له إلا القليل من المال، فكفّ حتى عن التفكير في السفر.

وبقي مرة أخرى في المحافظة، والتحق من جديد بجوقة موسيقية، ثم، لم يتمكن، مرة أخرى، من الاستقرار هناك، وهكذا ظل منتقلا من مكان إلى آخر، دائم التفكير في أن يجد نفسه يوما، قريبا جدا، في بطرسبورغ، إلا أنه مكث في المحافظة طوال ستّ سنوات.

وأدرك بيأس كم عانت موهبته، المقيدة من كل جانب بحياته البائسة، المضطربة، وذات صباح، فارق متعهده وانطلق نحو بطرسبورغ، متسولا تقريبا. استقر حيث لا أدري في عِلّية، وهناك، للمرة الأولى، التقى ب. الذي كان آنذاك قد وصل توا من ألمانيا، وهو أيضا كان يفكر في تطوير مهنته.

ارتبطا بسرعة، وحتى اليوم، لا يزال ب. يتذكر هذه الصداقة بتأثر عميق.

كانا معا شابين، يحترقان بنفس الآمال وكان لهما معا نفس الهدف. ولكن ب. كان لا يزال في ريعان الشباب، لم يُعان إلا القليل من البؤس والشقاء، وأكثر من ذلك، كان ألمانيا، أولا وقبل كل شيء، وكان يخطو نحو هدفه، بطريقة عنيدة ومنهجية واعيا بطاقاته تماما، وحاسبا تقريبا سلفا ما كان يمكن أن ينتهي به المطاف، بينما كان رفيقه الآن في الثلاثين من عمره، وكان بالفعل متعبا، وخائر القُوى، وفاقدا كل صبره، وغير قادر على استعادة طاقته الحيوية الأولى، ومُضطرا إلى التسكع في مسارح الإقليم والفرق الموسيقية الخاصة، من أجل لقمة العيش.

ولم يقاوم ذلك إلا من خلال التشبث بفكرة واحدة ثابتة ودائمة- هي أن يهرب أخيرا، وأن يوفر المال، وأن يجد نفسه مرة أخرى في بطرسبورغ. ولكن هذه الفكرة كانت غامضة، عائمة، وبمثابة نداء داخلي، لا يمكن كبته، وكانت، خلال السنين التالية، قد فقدت بريقها الأصلي في نظر ييفيموف ذاته، حتى عندما وجد نفسه في بطرسبورغ، كان ذلك، في الواقع، دون وعي، بواسطة نوع من العادة، القديمة جدا، والخالدة، والرغبة الأبدية في هذه الرحلة، وعادة التفكير فيها، ودون أن يعرف هو نفسه، أساسا، ما كان ينوي أن يفعل في العاصمة.

كان حماسه كأنه متشنج، مرّ، ولَحظي، كما لو أنه كان يحاول أن يخدع نفسه بفضل هذا الحماس، وأن يتأكد من أنه لم يستنفد بعد قوته الأولى، ناره الأولى، وإلهامه الأول. إن هذه الإثارة

المستمرة قد أذهلت ب. البارد والمنهجي، فأصيب بالعمى وحيا زوج أمي كعبقري موسيقي عظيم في المستقبل.

ولم يكن يستطيع أن يتصور مصير مستقبل رفيقه إلا على هذا النحو. ولكن سرعان ما فتح ب. عينيه وفهمه نهائيا. لقد رأى بكثير من الوضوح أن هذه الشخصية المتشنجة، هذه الحمى، ونفاد الصبر هذا، كل ذلك ليس إلا اليأس غير الواعي في ذكرى موهبته الضائعة، وأخيرا، حتى هذه الموهبة، ربما لم تكن عظيمة، منذ البداية، إذ كان هناك الكثير من العمى، والثقة العبثية بالنفس، والرضا الأولي عن الذات، ومن الهوى المستمر والتفكير المتواصل حول عبقريته الخاصة.

ولكن ب. كان يحكي قائلا:

- إنني لا أستطيع إلا أن أدهش من طبيعة رفيقي الغريبة. كنت أرى حقا صراعا يائسا ، ومحموما، يجري أمامي، بين إرادة متوترة إلى أقصى حدّ وعجز داخلي. كان البائس راضيا جدا، طوال ستّ سنوات، عن حلمه فقط بمجده المستقبلي، بحيث لم يلاحظ حتى أنه فقد أبسط مفاهيم فننا، وخسر حتى أبسط التقنيات العادية للموسيقى. ومع ذلك، كانت تُبنى باستمرار في خياله المضطرب خطط مستقبلية هائلة.

لم يكن يريد فقط أن يصبح عبقريا من الدرجة الأولى، ومن كبار العازفين على الكمان في العالم، ولم يكن فقط يعتبر نفسه بالفعل عبقريا مثل هذا، بل، أكثر من ذلك، كان يريد أن يغدو ملحنا دون أن يعرف شيئا من الطباق الموسيقي.

وأضاف ب. قائلا:

- ولكن ما كان يدهشني أكثر هو أن هذا الرجل، رغم كل عجزه، ومعارفه المتواضعة جدا عن تقنية الفن، كان له فهم في الفن عميق جدا، وواضح كثيرا وفطري تقريبا. كان يحس به ويفهمه بشكل قوي جدا في أعماق قلبه بحيث لا ينبغي أن نُفاجَأ إذا حاد عن جادة الصواب في تحليله الخاص لذاته وإذا انتهى إلى اعتبار نفسه عبقريا، وليس كناقد عميق وفطري للفن ولكن كعراف بشير بهذا الفن.

كان يحدث، أحيانا، أن يقول لي، بلهجته الحادة الخشنة والبسيطة، والغريبة عن كل علم، حقائق عميقة جدا، فكنت أقع في مأزق ولا أفهم كيف خمن، من دون أن يقرأ شيئا يوما، ومن غير أن يقوم بأي بحث.

وأضاف ب. قائلا:

- وأنا مدين كثيرا، له ولنصائحه، من أجل تطوري الذاتي.

وتابع ب. يقول:

- بالنسبة إلي، كنت مطمئنا. أنا أيضا، كنت أحبّ فني بحماس، حتى وإن كنت أعرف، منذ بداية طريقي، أنني لم أوهب الشيء الكثير، وأنني سأكون، بالمعنى الدقيق للكلمة، عاملا في الفن، ولكنني، في المقابل، فخور بأنني لم أدفن، مثل عبد كسول، ما وهبتني الطبيعة، بل قمت، على العكس، بمضاعفته مائة مرة، وإذا كنت أُهنَّأ على دقة عزفي، وإذا فُوجئ أحد بتطور أسلوبي، فأنا مدين بذلك لعملي الدؤوب، بلا كلل، ولوعيي

الواضح بنقاط قوتي، ولهذا التدمير الذاتي الطوعي، وعدائي المستمر للغطرسة، والرضا السهل عن النفس، والخمول، كنتيجة طبيعية لهذا الرضا عن الذات"

حاول ب. بدوره أن يسدي نصائح لرفيقه، الذي كان شديد الخضوع له منذ البداية، لكنه لم ينجح إلا في إغضابه عبثا. وسرعان ما فترت علاقاتهما. وقد لاحظ ب. أن رفيقه كان في أكثر الأحيان تحت تأثير اللامبالاة والقلق والضجر، وأن زخم الحماس لديه أصبح نادرا على نحو متزايد، وكل ذلك كان يصاحبه نوع من الكآبة القاتمة والجهمة. وأخيرا، أخذ ييفيموف يهجر كمانه ويرفض أحيانا أن يلمسه طوال أسابيع كاملة.

كان مهددا بالانحطاط التام، وسرعان ما سقط البائس في كل الرذائل. حدث ما حذره منه المالك العقاري: إذ انغمس في السكر دون رادع. كان ب. ينظر إليه برعب، ولم يكن لنصائحه أيّ مفعول، وأكثر من ذلك، كان يخاف من النطق بأدنى كلمة. ورويدا رويدا، وصل ييفيموف إلى أقصى حدود الوقاحة والاستهتار: فلم يشعر بأيّ خجل وعار من العيش على نفقة ب. بل كان حتى يتصرف كما لو أن لديه الحق المطلق في ذلك. غير أن سبل العيش قد استنفدت، وبصعوبة كان ب. يتخلص من ذلك الضيق عن طريق إعطاء دروس أو بالعزف في أمسيات لدى تجار، وألمان، وموظفين فقراء، كانوا يدفعون شيئا طفيفا، ولكنه كان شيئا على الأقل.

بالنسبة إلى ييفيموف، كان كأنه يرفض حتى ملاحظة فقر

رفيقه: كان يعامله بوقاحة، وخلال أسابيع كاملة، لم يتفضل حتى بالكلام معه. ذات يوم، أشار له بتواضع شديد أنه لا يضيره أن لا يحتقر كمانه أكثر مما ينبغي، لكي لا يطرح آلته تماما، فاستشاط ييفيموف عندئذ غضبا رهيبا، وأعلن أنه تعمد أن لا يلمس كمانه أبدا، كما لو كان يتصور أن أحدا ما سيتوسل إليه جاثيا على ركبتيه أن يعزف على الكمان.

ومرة أخرى، كان ب. بحاجة إلى زميل للعزف في أمسية فاستدعى ييفيموف. فاستشاط ييفيموف غيظا من هذه الدعوة.

وأعلن بغضب شديد أنه ليس عازف كمان في الشارع، وأنه لن يكون سيء السمعة مثل ب. لكي يُذل نبل فنه بالعزف أمام حرفيين تافهين لا يفقهون شيئا من أسلوبه ولا من موهبته.

لم يجب ب. بأية كلمة، ولكن ييفيموف، من فرط ما أدار في رأسه دعوة رفيقه الذي كان قد انصرف إلى العزف، تصور أن كل ذلك ليس إلا إشارة إلى كونه يعيش على نفقة ب. ورغبة في أن يفهمه أنه، هو أيضا، يستطيع ربح المال.

حين عاد ب. انهال عليه ييفيموف باللوم على فظاعة إشارته وأعلن أنه لن يبقى معه دقيقة واحدة. وفي الواقع، اختفى دون أن يترك أثرا خلال يومين، ولكنه في اليوم الثالث ظهر من جديد، كأن شيئا لم يكن، ومرة أخرى، واصل الحياة التي عاشها.

إن عادة قديمة وصداقة قديمة فقط، دون الحديث عن العطف الذي كان ب. يحس به نحو رجل ضائع، هما اللتان كانتا تمنعانه من الإقدام على وضع حدّ لحياة مضطربة جدا، وهجر رفيقه إلى

الأبد. ولكنهما افترقا أخيرا. إذ ابتسم الحظ ل ب.: ففاز برعاية عالية ونجح في إحياء حفلة موسيقية رائعة.

وفي هذه الأثناء، كان فنانا متألقا وذاعت شهرته سريعا، مما أتاح له أن ينال مكانا في أوركسترا الأوبرا، حيث بنى بسرعة نجاحا عن جدارة واستحقاق. وعند الفراق، منح ييفيموف مالا، والدموع تملأ عينيه، ورجاه أن يعود إلى طريقه الحقيقي. ولا يزال ب. حتى اليوم، لا يمكن أن يفكر فيه دون تأثر خاص.

إن لقاءه بييفيموف كان من أعمق إحساسات شبابه. لقد بدءا مهنتهما معا، وتعلق أحدهما بالآخر بحرارة، وحتى غرابة ييفيموف وأفدح عيوبه وأعنفها جعلت ب. يتعلق به أكثر أيضا. كان ب. يفهمه: كان يقرأ في قلبه ويخمن إلى أين يؤدي ذلك. عندما افترقا، تعانقا وبكيا معا.

ثم تمتم ييفيموف، من خلال الدموع والتنهدات، بأنه كان رجلا ضائعا، وبائسا جدا، وكان يعرف ذلك منذ مدة طويلة، ولكنه الآن فقط أدرك بوضوح أنه كان ضائعا.

ويخلص إلى القول، شاحبا كميت:

- ليست لدي موهبة!

تأثر ب. بشكل عميق وقال له:

- اسمع، يا ييغور بيتروفيتش، ماذا تفعل إذن بنفسك؟ أنت الذي تقتل نفسك بيأسك، ليس لديك لا صبر ولا شجاعة. في هذه اللحظة، في نوبة كآبة، تقول إنك بلا موهبة. ليس هذا صحيحا! إن لديك موهبة، هذا، أستطيع أن أؤكده لك. نعم، لديك الموهبة.

وإنني أراها بالفعل في طريقة فهمك وشعورك بالفنون. وسوف أثبت لك ذلك من خلال حياتك كلها.

أنت نفسك، حكيت لي، هذه الحياة. ومنذ تلك اللحظة بالفعل استولى عليك يأس غير واع. وفي ذلك الوقت، كان معلمك الأول، ذلك الرجل الغريب، الذي حدثتني عنه كثيرا، هو أول من بعث فيك حب الفن وتنبأ بموهبتك.

وشعرت بذلك عندئذ، بنفس القدر من القوة والألم، كما تشعر به اليوم. ولكنك لم تكن أنت نفسك تعرف ما كان يحدث لك.

لم تتمكن من العيش مع صاحبك المالك العقاري، ولم تكن أنت نفسك تعرف ما كنت تريد. توفي معلمك باكرا جدا. ولم يتركك إلا مع تطلعات غامضة، وقبل كل شيء لم يشرح لك نفسك. كنت تشعر أنك تحتاج إلى طريق آخر، أوسع، وأن هناك أهدافا أخرى محددة، ولكنك لم تفهم كيف يمكن القيام بذلك، وفي خضم قلقك، أخذت تكره كل من يحيط بك.

إن سنواتك الستّ التي عشتها في الفقر والبؤس لم تذهب سدى: فقد كنت تتعلم، وتفكر، وتدرك القُوى التي كانت لديك، واليوم تعرف فنك ووجهتك. إنك، يا صديقي، لا تحتاج إلا إلى الصبر والشجاعة. إنني أغبطك على المصير الذي ينتظرك: أنت فنان أكثر مني مائة مرة، ولكن أسأل الله أن يعطيك العُشر من صبري. فلتعمل، وكفّ عن شرب الخمر، كما قال لك صاحبك المالك النبيل، وبالأخص، انطلق من البداية، منذ الألفباء.

ما الذي يعذبك؟ الفقر، البؤس؟ ولكن البؤس، والفقر، يشكلان الفنان. إنهما لا ينفصلان عن البدايات. الآن، لا يحتاج إليك أحد ولا يريد حتى أن يعرفك، هكذا هي حال الدنيا. انتظر قليلا، وسترى عندما يعلم الناس أن لك موهبة. فالغيرة، والخسة الحقيرة والأسوأ من ذلك، السخافة، سوف تنصب عليك أكثر من البؤس. إن الموهبة بحاجة إلى التعاطف، وإلى أن تُفهم، وسوف ترى الوجوه التي ستحيط بك، عندما تقترب من تحقيق غايتك.

سوف ينظرون بازدراء إلى ما اكتسبت في أعماق قلبك، بالعمل الجادّ والمشقات، والجوع، وليالي السهاد، وسيعتبرون ذلك ترهات وتفاهات. إنهم لن يقدروك، ولن يواسوك، شركاء حياتك في المستقبل، لن يظهروا لك ما هو فيك طيب وأصيل، ولكن، بشماتة، سيسلطون الضوء على أيسر أخطائك، سيظهرون بالضبط ما فيك من شيء سيء، وما أنت تخطئ فيه، وتحت مظهر بارد وزري بك، سيعتبرون بمثابة عيد أهونَ أخطائك (كما لو أن أيّ شخص يمكن أن لا يرتكب أخطاء!).

أنت متعجرف وغالبا ما تكون عجرفتك في غير محلها ويمكن أن تسيء إلى شخص تافه مغرور، وعندئذ مصيبة، ستكون وحيدا، بينما هم كثيرون، سيلتهمونك بالدبابيس. حتى أنا بدأت أشعر بذلك. فتشجع الآن إذن! أنت لست فقيرا تماما، تستطيع أن تعيش، لا تحتقر العمل القذر، انشر الأخشاب، كما نشرتها أنا في حفلات الحرفيين الفقراء.

ولكنك غير صبور، ويصيبك نفاد صبرك بالمرض، لديك قليل

من البساطة، أنت تراوغ كثيرا، وتفكر كثيرا جدا، وتعطي الكثير من العمل لرأسك، أنت جريء بالكلام، وجبان عندما يكون ضروريا أن تمسك بين يديك بالقوس.

أنت كثير الغرور ولكن قليل الشجاعة. تشجع إذن، وانتظر قليلا، وتعلم، وإذا لم تشق طريقك بقوتك، تقدم جزافا، أنت تفيض حماسة وعاطفة، ربما تصل إلى غايتك، وحتى إذا لم تصل إليها، تقدم جزافا، فلن تخسر شيئا على أية حال، لأن الربح كبير جدا.

نعم، يا أخي، إن المجازفة - أمر عظيم!

كان ييفيموف يصغي إلى رفيقه القديم بتأثر عميق. ولكن، عندما كان يتحدث اختفى الشحوب من وجهه وحلّ مكانه الاحمرار، وتألقت عيناه على غير العادة بلهب الجرأة وبريق الأمل.

وبسرعة، تحولت هذه الجرأة النبيلة إلى ثقة بالنفس ثم إلى وقاحة معتادة، وأخيرا، في اللحظة التي كان ب. ينهي خطبته، كان ييفيموف يستمع إليه شارد الذهن ونافد الصبر.

ومع ذلك، صافحه بحرارة، وشكره، ولكنه سرعان ما انتقل من الإحباط الشديد والحزن العميق إلى أقصى الغطرسة والوقاحة، طالبا من صديقه بكل ثقة في النفس أن لا يقلق على مصيره وقائلا له إنه يعرف كيف يدبر مستقبله، ويأمل أن يجد سريعا رعاية وأن يحيي حفلة موسيقية، ومن ثم سيحصل دفعة واحدة على المجد والمال معا.

هزّ ب. كتفيه، ولم يعارض رفيقه القديم، وافترقا ولكن ليس طبعا لفترة طويلة.

سارع ييفيموف إلى إنفاق المال الذي أُعطيَ له وعاد للبحث عنه مرة ثانية، ثم ثالثة، فرابعة، فعاشرة، إلى أن نفد صبر ب. أخيرا وطلب أن يُقال له إنه غائب. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد يراه تماما.

مرت سنوات عديدة. وذات يوم، بينما كان ب. عائدا إلى البيت من بروفة موسيقية، وقعت عيناه، في زقاق، عند مدخل حانة قذرة، على رجل رثّ الثياب، ثمل تقريبا، ناداه باسمه. كان ذلك الرجل هو ييفيموف. كان قد تغير كثيرا، كان وجهه مصفرا، وتضخم جسمه، وكان واضحا أن حياة فاسدة قد تركت أثرها عليه بصورة لا تمحى.

كان ب. سعيدا جدا ودون أن يتمكن من قول كلمتين لصديقه، وجد نفسه يتبعه إلى الحانة التي قاده الآخر نحوها. وهنا، في غرفة خلفية صغيرة سخماء، نظر إلى صديقه عن كثب.

كان تقريبا في حالة يرثى لها، كان ينتعل حذاء مثقوبا، ويرتدي قميصا وسخا، وملطخا كله بالخمر. وبدأ شعر رأسه يشيب وينسُل.

بادره ب. بالسؤال:

- ماذا بك؟ أين أنت الآن؟

بدا ييفيموف مرتبكا، وحتى وجلا وخجلا، وأجاب بكلام مفكك ومتقطع، إلى درجة أن ب. ظن أنه كان يرى أمامه رجلا مجنونا. في البداية، اعترف ييفيموف بأنه لم يكن قادرا على أن يقول كلمة ما دام لم يعط قليلا من الفودكا، وأنه في هذه الحانة قد قُطع عنه السلف منذ مدة طويلة.

حين كان يقول ذلك احمر خجلا، حتى وإن حاول أن يبدي شجاعة كنوع من الإشارة إلى التحدي، ولكن النتيجة كانت شيئا وقحا، مصطنعا، وعدوانيا، بحيث بدا ذلك أمرا باعثا على الرثاء وأثار شفقة الطيب ب. الذي أدرك أن مخاوفه تحققت بالكامل.

ومع ذلك، طلب الفودكا. وتحت تأثير الاعتراف بالفضل، تغيرت سحنة ييفيموف وألفى نفسه ضائعا تماما، حتى أن عينيه اغرورقتا بالدموع وكاد أن يقبل يد المحسن إليه.

خلال وجبة الطعام، علم ب. بخبر لا يخلو من مفاجأة كبرى، هو أن التعيس متزوج. ولكنه دُهش أكثر أيضا عندما علم أن هذه المرأة هي السبب في كل ما حل بزوجها من بؤس وشقاء، وأن الزواج قضى على موهبته كليا.

سأل ب:

- كيف هذا؟

أجاب ييفيموف:

- منذ عامين، يا صديقي، لم تلمس يدي الكمان. إنها امرأة عامية، طباخة، فظة، غير متعلمة، لتذهب إلى...! إننا نقضي وقتنا كله في الشجار، هذا كل شيء.

- لماذا تزوجت، إذا كان الأمر كذلك؟

- لم يكن لدي طعام. والتقيت بها، كان لها ألف روبل، وتزوجت بتهور. وكانت هي مغرمة بي. هي التي تعلقت برقبتي. من الذي دفعها! ذهب المال هدرا، شرب خمرا، يا صديقي، و أية موهبة هنا! ضاع كل شيء!

أدرك ب. أن ييفيموف كان كما لو أنه يسارع إلى تبرئة نفسه أمامه من شيء ما غير واضح.

أضاف قائلا:

- لقد تركت كل شيء، هجرت كل شيء.

وهنا، قال له إنه، في الأوقات الأخيرة، كان قد وصل إلى ما يقرب من الكمال في العزف على الكمان، وإن ب. بدون شك كان واحدا من عازفي الكمان الأوائل في المدينة، إلا أنه لن يصل حتى إلى كعب حذائه، لو أراد ذلك.

قال ب. مذهولا:

- أين المشكل إذن؟ لم لا تبحث لك عن عمل؟

قال ييفيموف ملوحا بيده:

- لا داعي! من منكم هناك يفهم شيئا؟ ماذا تعرفون؟ لا شيء بتاتا، هذا ما تعرفون! أن تصفروا لحنا راقصا في باليه تافه، هذا عملكم. العازفون الجيدون على الكمان، لم تعرفوا أحدا منهم أبدا، ولم تسمعوا أحدا منهم أبدا. ما الفائدة من إزعاجكم، ابقوا هناك، كما تشتهون!

هنا، لوّح ييفيموف بيده من جديد وترنّح فوق مقعده، لأنه كان ثملا بشكل لا بأس به. ثم، أخذ يدعو ب. لزيارة بيته، ولكن الآخر اعتذر، وسجل عنوانه وأكد له انه سوف يأتي إليه في اليوم التالي. كان ييفيموف، الذي شرب الآن ما وسعه من الكحول، يرمي رفيقه القديم بنظرات ساخرة، ويحاول أن يغيظه بكل الوسائل.

أثناء الانصراف، تناول معطف ب. المُفرّى الثمين، وقدمه إليه، كما كان يمكن أن يفعل خادم مع سيده. وأثناء عبور الحجرة الأولى ، توقف وقدم ب. للخمار و الحضور باعتباره العازف الأول والوحيد على الكمان في العاصمة كلها. باختصار، كان قذرا جدا في تلك اللحظة.

ومع ذلك، زاره ب. في صباح اليوم التالي، فوجده في العلِّية، حيث كنا جميعا نعيش يومئذ، في فقر مدقع، داخل غرفة واحدة. كنت حينئذ في الرابعة من عمري، وكانت أمي متزوجة بييفيموف منذ سنتين.

كانت امرأة غير سعيدة. كانت من قبل مربية أطفال، وقد تلقت تعليما رائعا، وكانت جميلة، وبسبب الفقر، تزوجت بموظف متقدم في السن، هو أبي. لم تعش معه إلا سنة. وتوفي والدي بغتة، وعندما قُسم ميراثه الهزيل بين ورثته، بقيت أمي وحيدة معي، وليس لها غير قدر ضئيل من المال الذي عاد إليها من التركة. واشتغلت مربية من جديد، بطفلة صغيرة بين ذراعيها، كان هذا أمرا صعبا.

وفي ذلك الوقت، لا أدري كيف صادفت ييفيموف، وفي الواقع، أغرمت به. كانت امرأة متحمسة، حالمة، رأت في ييفيموف نوعا من العبقرية، صدقت خطابه الطافح فخرا حول مستقبله المشرق، وزين لها خيالها مصيرها المجيد بأن تكون راعية ومرشدة لرجل عبقري، فتزوجته.

ومنذ الشهر الأول تطايرت أحلامها وآمالها ولم يبق أمامها سوى الواقع الزَّريّ. إن ييفيموف، الذي تزوج في الحقيقة ربما لأن

أمي كانت تملك هذا الألف روبل البائس، حالما أنفق هذا المال، بقي مكتوف اليدين، وكما لو أنه كان سعيدا بأن يجد هذه الذريعة، أعلن حالا لأول قادم أن الزواج قضى على موهبته، وأنه لم يكن يستطع العمل في هذه الغرفة الخانقة، وجها لوجه مع أسرة جائعة، وأن هذا المكان ليس ملائما للتفكير في الأغاني والموسيقى، وأخيرا فإن هذه المصيبة ينبغي أن تكون مكتوبة في مصيره.

وأعتقد أنه هو ذاته اقتنع فيما بعد بصحة شكاواه، وأنه على ما يبدو ابتهج بأن وجد هذا العذر الجديد. كان من الواضح أن هذه الموهبة البائسة والضائعة كانت هي نفسها تبحث عن فرصة ضئيلة تستطيع أن تضع عليها كل إخفاقاتها، وجميع مصائبها. ولكنه لم يكن قادرا على الاقتناع بهذه الفكرة الرهيبة، التي تعني أنه مات منذ فترة طويلة وإلى الأبد بالنسبة للفن.

كان يتصارع مع هذا الاقتناع الفظيع بشكل محموم كأنه كان يتصارع مع كابوس مؤلم، وأخيرا، عندما انتصر عليه الواقع، وحالما تفتحت عيناه، شعر أنه كان على وشك أن يُجنّ من الرعب. كان مؤلما جدا بالنسبة إليه أن يفقد ثقته في كل ما فعل منذ فترة طويلة خلال حياته كلها، وظل حتى لحظاته الأخيرة يعتقد أن لحظته لم تحن بعد.

في ساعات الشك، كان يتعاطى للسكر الذي كان يطرد قلقه بهذيان كريه، وأخيرا، قد يكون هو نفسه لا يعرف كيف كان بحاجة لزوجة في ذلك الوقت. كان هذا عذرا دائما، وفي الواقع، كان زوج أمي مهووسا بهذه الفكرة الثابتة، إذ كان يرى أنه حين يدفن زوجته، التي هي السبب في ضياعه، سوف يكون كل شيء

على ما يرام. لم تكن أمي المسكينة تفهمه. ولم تستطع، كحالمة أصيلة، حتى أن تحتمل الخطوة الأولى في واقع معاد: فأصبحت مندفعة، صفراوية المزاج، عدوانية، وفي كل لحظة كانت تتخاصم مع زوجها، الذي كان يجد نوعا من المتعة في تعذيبها وكانت هي تعنفه لكي يبحث عن عمل.

ولكن العمى، والفكرة المتسلطة على زوج أمي، وهذيانه، كل ذلك جعله تقريبا فظا وقاسي القلب. كان يكتفي بالضحك وقد أكد أنه لن يلمس كمانه أبدا حتى وفاة زوجته، وهذا ما أعلنه لها بصراحة وحشية.

وبغض النظر عن كل شيء، لم تستطع أمي، التي أحبته بشغف حتى وفاته، أن تحتمل مثل هذه الحياة. كانت قد أصبحت مريضة على الدوام، وتعيش على الدوام في ألم، وعذاب مستمر، وحتى خارج هذه المحنة، فهي وحدها التي كانت تهتم بإطعام الأسرة. بدأت بطهي الطعام وفتحت أولا في بيتها طاولة لبعض الزبائن. لكن زوجها كان يسرق منها خفية كل مالها وكثيرا ما كانت مضطرة لإعادة الأواني فارغة بدلا من وجبات الطعام، إلى أولئك الذين كانت تتعامل معهم.

عندما زارنا ب. كانت منهمكة في غسل الثياب وإعادة صبغ الملابس القديمة. وهكذا كنا جميعا نعيش في عِلّيتنا بمشقة.

دُهش ب. من بؤس أسرتنا.

قال لزوج أمي:

- اسمع، أنت تقول هراء، ما علاقتها بالموهبة الضائعة؟ هي التي تطعمك، وأنت، ماذا تفعل؟

وأجابه زوج أمي:

- لا شيء!

ولكن ب. كان لا يزال يجهل كل مشاكل أمي. كان زوجها يحضر إلى البيت عصابة كاملة من مختلف الصعاليك والمشاغبين وعندئذ، تصور ماذا كان يمكن أن يجري هناك!

حاول ب. مدة طويلة إقناع رفيقه القديم، وانتهى إلى القول له إنه إذا لم يرد أن يصلح نفسه، فلن يساعده بأي شيء، وقال له بلا لفّ ودوران إنه لن يعطيه مالا، لأنه سوف يشربه حالا، وطلب منه أخيرا أن يعزف له شيئا على الكمان، ليرى ماذا يمكنه أن يتخذ في شأنه.

وعندما مضى زوج أمي لإحضار كمانه. حاول ب. أن يدس خفية مالا في يد أمي، ولكنها رفضت أن تتناوله. كانت المرة الأولى التي كان عليها أن تقبل صدقة! وعندئذ قدّم ب. المال لي أنا واغرورقت عينا المرأة المسكينة بالدموع.

جاء زوج أمي بالكمان، ولكنه طلب الفودكا أولا، قائلا إنه لا يستطيع العزف دون ذلك. أرسل في طلب الفودكا. شرب واستراح.

قال ل ب.:

- سأعزف لك شيئا من تلحيني، إكراما للصداقة.

وأخرج دفترا كبيرا مغبرا كله من تحت المنضدة.

قال له مشيرا للدفتر:

- كل هذا، أنا الذي ألفته. هنا، سترى! هذا، يا عزيزي، شيء آخر مختلف عن باليهاتك التافهة!

ألقى ب. نظرة على بعض الصفحات، دون أن يقول شيئا، ثم كشف عن علامات موسيقية كانت معه، وطلب من زوج أمي، أن يترك جانبا مؤلفاته الخاصة، وأن يعزف له مما أحضره بنفسه.

استاء زوج أمي قليلا، إلا أنه، خوفا من أن يخسر هذه الرعاية التي كانت تُعرض عليه، امتثل لأمر ب. وهنا استطاع ب. أن يرى أن رفيقه القديم قد اشتغل كثيرا وتطور منذ افترقا، حتى ولو اختلق أنه منذ يوم زواجه، لم يلمس كمانه أبدا.

وما أشدّ فرحة أمي المسكينة !

كانت تنظر إلى زوجها ومن جديد كانت فخورة به. وقرر ب. الطيب، وهو سعيد حقا، أن يجد مكانا لزوج أمي.

وفي ذلك الوقت، كانت لديه علاقات كثيرة وبدأ فورا في اتخاذ خطوات، لتزكية صاحبه البائس، آخذا منه وعدا بأن يتصرف جيدا.

وفي غضون ذلك، كساه بشكل أفضل قليلا، على نفقته، ومضى به إلى بعض الأشخاص المعروفين، الذين كان يتوقف عليهم العمل، الذي كان يريد أن يجده له.

والحقيقة أن ييفيموف لم يتشدق إلا قولا، ولكن، كان يبدو، أنه قبل اقتراح صديقه القديم بفرح عظيم.

كان ب. يحكي أنه بدأ يشعر بالخجل من الإطراء المبالغ فيه والتبجيل المذل، اللذين كان زوج أمي يحاول أن يجامله بهما، خائفا بطريقة أو بأخرى من أن يخسر رعايته.

أدرك أنه وضع على الطريق الصحيح، وكان قد انقطع عن شرب الخمر. وأخيرا، وجد له عمل في أوركسترا المسرح. اجتاز الاختبار بطريقة مرضية، لأنه استطاع في شهر من العمل الجاد كان كافيا أن يسترجع كل ما ضاع منه في عام ونصف عام من الكسل، ووعد بأن يعمل أكثر في المستقبل وأن يكون موثوقا ودقيقا في التزاماته الجديدة.

غير أن وضع أسرتنا لم يتحسن بتاتا. لم يكن زوج أمي يعطي لزوجته كوبيكا واحدا من أجرته، فقد كان ينفق كل النقود على نفسه، إذ كان يشرب ويأكل مع أصدقائه الجدد، الذين كانت له منهم على الفور حلقة كاملة.

كان يتعاشر غالبا مع عاملين في المسرح، ومغنين في الكورس، وممثلين كومبارس، باختصار، مع أناس يستطيع الهيمنة عليهم، ويتفادى ذوي المواهب الحقيقية. كان يحدث أن يحثهم على نوع من الاحترام الخاص، وأن يحكي لهم حالا أنه لم يُعترف به، وأنه ذو موهبة عظيمة، وأن زوجته هي التي دمرته، وأخيرا، فإن رئيس الجوقة لا يفهم شيئا في الموسيقى. كان يتهكم على كل فناني المسرح، واختيار العروض المقدمة، وأخيرا، حتى على ملحني أغاني الأوبرا.

وأخيرا، أخذ يشرح نوعا من نظرية موسيقية جديدة، وباختصار، ما لبث أن نفّر منه الأوركسترا كلها، واختلف مع رفاقه، ورئيس الفرقة الموسيقية، وأظهر الخشونة مع الإدارة، واكتسب سمعة أعنف الرجال وأسوئهم وحتى أسخفهم، وأصبح بالتالي لا يطاق لدى الجميع.

وفي الواقع، كان أمرا غريبا جدا أن نرى رجلا تافها، وسيئا للغاية، وعازفا لا يجدي نفعا وموسيقيا مهملا، وفي الوقت ذاته يبدو بمثل هذه الادعاءات الضخمة وهذا التفاخر وهذا الغرور وهذه اللهجة الحادة.

وانتهى الأمر بأن تخاصم زوج أمي مع ب. واختلق أقذر النمائم وأقبح الافتراءات، وأطلقها كحقيقة واضحة.

وطرد من الأوركسترا بعد ستة أشهر من العمل المضطرب، بسبب الإهمال في أداء واجباته، ومن أجل الإدمان على الخمر. ولكنه لم يترك عمله بسرعة كبيرة جدا. وما لبث أن عاد مرة أخرى إلى ارتداء خرقه التي يرثى لها، لأن ملابسه المحترمة بيعت من جديد ورهنت.

وبدأ يتردد على زملائه السابقين، الذين كان عليهم، طوعا أو كرها، أن يحتملوه، كان يشيع القيل والقال ويحكي هراء ويبكي حياته، ويدعو كل واحد منهم إلى بيته لرؤية المرأة الشريرة التي هي زوجته.

طبعا، وجد آذانا مصغية، وكان هناك أشخاص يجدون متعة، في أن يجعلوا رفيقهم المفصول يروي لهم، بعد أن يسكر، كل أنواع الهراء.

أكثر من ذلك، كان كلامه دائما لاذعا وبارعا على الدوام، ويضع في خطابه ضغينة لاسعة وجميع أنواع الهجمات الساخرة، التي تروق دائما لبعض المستمعين.

كان يعتبر مثل مهرج مختل قليلا، كان الكلام معه في بعض الأحيان لطيفا، عندما لا يجد المرء ما يفعل.

كانوا يحبون ممازحته، بالحديث معه عن مرور عازف كمان جديد. هنا، كان ييفيموف ينهار، ويستولي عليه الخوف، وينطلق في التحقيقات، لكي يعرف من الذي جاء، ومن هي هذه الموهبة الجديدة، ويبدأ حالا يغار على مجده.

ومنذ ذلك الحين، كما يبدو، بدأ جنونه الحقيقي والمنهجي، وتصوره الراسخ أنه كان أول عازف كمان، في بطرسبورغ على الأقل، ولكن الحظ خانه، وأنه أهين، وأسيء فهمه، بشتى أنواع المؤامرات، ولذلك ظل مجهولا

وهذه الفكرة الأخيرة كانت تعجبه كثيرا، لأن من طباع بعض الأشخاص أن يعتبروا أنفسهم مهانين ومضطهدين، إذ يشتكون جهارا أو يتعزون في الخفاء، من خلال إجلال عظمتهم غير المعترف بها.

كان يعرف كل العازفين في بطرسبورغ من أولهم إلى آخرهم، وفي رأيه، أن أي واحد منهم لم يستطع أن ينافسه.

إن الخبراء المحترفين والهواة الذين يعرفون البائس المختل كانوا يحبون أن يثيروا النقاش حول هذا أو ذاك العازف الموهوب والمعترف به، لإجباره على الكلام هو بدوره.

كانوا يحبون سخطه وملاحظاته الجارحة، ويحبون الأشياء الدقيقة والذكية التي كان يقولها عندما ينتقد عزف منافسيه المفترضين.

لم يكونوا يفهمونه في كثير من الأحيان، ولكنهم كانوا على يقين من أن أي أحد في العالم لا يمكنه، مهما أوتي من الذكاء، أن يرسم مثله صورة كاريكاتورية حية لمشاهير الموسيقيين في ذلك الوقت.

وحتى هؤلاء الموسيقيون الذين كان يسخر منهم، كانوا يخشونه قليلا، لأنهم كانوا يعرفون حدة لهجته، ويعترفون بسداد هجماته، وصواب أحكامه في هذه الحالة، عندما يكون النقد ضروريا.

كان من المألوف تقريبا أن يرى في أروقة وكواليس المسرح. كان المستخدمون يسمحون له بالمرور دون عائق، كشخص لا غنى عنه، فأصبح نوعا من "ثيرسيت"[1] العائلي.

هذا النوع من الحياة استمر سنة أو ثلاث سنين، ولكنه في النهاية ملّ منه الجميع، حتى في هذا الدور الأخير.

لقد تمّ طرده طبق القوانين، وخلال السنتين الأخيرتين من حياته، كان زوج أمي كأنه غرق في الماء أو تبخر في الهواء، فلم يعد يراه أحد في أي مكان.

ومع ذلك، التقي به ب. مرتين، ولكن في حالة يرثى لها، فشعر مرة أخرى بالعطف عليه أكثر من الاشمئزاز. وناداه، ولكن زوج أمي استاء، وتظاهر بأنه لم يسمع، وسحب على عينيه قبعته المهترئة الشوهاء، ومرّ جانبا كأن شيئا لم يكن. وأخيرا، في أحد الأعياد الكبيرة، أخبر ذات صباح أن صديقه القديم، بيفيموف، جاء ليقدم إليه تهانيه. فخرج ب. لاستقباله. كان بيفيموف سكران، وأخذ ينحني منخفضا جدا، حتى يصل تقريبا إلى الأرض، ويحرك شفتيه، ورفض الدخول بعناد.

---

(1) ثيرسيت : **thersite** شخصية أسطورية، باليونانية: صفيق، وقح، وهو جندي من الجيش اليوناني في حرب طروادة، بشع، ساخر، ومحتقر من الأبطال وبصفة عامة مكروه وفاشل، يصفه هوميروس في الإلياذة بالتفصيل رغم دوره الثانوي.

كان المغزى من هذه الحركة الإيمائية أن يقول، هكذا، أليس كذلك، كيف يمكن لنا، نحن معشر الناس العاديين، أن نعاشر الناس الكبار من ذوي المقام الرفيع، مثلكم، حسبنا نحن، معشر الناس الصغار، مكان الخنوع الوضيع، كي نأتي لتقديم التهنئة بالعيد: إننا ننحني وننصرف من هنا. باختصار، كل شيء كان فظا وسخيفا، ومقرفا ومثيرا للاشمئزاز.

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد ب. يراه خلال مدة طويلة، إلى أن حلت تلك الكارثة التي أنهت هذه الحياة الحزينة والمؤلمة والحميمية. هذه الحياة انتهت بطريقة رهيبة. هذه الكارثة ليست فقط وثيقة الصلة بانطباعاتي الأولى في أيام الطفولة، بل وحتى بحياتي كلها. وهنا كيف حدث ذلك... ولكن يجب علي أولا أن أوضح ما كانت عليه طفولتي وما كان يمثل بالنسبة لي هذا الرجل الذي نقش في إحساساتي الأولى بطريقة مؤلمة جدا والذي كان السبب في وفاة أمي المسكينة.

الفصل الثاني

لا أتذكر شيئا عن نفسي إلا في وقت متأخر جدا، بدءا من سنتي التاسعة فقط. لا أعرف كيف أن كل ما حدث لي حتى هذه السن لم يترك في نفسي أي إحساس واضح أستطيع أن أتذكره الآن. ولكنني ابتداء من الثامنة والنصف، أتذكر كل شيء بوضوح، يوما بعد يوم، وبشكل مستمر، كما لو أن كل ما حدث انطلاقا من تلك اللحظة لم يقع إلا بالأمس فقط.

أستطيع، طبعا، كما في حلم، أن أتذكر هذا الشيء أو ذاك الشيء الذي كان من قبل: مصباحا لا يزال مشتعلا في زاوية مظلمة، أمام إيقونة قديمة، ثم، ذات يوم، في الشارع، داسني حصان، فبقيت، بالتالي، كما حكي لي، طريحة الفراش، لمدة ثلاثة أشهر، وبعد ذلك، أثناء هذا المرض، استيقظت، ذات ليلة، بجانب أمي، التي كنت أنام معها، وفجأة، فزعت من الأحلام التي رأيتها عندما أصبت بالحمى، ومن صمت الليل، ومن الفئران التي كانت متربصة في أحد الأركان، وارتعدت خوفا طوال الليل وبت منكمشة تحت بطانيتي، دون أن أجرؤ على إيقاظ أمي، فقد استنتجت أنني كنت خائفة منها أكثر من كل مخاوفي الأخرى، ولكن، منذ تلك اللحظة التي بدأت فيها فجأة أعي ذاتي، أخذت أنمو بسرعة، وبطريقة غير متوقعة، وإذا بعديد من الإحساسات

التي ليست صبيانية على الإطلاق، قد أصبحت بالنسبة إلي حية جدا.

فاتضح كل شيء أمامي، وأصبح كل شيء مفهوما بأقصى سرعة. وترك الوقت الذي بدأت أتذكر جيدا في نفسي إحساسا حادا وحزينا، ثم تكرر هذا الإحساس في كل يوم، ونما يوما بعد يوم، وألقى ظلا قاتما وغريبا على المرحلة التي عشتها في بيت عائلتي وفي الآن نفسه على طفولتي بكاملها.

الآن، يبدو لي، أنني صحوت فجأة، كما من نوم عميق (رغم أن ذلك لم يكن، يومئذ، طبعا، بالنسبة إلي حتى مثيرا للانتباه). وجدتني في غرفة كبيرة، واطئة السقف، خانقة، وغير نظيفة. كانت الجدران ملطخة بلون رمادي قذر. وفي الزاوية مدفأة روسية ضخمة، والنوافذ كانت تطل على الشارع، أو بالأحرى على سطح المنزل المقابل، كانت منخفضة وعريضة، كشقوق في جدار. كانت رفوف النافذة مرتفعة جدا عن الأرض، بحيث أتذكر كيف كان علي أن أصعد فوق كرسي، وضعته على مقعد طويل، حتى أصل بمشقة إلى رف النافذة، الذي كان يحلو لي أن أبقى جالسة عليه، عندما لا يكون أحد في البيت. من شقتنا كان يرى نصف المدينة، كنا نسكن تحت نفس السقف، في بناية ضخمة، من ستة طوابق.

كان كل أثاثنا يتكون من بقايا أريكة مشمعة، معفرة بالغبار والقش، ومائدة من خشب أبيض، وكرسيين، وسرير أمي، ودولاب صغير مع بعض الأمتعة في ركن، ومنضدة متداعية القوائم دائما، وستار من ورق ممزق.

أتذكر، أثناء حلول الليل، كان كل شيء في حالة فوضى،

خليطا ملقى هنا وهناك: فُرشات، خرق أقمشة، صحوننا الخشبية، زجاجة مكسورة، وما لا أدري.

أتذكر أن أمي كانت شديدة الاضطراب، وكانت تبكي.

وكان زوج أمي جالسا في ركنه، مرتديا معطفه الدائم الرث. كان يرد عليها بسخرية، مما كان يزيدها حنقا، ومن جديد بدأت الفرشات والأواني تتطاير فوق الأرض.

وطفقت أبكي، وأصيح، وألقي بنفسي عليهما معا على حد سواء. شعرت برعب شديد واحتضنت بابا بقوة، لأدافع عنه بجسدي.

يعلم الله لماذا كان لدي إحساس بأن أمي كانت على خطأ في غضبها منه، وبأنه لم يكن مذنبا: كنت أود أن ألتمس العذر له وأن أحمل عنه أي عقاب.

كنت خائفة من أمي بشكل رهيب، وكنت أفترض أن الناس جميعا كان لهم نفس الخوف منها. بقيت أمي أولا مذهولة، ثم أمسكتني من ذراعي، وسحبتني خلف الستار.

اصطدمت يدي بالسرير، وآلمتني ألما شديدا، ولكن الخوف كان أقوى من الألم، ومع ذلك لم أصعر حتى خدي.

وأتذكر أيضا، أخذت أمي تتحدث مع أبي بحرارة ومرارة، وهي تشير إلي (من الآن فصاعدا، سوف أناديه دائما، في بقية هذه القصة، بلقب أبي، لأنني لم أعلم إلا بعد هذا الوقت بكثير أنه لم يكن والدي الحقيقي).

استمر هذا المشهد تقريبا ساعتين، وأنا، كنت مرتعشة من

الانتظار، أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أخمن كيف سينتهي كل شيء. وأخيرا، هدأ الخصام، وخرجت أمي إلى حيث لا أدري. وعندئذ، ناداني أبي، وقبلني، وداعب رأسي، وأجلسني على ركبتيه، وحضنته بكل قوة ورقة.

ربما كانت هذه أول مداعبة أبوية وربما بسببها أتذكر كل شيء بوضوح منذ ذلك الوقت. وأدركت أيضا أنني نلت رضى أبي بالدفاع عنه، وهنا، ربما كانت المرة الأولى التي أدهشتني فكرة أنه كان يعاني ويتحمل من أمي محنا كثيرة، ومنذ تلك اللحظة، لم تبرح هذه الفكرة بالي، وفي كل يوم كانت تثير استيائي أكثر فأكثر.

منذ تلك اللحظة، ولد في نفسي نوع من الحب بلا حدود نحو أبي، ولكنه حب غريب، كأنه غير طفولي على الإطلاق. سأقول بالأحرى إنه نوع من الشعور بالعطف، الأبوي، إذا لم يبد مثل هذا الوصف للحب مضحكا بالنسبة لطفلة.

كان يبدو لي دائما جديرا كثيرا بالشفقة، مظلوما كثيرا، معذبا كثيرا، مضطهدا كثيرا، حتى أنه كان بالنسبة إلي أمرا مخيفا، وغير طبيعي، أن لا أحبه حتى الجنون، أن لا أواسيه، أن لا ألاطفه، وأن لا أحاول أن أسري عنه بكل ما أوتيت من قوة. ولكن، حتى الآن، ما زلت لا أفهم كيف خطرت ببالي فكرة أن أبي كان متألما إلى أقصى حد، وأنه أشقى إنسان في العالم!

من الذي أوحى لي بذلك؟ كيف استطعت، أنا الطفلة، أن أفهم شيئا من إخفاقات حياته؟ إذ كنت أفهمها، طبعا، بطريقتي الخاصة، بعد أن أعيد تأويلها على هواي، في مخيلتي، وما زلت

حتى الآن، لا أستطيع أن أتصور كيف نشأ عندي مثل هذا الإحساس.

ربما كانت أمي قاسية جدا معي، فتعلقت بأبي، ككائن كان، في نظري، يعاني، مثلي، نفس الألم.

سبق لي أن حكيت صحوتي الأولى من نوم الطفولة، وخطوتي الأولى في الحياة.

كان قلبي قد جرح منذ اللحظة الأولى، وبدأت أنمو بسرعة متعبة وبطريقة عجيبة.

لم أستطع أن أقنع بالإحساسات الظاهرية وحدها. فأخذت أفكر، وأتأمل، وألاحظ، لكن هذه الملاحظة وقعت في وقت مبكر جدا بصورة غير طبيعية، بحيث إن مخيلتي لم تستطع أن تحول كل شيء على طريقتها، وفجأة وجدت نفسي في عالم غريب.

وأخذ كل ما حولي يشبه تلك القصة الرائعة التي كثيرا ما حكاها لي أبي ولم أستطع ألا أعتبرها، في ذلك الوقت، حقيقة خالصة. ولدت تصورات غريبة.

كنت أعرف جيدا جدا، ولا أدري كيف حدث ذلك، أنني أعيش في أسرة غريبة وأن والدي لم يكونا يشبهان البتة الناس الآخرين الذين كان يحدث أن ألتقي بهم في ذلك الوقت.

كنت أتساءل: لماذا أرى أشخاصا آخرين، لا يشبهون، حتى مظهرا، والدي؟ لماذا لاحظت الضحك على الوجوه الأخرى، ولماذا صدمت بأن في ركننا نحن، لم يكن يضحك أحد قط، ولم يبد أبدا سعيدا؟ أية قوة ساقتني، وأي سبب دفعني، أنا الطفلة ذات

التسع سنين، إلى أن أنظر بانتباه، أن أصغي لأدنى كلمة يقولها الناس الذين كان يحدث أن ألتقي بهم، إما على سلمنا، وإما في الشارع، عندما، في المساء، أذهب إلى الدكان، بقطعي النقدية النحاسية، مغطية خرقي قليلا بسترة أمي القصيرة القديمة، لأشتري، ببضعة قروش، السكر والشاي أو الخبز؟ وفهمت، لا أدري كيف، أن ما كان يوجد في ركننا، هو نوع من البؤس الأبدي، الذي لا يطاق.

صدعت رأسي، كنت أحاول أن أفهم لماذا كان الأمر هكذا، ولم أعرف من الذي كان يمكنه أن يساعدني لأفهم كل شيء على طريقتي: كنت أتهم أمي، وأقر بأنها السبب في مصائب أبي، وأقول ذلك مرة أخرى: لا أفهم كيف أمكن أن يتشكل في مخيلتي مثل هذا التصور الفظيع.

وبقدر ما تعلقت بأبي، بقدر ما كرهت أمي المسكينة.

وحتى الآن، تعذبني هذه الذكري بشكل عميق ومرير.

ولكن هذه حالة ثانية، أكثر أيضا من الأولى، تحثني على التقرب من أبي.

مرة، حوالي الساعة التاسع مساء، أرسلتني أمي إلى الحانوت لآتي بالخميرة، ولم يكن أبي في البيت.

عندما كنت راجعة، سقطت وسكبت كل ما في الكوب.

أول فكرة خطرت ببالي كم ستغضب أمي.

وفي غضون ذلك، أحسست بألم شديد في ذراعي الأيسر، ولم أتمكن من النهوض.

وقف بعض المارة حولي، وشرعت امرأة عجوز تساعدني على القيام، ولكن طفلا صغيرا كان يمر راكضا ضربني بمفتاح على رأسي، وأخيرا، أوقفوني على قدمي، فجمعت بقايا الكوب المكسور، وانصرفت، مترنحة، لا أكاد أتماسك على ساقي. وفجأة، رأيت أبي.

كان واقفا في حشد من الناس، أمام منزل ثري كان منتصبا تجاه منزلنا. كان ذاك المنزل ينتمي لأعضاء من المجتمع الراقي وكانت له إضاءة رائعة، والعديد من العربات كانت مرابطة أمام درج المدخل، وتتناهى أصداء موسيقى من نوافذه حتى تصل إلى الشارع.

أمسكت أبي من هدب معطفه، وأريته الكوب المكسور، وطفقت أبكي، وأخذت أقول إنني كنت خائفة من الذهاب إلى أمي. كنت إلى حد ما مقتنعة بأنه سيدافع عني، ولكن لماذا كنت مقتنعة، من الذي أوحى لي بذلك، من قال لي إنه يحبني أكثر من ماما؟ ما سبب أنني اتجهت إليه دون خوف؟ أمسكني من يدي، وأخذ يهدئ من روعي ثم قال لي إنه يريد أن يطلعني على شيء ورفعني بين ذراعيه.

لم أستطع أن أرى شيئا لأنه كان يمسكني من يدي المصابة برضوض وكان ذلك يؤلمني حقا ألما شديدا، ولكنني تمالكت نفسي عن الصراخ، خوفا من أن أحزنه.

كان لا يزال يسألني إذا كنت أرى شيئا. وأنا، كنت أحاول، بكل ما في وسعي، أن أجيبه لأرضيه، وقد أجبته بأنني كنت أرى ستائر حمراء.

وعندما أراد أن يأخذني إلى الجانب الآخر من الرصيف، أقرب من المنزل، لا أدري لماذا أخذت فجأة أبكي، وأعانقه وأطلب منه أن يصعد بي إلى الطابق العلوي في أسرع وقت، إلى أمي. أذكر أن مداعبات أبي كانت صعبة علي كثيرا، ولم أستطع أن أحتمل أن أحد اللذين كنت أريد أن أحبه بقوة- كان يداعبني ويحبني بينما كنت أخاف، ولا أجرؤ على الذهاب إلى الآخر. ولكن أمي لم تؤنبني تقريبا، وأرسلتني إلى السرير.

أتذكر أن ألم يدي، الذي كان لا يزال يشتد، قد أصابني بالحمى. ومع ذلك، كنت أسبح في نوع من السعادة الغريبة إذ تم كل شيء على ما يرام، وطوال الليل، حلمت بالمنزل المقابل بستائره الحمراء.

وإذن، منذ أن صحوت، في اليوم التالي، كانت الدار ذات الستائر الحمراء، هي فكرتي الأولى وهمي الوحيد.

حالما خرجت أمي، تسلقت النافذة، وأخذت أتطلع إليها. هذه الدار أثارت فضولي الطفولي منذ مدة طويلة. كنت أحب أن أنظر إليها في المساء خاصة، عندما كانت تشتعل الإضاءة في الشارع، والستائر المزدوجة، خلف زجاج النوافذ في الدار الساطعة الأضواء، تبدأ في الالتماع بنوع من الإشعاع الدموي، الفريد، الأحمر، كاللون الأرجواني.

كانت تشاهد دائما تقريبا أمام درج المدخل عربات فاخرة تجرها خيول رائعة وشامخة وكل ذلك كان يلهب مخيلتي: الصياح، الازدحام أمام المدخل، الفوانيس المتعددة الألوان في العربات، النساء الخارجات منها بمظاهر الأبهة.

كل ذلك كان في مخيلتي الطفولية يتخذ هيئة ملكية وباذخة، بل رائعة وفاتنة أيضا.

والآن، بعد أن التقيت أبي أمام هذه الدار الثرية، وجدتها، هذه الدار، مضاعفة الروعة والفتنة. والآن، أحس بأن في مخيلتي الأسيرة كانت تولد كل أنواع التصورات والافتراضات الغريبة. ولا أستغرب أن أصير أنا نفسي طفلة غريبة وعجيبة بين كائنات غريبة مثل أبي وأمي.

كنت إلى حد ما مذهولة خاصة بتناقض طباعهما. كنت مدهوشة، مثلا، بحقيقة أن أمي كانت دائما تهتم وتكافح من أجل رعاية أسرتنا الفقيرة، وتلوم بلا انقطاع أبي على أن تكون هي وحدها الكادحة من أجل الجميع، ورغما عني، كنت أتساءل: لماذا إذن لا يساعدها أبي بتاتا، لماذا يعيش كغريب في بيتنا؟ كما أن بعض كلمات أمي أعطتني فكرة عن ذلك، وبنوع من المفاجأة علمت أن أبي كان فنانا (هذه الكلمة، احتفظت بها في ذاكرتي) أن أبي كان إنسانا موهوبا، وعلى الفور تشكل في مخيلتي تصور عن الفنان كأنه شخص غير عادي، ولا يشبه الناس الآخرين.

لعل سلوك أبي نفسَه هو الذي ساقني إلى هذه الفكرة، أو ربما كنت قد سمعت شيئا، خرج اليوم من ذاكرتي، ولكن كان مفهوما بالنسبة إلي على نحو غريب شيئا ما معنى الكلمات التي قالها أبي أمامي مرة واحدة بنوع من الشعور الخاص.

قال إنه سيأتي وقت، لن يكون هو أيضا في بؤس، حيث سيكون هو نفسه سيدا نبيلا ورجلا غنيا، وإنه أخيرا سيحيى من جديد حينما ستموت أمي.

أذكر أن هذه الكلمات أفزعتني في أول الأمر إلى أقصى الحدود. كنت غير قادرة على البقاء في الغرفة، فهرعت نحو مدخلنا الجليدي، وهناك، أخذت أنتحب، متكئة على النافذة، ومخبئة وجهي بين يدي.

ولكن، فيما بعد، عندما فكرت في ذلك، عندما تعودت على رغبة أبي الرهيبة، هبت المخيلة فجأة لمساعدتي.

أنا نفسي لا يمكن لي أن أظل أعاني إلى ما لا نهاية من قبل المجهول، وكان يجب علي بالتأكيد أن أتوقف عند بعض الافتراضات.

وبالتالي، لا أعرف كيف بدأ ذلك في أول الأمر، ولكنني في نهاية المطاف توصلت إلى هذا الافتراض: إذا ماتت أمي، سيترك أبي هذه الغرفة المملة، ويذهب بي إلى حيث لا أدري. ولكن إلى أين؟ حتى وقت قريب، لم أستطع الوصول إلى فكرة واضحة.

أتذكر فقط أن كل ما كان يمكنني أن أتصوره لتزيين ذلك المكان الذي سنمضي إليه معا (وقد قررت بالتأكيد أننا سنمضي معا) وأن كل ما كان يمكن أن ينشأ في مخيلتي من شيء رائع وفخم وعظيم، كل ذلك كان يترك أثره في هذه الأحلام.

كان يبدو لي أننا سنصبح أغنياء بسرعة، ولن أعود أذهب للتسوق في المتجر، الذي كان مؤلما جدا، لأن أطفال الدار المجاورة كانوا يهجمون علي دائما، كلما خرجت من المنزل، كان خوفي منهم رهيبا، خاصة عندما كنت أحمل الحليب أو الزبدة، علما بأني لو أوقعتهما لكنت عوقبت بشدة، وقررت فيما بعد، في تأملاتي، أن أبي أخذ يرتدي ثيابا جميلة، وأننا سوف نسكن في

منزل فخم، وهنا، فإن تلك الدار الثرية ذات الستائر الحمراء ولقائي أمامها بأبي، الذي كان يريد أن يريني شيئا داخلها، كل ذلك جاء مسعفا لمخيلتي إلى حد كبير.

وعلى الفور بدا في تخميناتي أننا سوف ننتقل إلى ذلك المنزل الفخم بالذات وسوف نعيش هناك في نوع من العيد الدائم والنعيم الأبدي.

ومنذ تلك اللحظة، كل مساء، وبفضول مليء بالتوتر، كنت أتطلع عبر النافذة إلى تلك الدار التي كنت أراها سحرية، كنت أتذكر وصول الضيوف، جميع الزوار المرتدين ثياب الأحد، والذين لم أر بعد في حياتي مثلهم أبدا، كنت أظن أنني أسمع تلك الموسيقى الرخيمة الأصوات، التي كانت تحلق من النوافذ، كنت أحملق في ظلال الناس التي كانت تلوح من خلال ستائر النوافذ مرة بعد أخرى، وكنت أحاول دائما أن أخمن ماذا كانوا يفعلون وكان يبدو لي كل شيء هناك نعيما وعيدا دائما. وأخذت أكره مسكننا الفقير والحقير، والخرق التي أرتديها، وعندما أنبتني يوما أمي وأمرتني بالنزول من النافذة، التي كنت أتسلقها كما هي عادتي، خطر ببالي حالا أن ما كانت تريد، هو أن لا أنظر، بالضبط، إلى تلك الدار، وأن لا أفكر فيها، وأنها لم تكن تحب سعادتنا، وأنها كانت تمنعها عنا، في هذه المرة أيضا... وطوال المساء، نظرت إلى أمي بانتباه وارتياب.

وكيف إذن أمكن أن يولد في أعماقي مثل هذا الكره تجاه كائن شقي باستمرار، كأمي؟ ولم أفهم إلا اليوم معاناة حياتها، ولا أستطيع أن أتذكر ذلك دون أن أشعر بانفطار قلبي.

وحتى في ذلك الحين، في تلك الفترة القاتمة من طفولتي الغريبة، في الفترة التي كانت حياتي الأولي تنمو بشكل غير طبيعي، كثيرا ما كان ينقبض قلبي ألما وشفقة ويغزو روحي القلق والاضطراب والشك.

ومنذ هذه اللحظة، كان الضمير ينتفض في داخلي، وأشعر غالبا بطريقة مؤلمة ومعذبة بأنني لم أكن منصفة تجاه أمي. ولكننا كنا كما لو أن إحدانا تتحدى الأخرى، ولا أذكر أنني داعبتها مرة.

واليوم، كثيرا ما تحز في نفسي أتفه الذكريات وتهز روحي. أذكر (طبعا، ما سأحكي الآن شيء تافه، لا قيمة له، وكريه، ولكن ذكريات من هذا النوع بالذات هي التي تمزق قلبي بشكل خاص وقد تركت أثرا أشد إيلاما في ذاكرتي)، ذات مرة، مساء، عندما لم يكن أبي في البيت، كانت أمي تريد أن ترسلني إلى الدكان لأشتري لها الشاي والسكر. ولكنها ظلت تفكر ولم تستطع أن تقرر، وبصوت مرتفع، كانت تعد النقود النحاسية، المبلغ التافه الذي كان في وسعها أن تمتلكه. ظلت تعدها، فيما أظن، لمدة نصف ساعة، ولم تستطع أن تتوقف. فضلا عن أنها، كانت في بعض اللحظات، ربما لسوء حظها، تسقط في نوع من الهذيان. وكما الآن، أذكر أنها كانت تكرر دائما كلاما ما وهي تعد النقود، بصوت خافت، معتدل، كما لو كانت الكلمات تفلت منها بدون قصد، وكانت شاحبة الشفتين والوجنتين، ومرتعشة اليدين دائما، وكانت دائما تهز رأسها عندما تفكر وحدها.

قالت لي وهي تنظر إلي:

- كلا، لا داعي، سأمضي بالأحرى لأنام، هاه؟ وأنت، هل تشعرين برغبة في النوم، يا نيتوتشكا؟

بقيت أنا صامتة، وهنا، رفعت رأسها ونظرت إلي بهدوء، وبكثير من الرقة والحنان، وأشرق وجهها وأضاء بابتسامة أمومية، مما جعل كل قلبي ينقبض وينبض بعنف.

وفضلا عن ذلك، نادتني باسم نيتوتشكا، مما كان يعني أنها في هذه اللحظة، كانت تحبني بشكل خاص. وهذه التسمية هي التي ابتدعتها، إذ نقلت بحب اسمي، أنّا، إلى صيغة التصغير، نيتوتشكا، وما دامت نادتني هكذا، فذلك يعني أنها كانت تريد أن تلاطفني. كنت متأثرة، وشعرت برغبة في أن أحضنها، وأن أضمها، بقوة، وأن نبكي معا.

مسكينة أمي، داعبت رأسي، طويلا، ربما، عفويا، وقد نسيت أنها تحدثني، وظلت تردد دون انقطاع: "بنيتي، أنّيتا، صغيرتي، نيتوتشكا!" كانت الدموع على وشك أن تنبجس من عيني، ولكنني بذلت كل ما في وسعي لكي أكبحها وقد تمكنت من ذلك.

كنت كالعنيدة لا أريد أن أظهر لها ما أشعر به، حتى وإن كنت أعاني أنا نفسي. لا، هذه القسوة التي بداخلي، لا يمكن أن تكون طبيعية.

لم تستطع أمي أن تثيرني ضدها فقط بصرامتها معي. كلا، كنت فاسدة بالحب الخيالي والاستثنائي الذي كنت أكنه لأبي. كنت في بعض الأحيان أصحو ليلا، في زاويتي، فوق حصيري القصير، تحت غطائي البارد، ولا أدري لماذا كنت دائما أشعر أنني خائفة من شيء ما.

في نصف نوم، تذكرت أنني، حتى وقت قريب، عندما كنت صغيرة جدا، كنت أنام مع أمي، وكنت أقل خوفا من الاستيقاظ ليلا: كان يكفي أن أضمها، أن أغمض عيني، وأن أعانقها بقوة، لأنام فورا مرة أخرى.

لم أزل أشعر أنني لا أستطيع، بطريقة أو بأخرى، ألا أحبها بصمت. لقد لاحظت فيما بعد أن عديدا من الأطفال يمكن أن يكونوا عديمي الشعور بصورة فظيعة، ومتى أحبوا أحدا أحبوه بصورة خارقة للعادة. وأنا، كنت كذلك.

في بعض الأحيان، كان يسود الصمت المطبق في ركننا طوال أسابيع كاملة. توقف خصام أبي وأمي، وكنت أنا أعيش بينهما كما من قبل، صامتة دائما، مفكرة دائما، قلقة دائما، وباحثة دائما عما لا أعرف في أحلامي.

عندما كنت أراقبهما معا، فهمت علاقتهما تماما: كرههما الصامت، الأبدي، فهمت كل بؤس وجنون هذه الحياة الفاسدة، التي ترسخت في ركننا، طبعا، فهمت ذلك دون أسباب ولا نتائج، بل فهمته على قدر ما استطعت.

أحيانا، خلال أمسيات الشتاء الطويلة، كنت، كامنة في مكان ما في زاوية، أراقبهما بفارغ الصبر، طوال ساعات كاملة، كنت أمعن النظر في وجه أبي وأحاول دائما أن أخمن ما كان يفكر فيه، وما كان يشغل باله.

بعد ذلك، كانت أمي هي التي تدهشني وتفزعني. كانت لا تكف عن المشي، دون أن تكل، تذرع الغرفة جيئة وذهابا، خلال

ساعات بكاملها. وأحيانا، حتى ليلا، أثناء أوقات الأرق الذي كانت تعاني منه، وهي تهمس شيئا لنفسها، كأنها في الغرفة وحدها، كانت تمد يديها تارة وتضمهما إلى صدرها تارة أخرى، وتعقفهما في نوع من الألم المرعب، الذي لا ينتهي. في بعض الأحيان كانت تجري دموع فوق وجهها، دموع ربما لم تكن هي نفسها تفهمها غالبا، لأنها كانت تغرق في غياهب النسيان. كان عندها نوع من المرض الصعب، الذي لم تكن تهتم به على الإطلاق.

أذكر أن وحدتي أصبحت ثقيلة علي بشكل متزايد دائما، مثل صمتي الذي لم أجرؤ على تحطيمه.

كنت أعيش حياة واعية لمدة عام كامل بالفعل، مفكرة دائما، وحالمة، ومتألمة في صمت بكل أنواع الرغبات المجهولة، الغامضة، التي كنت أحس بها تولد في أعماقي.

أصبحت وحشية، كما في غابة. ذات يوم، في آخر الأمر، كان أبي هو أول من لاحظني، دعاني إليه وسألني لماذا أحدق فيه. لا أتذكر ماذا قلت له، أذكر أنه بدا كأنه مستغرق في التفكير وقال لي أخيرا بعد أن نظر إلي، إنه منذ الغد سوف يحمل لي كتاب الألفباء، ويبدأ في تعليمي القراءة.

انتظرت بفارغ الصبر هذا الألفباء وحلمت به الليل كله، دون أن أفهم ما معنى الألفباء. وأخيرا، أخذ أبي في اليوم التالي يعلمني القراءة.

فهمت بكلمتين ما كان يطلب مني، وتعلمت بسرعة، وبسهولة، لأنني عرفت أنها وسيلة لإرضائه. كانت تلك أسعد لحظة في حياتي حتى ذلك الحين.

عندما كان يمدح قدرتي على الفهم، بحيث كان يداعب رأسي ويقبلني، كنت أشرع حالا في البكاء من الحماس.

وشيئا فشيئا أخذ أبي يحبني، وتجرأت أنا على أن أبدأ الحديث معه، وكثيرا ما كنا نتكلم ساعات كاملة، دونما كلل، حتى وإن كنت أحيانا لا أفهم كلمة مما كان يقول لي. ولكن كنت كأنني خائفة منه، كأنني كنت أخشى أن يظن أنني أمل معه، ولذلك كنت أبذل كل ما في وسعي لأظهر له أنني أفهم كل شيء.

وفي آخر الأمر أصبح الجلوس معي طوال أمسيات كاملة عادة لديه.

حالما يهبط الليل، ويدخل أبي إلى البيت، كنت أهرع إليه فورا مع كتاب الألفباء.

كان يجلسني على كرسي أمامه، وبعد الدرس، كان يقرأ لي من هذا الكتاب أو ذاك. لم أكن أفهم شيئا، ولكنني كنت أضحك عاليا بلا انقطاع، معتقدة أنني بذلك أمنحه متعة كبيرة.

في الحقيقة، كنت أشغله وأحس به سعيدا وهو يراني ضاحكة. وفي نفس الوقت بدأ يوما بعد انتهاء الدرس يحكي لي قصة. كانت القصة الأولى التي سمعت. بقيت كالمفتونة، كنت أتحرق لهفة، وأنا أتابع القصة، وأنتقل إلى نوع من النعيم وأنا أصغي إليها، وفي الأخير، كنت في غاية الابتهاج بهذه القصة الممتعة. ليست القصة التي أثرت في كثيرا، كلا، ولكنني أعتبر كل شيء حقيقة، وأطلقت العنان لخيالي الغني، وعلى الفور مزجت الخيال بالواقع.

وتراءت لي في الحال الدار ذات الستائر الحمراء، وفورا، لا

أدري كيف، تراءى لي أبي، الذي حكى لي هذه القصة، هو أيضا، كشخصية، مع أمي، التي منعتنا معا من الذهاب إلى حيث لا أدري، وأخيرا، أو بالأحرى، قبل كل شيء، أنا، مع أحلامي الرائعة، ورأسي الغريب المليء بالأشباح الوحشية، المستحيلة، كل ذلك اختلط في ذهني، وسرعان ما شكل أبشع فوضى، ولبعض الوقت، فقدت كل إحساس واتصال بالحقيقة والواقع، وعشت يعلم الله أين.

وفي هذه اللحظة، كنت أموت لهفة، لأتحدث مع أبي عما ينتظرنا في المستقبل، وعما ينتظر هو نفسه، وعن المكان الذي سيأخذني إليه، عندما سنغادر عليّتنا أخيرا.

كنت واثقة من جانبي، أن كل ذلك سيحدث سريعا، بطريقة أو بأخرى، ولكن كيف وتحت أي شكل سيمر كل ذلك، هذا ما لم أكن أعرفه و كنت فقط أعذب نفسي، وأصدع رأسي لكي أتمثله. في بعض الأحيان، كان يحدث هذا خاصة في المساء- كان يبدو لي أن أبي، بين لحظة وأخرى، سوف يغمزني خفية، ويدعوني إلى الدهليز، وهناك، بسرعة، خفية عن أمي، سوف أحمل كتاب الألفباء، وحتى صورتنا، التي كانت لنا، من الطباعة الحجرية السيئة، والتي بقيت معلقة على الجدار، بلا إطار، منذ زمن سحيق، وكنت قد قررت أن أحملها قطعا، ومن هناك، إذن، كنا سنهرب سرا إلى مكان ما، لكي لا نعود أبدا إلى بيت أمي.

ذات يوم، عندما لم تكن أمي هنا، اخترت اللحظة التي كان فيها أبي مرحا بوجه خاص- كان يحدث له ذلك حينما يحتسي

قليلا من الخمر- جئت إليه وتكلمت معه، وفي نيتي تحويل الحديث سريعا نحو الموضوع الذي كان عزيزا لدي كثيرا.

وانتهى بي الأمر إلى أن جعلته ينفجر بالضحك، وأخذت، وأنا أضمه بكل قوتي، خافقة القلب، وذاهلة تماما، كما لو كنت على وشك الحديث عن شيء غامض ورهيب، وبأسلوب مفكك، وأنا أرتبك مع كل كلمة، أسأله: إلى أين سنذهب، هل سيكون هذا قريبا، ماذا سنأخذ معنا، كيف سنعيش، وأخيرا، هل سنذهب إلى الدار ذات الستائر الحمراء؟

- الدار؟ الستائر الحمراء؟ ماذا تقولين؟ ما هذا الهذيان؟ أيتها الصغيرة الحمقاء؟

ثم أخذت، وأنا أكثر خوفا من ذي قبل، أشرح له أننا يوم ستموت أمي، لن نعيش بعد ذلك في العِلِّية، أنه سوف يذهب بي إلى مكان ما، وأننا سنكون معا غنيين وسعيدين، وأكدت له أخيرا أنه هو الذي وعدني بذلك. حين ذكرت له هذا التأكيد، كنت على يقين، في الواقع، أن أبي حدثني بالفعل عن ذلك، أو هذا على الأقل ما كنت أشعر به في ذلك الحين.

كان يكرر وهو ينظر إلي بذهول، ويقطب حاجبيه الكثين اللذين بدأ يغزوهما الشيب ويغير سحنته قليلا:

- أمك؟ ماتت؟ عندما ستموت أمك؟ ماذا تقولين، أيتها البائسة، الحمقاء...

وهنا، أخذ يوبخني ويكرر علي طويلا أنني طفلة غبية، وأنني لا أفهم شيئا...وما لا أذكر أيضا، ولكنه كان مضطربا حقا.

لم أفهم لا كلامه ولا لومه، ولم أفهم كيف كان متألما من استماعي إلى كلماته التي قالها لأمي في لحظة غضب شديد وحزن عميق، والتي حفظتها عن ظهر قلب وفكرت فيها كثيرا. وكيفما كان في ذلك الحين، ومهما تكن حماقته قوية جدا، فإن كل ذلك، كان لابد أن يصدمه، بطبيعة الحال.

ومع ذلك، حتى وإن كنت لم أفهم لماذا كان غاضبا، فقد شعرت بالمرارة والحزن الرهيب، وأجهشت بالبكاء، كان لدي شعور بأن كل ما كان ينتظرنا مهم جدا، بحيث إنه لم يكن يحق لي، أنا الطفلة الغبية، لا الحديث عنه ولا التفكير فيه.

ومن ناحية أخرى، حتى وإن لم أفهمه منذ الكلمة الأولى، فقد شعرت، قطعا، بطريقة غامضة جدا، أنني أهنت أمي. فاستولى علي الخوف والرعب، وتسللت الشكوك إلى نفسي.

ولما رآني، عندئذ، أبكي وأتألم، أخذ يهدئ من روعي، ويمسح دموعي بكمه ويأمرني بألا أبكي. ولكننا بقينا هكذا لبعض الوقت دون أن ننبس ببنت شفة، كان مكفهرا، مقطبا، ومفكرا، كما يبدو، في شيء ما، وبعدئذ، بدأ الحديث معي، ولكن، هنا، عبثا ركزت انتباهي، فكل ما كان يقول بدا لي غير واضح على الإطلاق.

ومن بعض كلمات هذا الحديث التي لم أزل أتذكرها استنتجت أنه كان يشرح لي أي إنسان كان وأي فنان عظيم كان وأن أحدا لم يفهمه وأنه كان يتمتع بموهبة كبيرة. ولا أزال أتذكر أنه بعد أن سألني هل فهمت جيدا وتوصل طبعا لجواب إيجابي،

ألزمني بأن أكرر إن كانت له موهبة، أجبته: "نعم، له موهبة" ولكنه سخر قليلا، لأنه، ربما، هو نفسه، في الأخير، بدا له أمرا سخيفا أن يحدثني، عن موضوع مهم جدا بالنسبة إليه. وانقطع حديثنا بوصول كارل فيدوريتش وأخذت أضحك، وأصبحت في غاية الابتهاج، عندما أشار إليه بابا قائلا لي:

- كارل فيدوريتش، ليس له، من الموهبة، فلس واحد.

كان كارل فيدوريتش هذا شخصا رائعا جدا. كنت قد رأيت عددا قليلا من الناس في هذا الوقت من حياتي بحيث كان من المستحيل علي أن أنساه. إنني أراه كأنه ماثل أمامي الآن: كان ألمانيا، كان يسمى ماير، من أصل ألماني، وكان قد جاء إلى روسيا، تحدوه رغبة شديدة في الالتحاق بفرقة باليه بمدينة بطرسبورغ. ولكنه كان راقصا رديئا جدا، فلم يقبل في المسرح إلا كممثل ثانوي. كان يؤدي بعض الأدوار الصامتة، في حاشية **فورتينبراس**[1] أو كأحد فرسان **فيرونا**[2]، الذين كانوا جميعا، في جوقة من عشرين فردا، يرفعون نحو السماء سيوفا من الورق المقوى، ملوحين وهاتفين: "لنمت في سبيل الملك!" ولكن، من المؤكد أنه لم يكن هناك أي ممثل في العالم أكثر حماسا لأدواره مثل كارل فيدوريتش.

كانت أسوأ مصيبة وكارثة في حياته أنه لم يستطع الالتحاق بفرقة الباليه. كان يضع فن الباليه في مرتبة أسمى من كل فنون العالم الأخرى، وكان تعلقه به قويا جدا كتعلق أبي بكمانه. تآلفا معا، بابا

(1) فورتينبراس الأمير ابن ملك النرويج، إحدى شخصيات شيكسبير في "هاملت"
(2) فيرونا مدينة إيطالية.

وهو، عندما كانا يشتغلان في المسرح، ومنذ ذلك الحين، لم يفارقه الكومبارس المعزول عن العمل. كانا يلتقيان كثيرا جدا، يبكيان على مصيرهما، ويشتكيان من عدم الاعتراف بهما. كان الألماني أرق وألطف إنسان في العالم، ويشعر نحو زوج أمي بصداقة أشد حماسة ونزاهة، ولكن أبي، على ما يبدو، لم يكن يشعر نحوه بمودة خاصة، ولم يحتمله بين معارفه إلا لعدم وجود شخص آخر. بالإضافة لذلك، لم يستطع على الإطلاق، أن يفهم، في استثنائيته، أن فن الباليه يمكن أن يكون

أيضا فنا، فاستاء الألماني المسكين من ذلك حتى البكاء.

ولما عرف وتره الحساس، ظل ينقره دائما ويضحك على كارل فيدوروفيتش المسكين عندما كان هذا الأخير يتحمس ويفقد أعصابه، مظهرا شيئا كريها. فيما بعد علمت أشياء كثيرة عن كارل فيدوروفيتش من ب. الذي كان يسميه كسارة البندق من نورينبرغ. كان ب. يحكي أشياء كثيرة، عن صداقة هذا الأخير مع أبي: بالمناسبة، كانا كثيرا ما يلتقيان، وبعد أن يشربا كأسا أو كأسين، يشرعان في التباكي على مصيرهما، والتشاكي من عدم الاعتراف بهما.

أتذكر تلك اللقاءات، وأتذكر أيضا، أنه كان يحدث لي، حينما أنظر إلى غريبيّ الأطوار هذين، أن أتشكى أنا نفسي حتى دون أن أدري من ماذا. كان يحدث ذلك دائما عندما لا تكون أمي في البيت، كان الألماني يخاف منها خوفا رهيبا، وأحيانا، كان يبقى في الممر، منتظرا خروج أحد، وإذا علم أن أمي كانت هناك، كان ينزل السلم حالا على يديه وقدميه.

كان يحمل في كل مرة قصائد بالألمانية، كان يتوهج وهو يقرأها لنا نحن الاثنين بصوت عال، ثم أنشدها، وهو يترجمها لنا برطانة روسية، لكي يفهمها لنا. سُرّ أبي كثيرا بذلك، وأنا أيضا ضحكت حتى اغرورقت عيناي بالدموع.

ولكن، ذات مرة، عثرا على كتاب روسي، فرحا به كثيرا، إلى حد أنهما، فيما بعد، كلما التقيا كانا يعيدان قراءته معا. كان على ما أتذكر دراما شعرية لكاتب روسي مشهور. أتذكر جيدا أنني كنت أحفظ عن ظهر قلب الأسطر الأولى من هذا الكتاب، الذي وقع بين يدي مصادفة بعدئذ بسنوات وعرفته بسهولة.

في هذه الدراما، كان الكلام جاريا على محن فنان كبير، يسمى دجينارو[1] أو دجاكوبو[2]، كان في إحدى الصفحات يصيح: "لم يعترف بي!" وفي صفحة أخرى:"أنا معترف بي!" أو:" ليست لي موهبة!" ثم، بعد بضعة أسطر: "لدي موهبة! كل شيء كان ينتهي بشكل يدعو للرثاء كثيرا.

كانت هذه الدراما، طبعا، عملا مبتذلا تماما، ولكن، هذه هي المعجزة، فقد أثرت بطريقة أكثر سذاجة ومأساوية في القارئين اللذين وجدا في البطل الرئيسي كثيرا من أوجه الشبه بهما. أذكر أن كارل فيدوروفيتش كان يتأجج أحيانا فيقفز من مكانه، ويجري نحو الزاوية المقابلة من الغرفة، طالبا من بابا ومني أنا التي كان يناديني "آنستي"، بلهجة ملحة وقاطعة، ودامع العينين، هنا، وحالا، أن

---

(1) دراما شعرية للكاتب الروسي الشهير ن. ف. كوكولنيك "دجاكوبو سانّازار" _1834
(2) دجاكوبو سانازازو – 1458 – 1530- شاعر إيطالي من عصر النهضة.

نقرر مصيره مع القدر والجمهور. هنا، وعلى الفور أخذ يرقص ويصيح فينا وهو يقوم بشتى الخطوات، لنقول له من هو، أهو فنان أم لا، وهل يمكن أن نقول عنه العكس؟ يعني أنه بدون موهبة.

وسُرّ أبي فورا، وغمزني خلسة، كما لو كان يريد أن ينبهني إلى أنه سيضحك على الألماني. وكدت أن أنفجر بالضحك ولكن أبي حذرني بإشارة من يده، فتمالكت نفسي عن الضحك. وما زلت حتى الآن لا أستطيع منع نفسي من الضحك كلما تذكرت ذلك.

إنني أرى هذا المسكين كارل فيدوروفيتش كأنه ماثل أمامي الآن. كان قصير القامة، نحيلا جدا، قد ابيض شعر رأسه، واحمر أنفه المعقوف، وملوثا دائما بالتبغ، وقبيح الساقين المقوستين، ولكن، بغض النظر عن ذلك، كان يبدو فخورا بهيأته، وكان يرتدي بنطلونا لصوقا.

عندما توقف، مع قفزته الأخيرة، ثابتا في وضعه ذاك، باسطا يديه نحونا ومبتسما لنا، كما يبتسم فوق الخشبة الراقصون الذين ينهون دورهم، ظل أبي صامتا لبضع ثوان، كأنه لم يقرر بعد النطق بالحكم، وتعمد أن يترك الراقص غير المعترف به في وضعه ذاك، متمايلا من جهة إلى أخرى على ساق واحدة، ومحاولا بكل قواه الحفاظ على توازنه.

وأخيرا، ألقى علي أبي نظرة جادة، كما لو كان يدعوني إلى أن أكون شاهدة محايدة على حكمه، وفي الوقت نفسه شعرت بأن الراقص كان يرشقني بنظرات خجولة ومتوسلة.

قال أبي أخيرا، متظاهرا بأنه هو أيضا يشق عليه أن يقول هذه الحقيقة المرة:

- لا، يا كارل فيدوريتش، لن ينجح هذا!

وفي هذه اللحظة، انطلقت زفرة حقيقية من صدر كارل فيدوروفيتش، ولكنه بعد ثانية، نشط من جديد، وطلب منا بإشارة سريعة، أن ننتبه إليه مرة أخرى، وأكد لنا أنه لم يرقص وفق النظام، وتوسل إلينا أن نعيد حكمنا عليه. ثم، ركض من جديد إلى زاوية أخرى وأخذ أحيانا يقفز بكثير من الحماس حتى أن رأسه لمس السقف وتألم كثيرا ولكنه، مثل إسبرطي، تحمل الألم ببطولة، وتوقف من جديد ثابتا في وضعه ذاك، باسطا نحونا مرة أخرى يديه المرتعشتين، بابتسامة كبيرة، ومن جديد طلب منا الحكم على مصيره.

ولكن أبي بدا عنيدا ومثل المرة الأولى، أجاب بصوت قاتم:

- لا، يا كارل فيدوريتش، يبدو بوضوح أنه قدرك: لن ينجح هذا أبدا.

وهنا، لم أتمالك نفسي، واستغرقت في الضحك، وتبعني أبي. أدرك كارل فيدوريتش أخيرا أننا نسخر منه، فاحمر من الغيظ، واغرورقت عيناه بالدموع، و طفح بشعور عميق رغم أنه هزلي، جعلني فيما بعد أتألم من أجله، المسكين، وقال لأبي:

- أنت صديق خائن!

ثم، تناول قبعته وسارع خارجا من بيتنا، مقسما بكل شيء في الدنيا ألا تطأ قدماه عتبته أبدا. ولكن خصامه لم يدم طويلا، بعد بضعة أيام، ظهر عندنا من جديد، واستؤنفت قراءة الدراما المشهورة، وتدفقت الدموع غزيرة، ومرة أخرى طلب منا كارل

فيدوريتش الساذج أن نحسم أمره مع الناس والقدر، إلا أنه في هذه المرة توسل لنا أن نفعل ذلك بجدية، كما ينبغي أن يفعله أصدقاء حقيقيون، بدلا من التهكم عليه.

ذات يوم، أرسلتني أمي إلى الحانوت لأشتري لها ما لا أدري، وعدت وأنا أحافظ في يدي بكل عناية على القطعة النقدية النحاسية الصغيرة. عندما كنت صاعدة على السلم، صادفت أبي نازلا إلى الفناء. وأخذت أضحك، لأنني لا أستطيع أن أكبح شعوري حينما أراه، وبينما هو ينحني ليقبلني، اكتشف القطعة النقدية الصغيرة في يدي... نسيت أن أقول إنني كنت أحفظ جيدا تعابير وجهه، بحيث كنت على الفور أقرأ من أول نظرة كل رغباته تقريبا. حين يكون حزينا أتمزق من الألم. ولكن قلقه كان أقوى وأطول حينما لا يكون لديه أي فلس ولا يستطيع بالتالي أن يحتسي قطرة من الخمر المعتاد عليها.

ومع ذلك، حالما التقيت به على السلم ، بدا لي أنه يعاني من شيء خاص. كانت عيناه شاخصتين في الفراغ، في البداية، لم ينتبه لوجودي، ولكنه ما إن لاحظ القطعة النقدية في يدي، حتى احمر ثم شحب وجهه، فجأة، وهم بمد يده ليأخذ مني النقود، ولكنه سحبها على الفور. من الواضح أنه كان يتنازع مع نفسه. وأخيرا، كان كأنه تحكم في نفسه، وأمرني بالصعود، ونزل بضع خطوات، ولكنه توقف فجأة، ودعاني على عجل.

كان مشوشا للغاية.

قال لي:

- اسمعي، يا نيتوتشكا، هاتي لي هذه النقود، وسوف أعيدها إليك، هاه؟ ستعطيها لبابا أليس كذلك؟ أنت لطيفة، هاه، يا نيتوتشكا؟

كنت كأنني توقعت ذلك. ولكن، منذ اللحظة الأولى، تبادر إلى ذهني غضب أمي، والخجل، وأكثر من كل شيء الخجل الغريزي من نفسي ومن أبي، فمنعني كل ذلك من أن أعطيه القطعة النقدية. فأدرك هو ذلك في لمح البصر وقال لي بسرعة:

- طيب، لا داعي، لا داعي!

- لا، لا، يا أبي، خذ، سأقول إنني أضعتها، إن أولاد الجيران سرقوها مني.

قال لي، باسما، بشفتيه المرتعشتين، ولم يحاول إخفاء سعادته، حين أحس بالقطعة النقدية في راحته:

- حسنا، جيد، جيد، كنت أعرف أنك بنية ذكية، أنت بنت طيبة، أنت ملاكي الصغير! هيا دعيني أقبل يدك الصغيرة!

هنا، أمسك يدي وأراد أن يقبلها ولكنني سحبتها بسرعة. استولى علي نوع من الشفقة، وبدأ الخجل يعذبني أكثر فأكثر. ركضت إلى أعلى في حالة ذعر، بعد أن تركت أبي، ودون أن أقول له إلى اللقاء. وحين دخلت إلى الغرفة، كانت وجنتاي ملتهبتين، وكان قلبي خافقا بنوع من القلق والشعور الذي لم أعرفه حتى الآن.

غير أني قلت بشجاعة إنني أسقطت النقود في الثلج ولم أستطع العثور عليها. كنت أتوقع على الأقل ضربات، ولكن هذا لم يحدث. في البداية، كانت أمي بالفعل مغتاظة كثيرا، لأننا كنا فقراء

بشكل رهيب. بدأت تصرخ، ثم بدت كما لو ثابت إلى رشدها وكفت عن لومي، لما لاحظت أنني ببساطة كنت بنتا خرقاء ومهملة وأنني على ما يظهر لا أحبها كثيرا إذا كنت أحافظ على ممتلكاتها بشكل سيء للغاية.

هذه الملاحظة أحزنتني أكثر من الضربات التي كان يمكن أن أحتملها. ولكن أمي كانت تعرفني حقا. لقد لاحظت فعلا حساسيتي، التي كانت تصل غالبا إلى حد النرفزة المرضية، وبلومها المر على عدم حبها، فكرت في أن توسعني ضربا مبرحا وتجبرني على أن أكون أكثر انتباها في المستقبل.

عند الغسق، أثناء عودة أبي إلى البيت، كان من عادتي أن أنتظره في البهو. هذه المرة، كنت شديدة الاضطراب.

كانت مشاعري مضطربة بشيء كان يمزق ضميري بألم. وعاد أبي أخيرا، وكنت سعيدة جدا بعودته، كما لو كنت أظن أن ذلك يمكن أن يواسيني.

كان مبتهجا فعلا ولكنه حينما رآني، اتخذ هيأة غريبة ومضطربة، ولما سحبني جانبا، وألقى نظرة مرتبكة نحو بابنا، أخرج من جيبه كعكا قد اشتراه وأمرني هامسا أن لا آخذ نقودا من أمي أو أن أخفيها عنها، وأن ذلك شيء سيء، وأنه عار، وأنه ليس أمرا جيدا على الإطلاق، وفي هذه المرة، تم ذلك، لاحتياج بابا فعلا إلى النقود، ولكنه سوف يعيدها، وأستطيع أن أقول فيما بعد إنني وجدتها، ولكن من العار أن آخذ مال أمي، ويجب علي الآن، أن لا أفكر في ذلك قط، وأنه، إذا كنت، الآن، مطيعة

دائما، سوف يشتري لي كعكا آخر، ثم أضاف أخيرا، أن علي أن أرثي لحال أمي، لأن ماما كانت مريضة جدا، وفقيرة كثيرا، وكادحة وحدها من أجلنا جميعا.

كنت أصغي إليه، مرتعبة، ومرتعشة، بكل جسمي، والدموع تطفر من عيني. كنت متأثرة جدا بحيث لم أستطع أن أنبس ببنت شفة، وبقيت جامدة في مكاني.

وأخيرا دخل إلى الغرفة، وأمرني بأن لا أبكي وأن لا أقول لأمي شيئا عن ذلك. ولاحظت أنه هو أيضا كان شديد الاضطراب. وبقيت طوال تلك الأمسية في حالة رعب، وللمرة الأولى لم أجرؤ لا على النظر إلى أبي ولا على الاقتراب منه. ومن الواضح أنه هو أيضا كان يتحاشى نظراتي.

كانت أمي تذرع الغرفة جيئة وذهابا وتكلم نفسها كأنها غير طبيعية، كما هي عادتها. في ذلك اليوم، كانت في أسوأ حال، وعصبية المزاج.

وأخيرا، من شدة الألم الداخلي، أصبت بالحمى. وعندما جن الليل، لم أستطع النوم. وقضت مضجعي الكوابيس. وفي النهاية، لم أطق صبرا، وبدأت أبكي بمرارة. فأيقظ انتحابي أمي، ونادتني وسألتني عما جرى لي. لم أجبها بشيء وأخذت أبكي بدموع حرى. وعندئذ أشعلت الشمعة واقتربت مني وأخذت تهدئ من روعي، معتقدة أنني رأيت حلما أفزعني. قالت: "آه، يا لك من بنية حمقاء! إنك تبكين دائما عندما ترين حلما مفزعا. ولكن، هيا، كفى إذن!" وهنا، قبلتني، طالبة منى أن أمضي لأنام معها.

ولكنني لم أشأ، ولم أجرؤ لا على معانقتها ولا على الذهاب إلى فراشها. كنت أتمزق بآلام لا تتصور. أردت أن أحكي لها كل شيء. وبدأت بالفعل، ولكنني عندما فكرت من جديد في أبي ونهيه لي، توقفت على الفور. "بنيتي المسكينة، نيتوتشكا، ستمرضين مثلي دون شك!"-قالت لي أمي ذلك وهي تضعني على السرير وتدثرني بمعطفها القديم، لأنها لاحظت أنني كنت مرتعشة الجسم بنوبة من الحمى. وهنا، ألقت علي نظرة حزينة لم أقدر على احتمال نظرتها، فأغمضت عيني وأعرضت عنها. لم أعد أتذكر كيف نمت، ولكنني كنت، في نصف نوم، أسمع أمي تطمئنني لمدة طويلة حتى أنام. لم أتحمل يوما عذابا أفظع من هذا أبدا. انقبض قلبي من الألم.

وفي صباح اليوم التالي، تحسنت حالي. أخذت أتكلم مع أبي، وأنا أذكره بما حدث أمس، لأني خمنت سلفا أن ذلك سوف يجعله سعيدا جدا. فابتهج حالا، لأنه هو أيضا كان يقطب عندما كان ينظر إلي. وفي هذه المرة، استولى عليه نوع من الفرح، نوع من الرضا الطفولي تقريبا، عندما رآني مرحة.

وسرعان ما خرجت أمي، فلم يتمالك نفسه. وأخذ يقبلني بعنف حتى أنني كنت في نوع من الانشراح الهستيري، أضحك وأبكي معه. وأخيرا، قال لي إنه كان يريد أن يريني شيئا جيدا جدا، وإنني سأكون في غاية السرور برؤيته، لأنني طفلة عاقلة ولطيفة.

وهنا، فك أزرار صدريته وأخرج مفتاحا كان يحمله حول رقبته، معلقا بحبل أسود اللون. اختلس النظر إلي، كأنه كان يريد أن يقرأ في عيني تلك الغبطة التي لابد أن أشعر بها، حسب ظنه،

وفتح بعناية صندوقا أسود اللون، غريب الشكل، لم أره عنده من قبل.

أخذ هذا الصندوق بنوع من الوجل، وتغيرت أساريره تماما: اختفت الضحكة من وجهه الذي اتخذ فجأة مظهرا مهيبا. وأخيرا، فتح الصندوق العجيب بالمفتاح الصغير وأخرج منه شيئا، كنتِ لا أزال لم أره حتى ذلك الحين. شيئا، يبدو لأول وهلة، غريب الشكل جدا.

أخذه بين يديه بعناية واحترام وقال إنه كمانه، آلته. وهنا، بدأ يحدثني كثيرا، بصوت خافت، واحتفالي، ولكنني لم أفهمه ولم يبق عالقا بذاكرتي غير تعبير كنت أعرفه بالفعل، هو أنه كان فنانا، ولديه موهبة، وأنه بعد ذلك سيعزف يوما على الكمان، وأننا في النهاية، سوف نصير جميعا أغنياء جدا، ونصل إلى نوع من السعادة العظيمة.

وتلألأت فوق عينيه دمعات وانحدرت على خديه. كنت مضطربة. وأخيرا قبل الكمان وقدمه لي لأقبله. ولما رآني أريد أن أنظر إليه عن قرب، مضى بي نحو سرير أمي وأعطاني الكمان لأمسكه بين يدي، ولكنني لاحظت أنه كان مرتجفا خوفا من أن أكسره. أخذت الكمان بين يدي ولمست الأوتار، التي رنت بصوت خفيض.

قلت وأنا أنظر إلى بابا:

- هذه موسيقى!

ردد وهو يفرك يديه فرحا:

- نعم، نعم، موسيقى! أنت بنية ذكية، صبية لطيفة!

ومع ذلك، رغم ثنائه وفرحه، رأيت أنه كان خائفا على كمانه، وأنا أيضا ارتعت وأسرعت برده إليه. وبنفس الاحتياطات، أعيد الكمان إلى علبته وأغلقت العلبة بالمفتاح ووضعت العلبة في الصندوق، أما بابا، بعد أن داعب شعر رأسي أيضا وأيضا وعدني بأن يطلعني على الكمان، كلما كنت، كما في هذا المساء، لطيفة، وطيبة، ومطيعة.

وهكذا بدد الكمان حزننا المشترك. وفي المساء، عندما ذهبنا، همس بابا في أذني لكي يذكرني بما قال لي يوم أمس.

هكذا كبرت في ركن بيتنا، وشيئا فشيئا، فإن حبي، لا، على الأصح، شغفي، لأنني لم أجد كلمة قوية جدا للتعبير بدقة عن هذا الشعور المتعذر كبحه والمتعب، الذي كنت أكنه لأبي، قد وصل حتى إلى نوع من سرعة الانفعال العصبي السقيم.

لم تكن لي إلا رغبة واحدة - أن أفكر فيه وأحلم به، وإرادة واحدة- أن أفعل كل شيء، أي شيء، يمكن أن يرضيه.

كنت مرارا وتكرارا أنتظر عودته، على السلم، مرتعشة غالبا ومزرقة من البرد تماما، ليس إلا لأعلم عودته ولو لحظة من قبل ولكي أراه بأسرع وقت ممكن.

كنت أجن من الفرح، حين كان يداعبني قليلا. وفي غضون ذلك كنت، بكثير من التعنت والعناد، باردة تجاه المسكينة أمي، وفي بعض اللحظات كنت، حين أراها، أتمزق قلقا وشفقة عليها. لم أستطع أن أظل لا مبالية بكرههما المستمر، وكان علي أن أختار

بينهما، وكان علي أن أتخذ موقفا، فانحزت إذن إلى جانب هذا الإنسان نصف المجنون، فقط لأنني أشفقت عليه، لأنني رأيته مهانا، ولأنه، منذ البداية، استحوذ على خيالي بطريقة لا تفهم. ولكن، من يحكم علي يا ترى! ربما كنت متعلقة به لأنه كان غريبا جدا، حتى منذ النظرة الأولى، وليس صارما، وقاتما، مثل أمي، ولأنه كان تقريبا مجنونا، وكان يظهر فيه أحيانا نوع من التهريج، وتبدو عليه شتى العادات الصبيانية، وأنني أخيرا كنت أقل خوفا منه وحتى أقل احتراما له من أمي.

كان لي أكثر من ندّ. وشيئا فشيئا بدأت حتى أشعر أنني أهيمن عليه، وأنني أخذت، شيئا فشيئا، أخضعه لي، وأنني أصبحت ضرورية بالنسبة إليه.

كنت في أعماق نفسي فخورة بذلك، ومبتهجة بالنصر، ولما كنت أعرف أنني ضرورية له، وصلت أحيانا إلى التدلل عليه. في الحقيقة، كان تعلقي الرائع أشبه ما يكون برواية... ولكن هذه الرواية لم يكتب لها أن تستمر طويلا: إذ سرعان ما فقدت أبي وأمي. فقد انتهت حياتهما بكارثة رهيبة، محفورة في ذاكرتي بصورة فادحة وفاجعة. وهنا كيف حدث ذلك.

الفصل الثالث

في ذلك الوقت، كانت بطرسبورغ مضطربة كلها بخبر استثنائي. إذ كانت قد دوت شائعة عن وصول س-تس الفنان عازف الكمان الشهير.

كل من يمت بصلة لعالم الموسيقى في بطرسبورغ بدأ يتحرك فجأة. المطربون، الفنانون، الشعراء، الرسامون، عشاق الموسيقى، وحتى أولئك الذين لم يكونوا أبدا عشاقا للموسيقى ويؤكدون بفخر خجول أنهم لا يفهمون شيئا في الموسيقى، هرعوا جميعا بحماس جشع إلى اقتناء التذاكر.

لم تكن الصالة تستطيع أن تستوعب حتى العُشر من الهواة الذين كان بإمكانهم أن يدفعوا خمسة وعشرين روبلا ثمنا لتذكرة الدخول، ولكن اسم س-تس الذائع الصيت في كل أوروبا، وشيخوخته المكللة بالغار، وموهبته المتألقة دائما، وشائعة أنه في الآونة الأخيرة نادرا ما عزف على الكمان من أجل الجمهور، وتأكيد أن هنا ستكون بالفعل جولته الأخيرة عبر أرجاء أوروبا، وفيما بعد، سيتوقف عن العزف نهائيا، كان لكل ذلك مفعوله القوي. باختصار، كان التأثير شاملا وعميقا.

قلت سابقا إن وصول أي عازف جديد على الكمان، وكل

مشهور جديد وإن كان مكللا بمجد قليل، كان له أسوأ تأثير في زوج أمي. كان دوما، من بين الأوائل، يركض إلى سماع الفنان، الذي يكون في جولة موسيقية، كي يعرف بأسرع وقت مستواه الفني. وكثيرا ما كان حتى يمرض عندما يسمع المدائح المدوية حول هذا الوافد الجديد، ولا يهدأ له بال إلا حين يكتشف بعض الأخطاء في أداء عازف الكمان وينشر رأيه بسخرية مرة في كل مكان، كان يستطيع إليه سبيلا.

كان المجنون المسكين يظن أن في العالم موهبة واحدة، وفنانا واحدا، وليس هذا الفنان طبعا إلا هو نفسه، غير أن الخبر المشاع عن وصول س-تس، عبقري الموسيقي، وقع عليه كالصاعقة.

يجب أن نلاحظ أن بطرسبورغ، منذ السنوات العشر الأخيرة، لم يأت إليها أي فنان مشهور، حتى وإن كان دون مستوى س-تس، وبالتالي لم تكن لدى زوج أمي أية فكرة عن مستوى عزف الفنانين الأوروبيين من المقام الأول.

حكي لي أنه منذ أشيع أول خبر عن وصول س-تس، رؤي فورا زوج أمي من جديد في كواليس المسرح. قيل لي إنه ظهر مضطربا إلى أقصى حد ومستفسرا بقلق عن س-تس وعن حفله الموسيقي القادم.

لم يظهر منذ فترة طويلة في الكواليس، بحيث إن ظهوره من جديد أحدث حتى ضجة كبيرة.

أراد أن يمازحه أحد فقال له بنظرة التحدي: "في هذه المرة، يا سيدي العزيز، ييغور بيتروفيتش، لن تسمع موسيقى الباليه، ولكنها

موسيقى ستمنعك، بالتأكيد، حتى من العيش في الدنيا!" يقال إن لونه امتقع عندما سمع هذا الاستهزاء، ولكنه قال مبتسما بشكل هستيري:"سنرى، إن الدفوف جميلة من بعيد. ربما لم يكن س-تس إلا في باريس، لذلك فالفرنسيون هم الذين هتفوا له، وإننا نعرف من هم الفرنسيون!" وهلم جرا.

وانفجر الحضور بالضحك، واستاء المسكين، ولكنه تمالك نفسه، وأضاف أنه لا يقول شيئا، ولكن علينا أن نرى، وننظر ما سيكون هناك، وأن اليوم التالي ليس بعيدا، وأن جميع المعجزات سيتم الكشف عنها قريبا.

يحكي ب.. أنه في مساء اليوم نفسه، قبل الغسق، التقى بالأمير خ.، الذي كان هاويا للفن معروفا جدا، ويفهم جيدا في الفنون ويحبها بعمق.

سارا معا، وهما يتحدثان عن الفنان الوافد الجديد، وفجأة رأى ب. أبي في منعطف الشارع، واقفا أمام واجهة متجر، وهو يمعن النظر في ملصق كان يعلن بحروف كبيرة حفل س-تس، وكان الملصق معروضا على واجهة المحل التجاري.

قال ب. مشيرا إلى أبي:

- أترى هذا الرجل؟

سأل الأمير:

- من هذا؟

- سبق لك أن سمعت عنه. إنه ييفيموف الشهير الذي حدثتك عنه أكثر من مرة بل إنك رعيته سابقا.

قال الأمير:

- آه، إنه عجيب غريب الأطوار! حدثتني عنه كثيرا. يقال إنه ممتع جدا. أود أن أسمعه.

- لا يستحق ذلك، قال ب. وهذا مؤلم. أنا لا أعلم، كيف تراه، ولكنه بالنسبة لي دائما جرح في القلب. إن حياته مأساة رهيبة وبشعة. إنني أفهمه بعمق، ومهما يكن قذرا، فإن العطف الذي أشعر به نحوه لم يخمد بعد. تقول، أيها الأمير، إنه عجيب غريب. هذا صحيح، ولكنه يعطي انطباعا مؤلما للغاية. إنه أولا مجنون، ثم إن هناك، وراء هذا الجنون، جريمتين، لأنه دمر، فضلا عن حياته الخاصة، حياتين أخريين: حياة زوجته وابنته. أنا أعرفه: كان يمكن أن يموت فورا لو كان قادرا على الاقتناع بجريمته.

ولكن الرعب كله يكمن هنا في أنه، منذ ثماني سنوات، شبه متأكد منها، ومنذ ثماني سنوات وهو يقاوم صوت ضميره، لكي لا يعترف بها ليس تقريبا، ولكن نهائيا.

قال الأمير:

- قلت إنه فقير؟

- نعم، ولكن البؤس يكاد يكون سعادة بالنسبة إليه، لأنه يخدمه كذريعة. الآن، يستطيع أن يؤكد للعالم كله أن الفقر وحده فقط هو الذي يعوقه عن الوصول، وأنه لو كان غنيا، فسيكون لديه الوقت، ولا هم له، وعندئذ سنرى أي فنان يمكن أن يكون.

لقد تزوج على أمل غريب هو أن يساعده ألف روبل، كان لدى زوجته، في الوقوف على رجليه. كان يتصرف مثل حالم،

كشاعر، وقضى حياته كلها على هذا النحو. أتدري ما ذا كان يقول بلا انقطاع طوال ثماني سنوات كاملة؟ كان يؤكد أن الذنب في كل إخفاقاته يعود إلى زوجته، التي تعوقه عن كل شيء.

وقف مكتوف اليدين ورفض أن يعمل. ولكن، لو انتزعت منه هذه المرأة، لكان أتعس كائن على وجه الأرض.

لم يلمس كمانه منذ عدة سنوات، أتدري لماذا؟ لأنه كلما أخذ كمانه، إلا واضطر، داخل نفسه، إلى التأكد من أنه لا شيء، صفر، وليس فنانا. ولكن، بينما الكمان ملقى جانبا، لم يبق له إلا أمل بعيد المنال بأن ذلك غير صحيح.

إنه حالم: يظن أنه، فجأة، بنوع من المعجزة، مرة واحدة، سيصبح أشهر إنسان في العالم. إن شعاره هو كالتالي: **aut caesar, aut nihil**"[1] كما لو كان يستطيع أن يصبح قيصر هكذا، فجأة، دفعة واحدة.

كان متعطشا إلى المجد. وإذا أصبح هذا النوع من الشعور هو المحرك الرئيسي أو حتى الوحيد لدى فنان، فإن هذا الفنان يكف عن أن يكون فنانا، ويفقد الأساسي من غريزته الفنية، يعني حب الفن لسبب وحيد هو الفن وليس أي شيء آخر، غير المجد.

وعلى العكس من ذلك س-تس: عندما يمسك بالكمان، بالنسبة إليه، لا وجود لأي شيء آخر في العالم خارج الموسيقى.

---

(1) باللاتينية: "aut caesar, aut nihi" إما قيصر، أو لا شيء، بالروسية: или "цезарь,или ничто"ـ "إيلي تسيزار، إيلي نيتشتو"

بعد الكمان، ما يهمه، هو المال، وبعد ذلك، فيما يبدو، يأتي المجد.

ولكن المجد لا يعنيه إلا قليلا جدا... أتدري ما يشغل في هذه اللحظة بال هذا البائس؟ - قال ب. سائلا ومجيبا وهو يشير إلى بيفيموف- إن ما يشغله، هو أغبى الهموم، وأتفهها، وأسخفها، وأحقرها وأكثرها إثارة للسخرية والضحك، يعني أن يعرف هل هو أعظم من س-تس، أو هل س-تس أعظم منه، ليس إلا، لأنه في العمق مقتنع رغم ذلك، بأنه أول موسيقي في العالم كله. أكد له أنه ليس فنانا، و، قطعا، سيسقط ميتا في الحال، كالمصعوق، لأن من المرعب بالفعل أن ينفصل عن فكرة راسخة، كرس لها حياته كلها، وهي مع ذلك ذات أساس عميق وخطير، لأن موهبته. في البداية، كانت صادقة حقا.

لاحظ الأمير:

- من الغريب أن نعرف ماذا سيحدث له عندما سيسمع س-تس.

قال ب. متأملا:

- نعم، ولكن لا: سيصحو حالا، إن جنونه أقوى من الحقيقة، وهنا، أيضا، سيخترع أية ذريعة.

لاحظ الأمير:

- تظن ذلك؟

في هذه اللحظة أصبحا محاذيين لأبي، الذي كان يريد أن يمر

مرور الكرام، ولكن ب. استوقفه وتوجه إليه بالكلام. سأله ب. هل سيأتي لسماع س-تس، أجاب أبي بلامبالاة بأنه لا يدري، وأنه مشغول بشيء أهم من جميع الحفلات الموسيقية، وكل الموهوبين الزائرين العابرين، ولكنه مع ذلك، سوف يرى، وأنه إذا وجد ساعة حرة، لم لا؟ قد يذهب. وهنا، ألقى نظرة سريعة وقلقة على ب. تارة وعلى الأمير تارة أخرى، وهو يبتسم بارتياب ثم لمس قبعته، وهز رأسه، واجتازهما، مستذرعا بأنه في عجلة من أمره.

ولكنني كنت أعرف مسبقا مشاغل أبي. لم أكن أعرف ما كان يقلقه بالضبط، ولكنني كنت أرى أنه كان شديد الانزعاج، وحتى أمي لاحظت ذلك.

كانت في هذه الأثناء تبدو كأنها حقا مريضة جدا وتكاد لا تقف على قدميها.

لم يكن أبي يكف عن الدخول إلى البيت تارة، وعن الخروج منه تارة أخرى.

في الصباح، زاره ثلاثة أو أربعة ضيوف، من رفاقه القدامى، الأمر الذي أدهشني كثيرا، لأنني لم أر عندنا، عدا كارل فيدوريتش، أي شخص آخر من الخارج ولأن أي أحد لم يعد يتردد على بيتنا منذ أن ترك أبي المسرح نهائيا.

وأخيرا، هرع لاهثا كارل فيدوريتش، الذي كان يحمل ملصقا. كنت أنظر وأصغي بانتباه وكل ذلك كان يقلقني كما لو كنت المذنبة الوحيدة عن هذا الاضطراب وعن ذلك الانزعاج الذي قرأته على وجه أبي.

وكنت أتحرق شوقا إلى أن أفهم عما كان يتكلم، ومن ثم سمعت للمرة الأولى اسم س-تس. وفهمت بعد ذلك أننا بحاجة إلى خمسة عشر روبلا على الأقل لرؤية س-تس هذا.

أتذكر أيضا أن أبي، لم يستطع أن يتمالك نفسه، فقال، ملوحا بيده، إنه يعرف كل هذه العجائب القادمة من وراء البحار وجميع تلك المواهب المجهولة، ويعرف س-تس أيضا، وهم جميعا يهود، ويريدون فقط مال الروسيين، لأن هؤلاء، الروسيين، يصدقون، بسذاجة، أي هراء، وأكثر من ذلك، كل ما يصيح به الفرنسي. كنت أعرف بالفعل ماذا كانت تعني هذه العبارة: ليست له موهبة! وانفجر الضيوف بالضحك وانصرفوا سريعا جميعا، تاركين أبي منحرف المزاج تماما.

كنت أدرك أنه كان غاضبا، لسبب ما، على س-تس هذا، ولكي أتودد إليه وأبدد مزاجه الأسود، اقتربت من المائدة، التقطت الملصق، وبدأت أتهجى، قارئة بصوت عال اسم س-تس. ثم، أخذت أضحك، وألقيت نظرة خاطفة على أبي، الذي ظل، مفكرا، فوق مقعده، وقلت: "إنه، حقا، فنان مثل كارل فيدوريتش، وأراهن، حتى هو، لن ينجح أبدا" ارتعش أبي، كما لو كان خائفا، وانتزع الملصق من بين يدي، صرخ وخبط الأرض بقدميه، وتناول قبعته وهم بالخروج من الغرفة، لكنه التفت فورا، ودعاني إلى البهو، وقبلني، وبنوع من القلق، نوع من الخوف، حاول أن يخفيه، بدأ يقول لي إنني كنت طفلة ذكية، لطيفة، إنني، دون شك، لا أريد أن أحزنه، وإنه يتوقع مني أن أقدم له خدمة عظيمة، ولكنه لم يذكرها لي. وإلى جانب ذلك، كان من الصعب الاستماع

إليه: كنت أرى أن كلماته ومداعباته لم تكن صادقة. وكل ذلك كان له تأثير مؤلم.

في الغداة، عند تناول وجبة الغداء - كان ذلك بالفعل عشية الحفل الموسيقي- كان أبي كأنه منهار تماما. كان قد تغير بشكل فظيع، ولا يكف عن إلقاء النظرات، على أمي تارة وعلي أنا تارة أخرى.

وفي آخر الأمر دهشت عندما ذهب ليخاطب أمي - كنت مذهولة لأنه لم يكن يكلمها تقريبا أبدا.

بعد تناول طعام الغداء أخذ يتودد إلي بنوع من الإصرار، في كل لحظة، تحت كل أنواع الذرائع، قادني إلى الدهليز، وهو ينظر حوله، كما لو كان يخاف أن يلاحظه أحد، لم يكف عن مداعبة رأسي، عن تقبيلي، وعن القول لي إنني طفلة طيبة، طفلة مطيعة، إنني، دون شك، أحب أبي، وإنني، دون شك، سأفعل ما يطلب مني.

كل ذلك أوصلني إلى ألم لا يطاق. وأخيرا، عندما دعاني إلى السلم، للمرة العاشرة، اتضح الأمر.

كان كئيبا، منهكا، يلقي نظرات قلقة نحو جميع الجهات، عندما طرح علي هذا السؤال: هل تعرفين أين وضعت ماما نقودها الخمسة والعشرين روبلا، تلك التي حملتها صباح أمس؟ جمدت رعبا حين سمعت هذا السؤال.

ولكن، في هذه اللحظة، ضج أحد على السلم، فارتاع أبي وتركني هناك وهرع خارجا. لم يدخل إلا مساء، عاد مضطربا،

كئيبا، وقلقا، جلس فوق مقعده دون أن ينبس ببنت شفة، وأخذ ينظر إلي بمسحة من الخجل. استولى علي نوع من الخوف، وحاولت أن أتحاشى نظراته. وفي آخر الأمر، دعتني أمي، التي لزمت فراشها طوال النهار، وأعطتني بعض القطع النقدية النحاسية، وأرسلتني إلى الحانوت لأقتني لها الشاي والسكر. لم نكن نشرب الشاي إلا نادرا جدا: لم تكن أمي تسمح بهذا الهوى، في حدود إمكانياتنا، إلا حين تشعر حقا بأنها مريضة ومحمومة.

أخذت النقود، وعندما خرجت إلى البهو، هرولت كما لو كنت أخشى أن يلاحقني أحد. ولكن وقع ما كنت أتوقع: أدركني بالفعل أبي في الشارع واقتادني إلى السلم.

بدأ يقول بصوت مرتعش:

- نيتوتشكا! حمامتي! اسمعي: هاتي لي هذه النقود، وغدا...

صحت، جاثية على ركبتي، متوسلة إليه:

- بابا! بابا! بابا العزيز! لا أستطيع! لا يمكن! يجب أن أشتري الشاي لأمي... لا يجوز أن آخذ من أمي، لا يجوز إطلاقا! مرة أخرى، آخذ منها...

همس لي بنوع من الذهول:

- إذن، لا تريدين؟ لا تريدين؟ حسنا، إذن، لا تريدين أن تحبيني؟ طيب! حسنا! الآن، سأتركك وحيدة. ابقي مع ماما، أنا، سأتركك، لن آخذك. هل تسمعين، أيتها الفتاة السيئة؟ أتسمعين، هذا؟

صحت في حالة ذعر كامل:

- بابا! خذ النقود، خذها!

وقلت وأنا ألوي ذراعي وأمسك بطرف معطفه:

- ماذا أستطيع أن أفعل الآن؟ ستبكي ماما، ستوبخني ماما كثيرا!

كان يبدو أنه لم يتوقع مني مثل هذه المقاومة، إلا أنه أخذ النقود، وفي آخر الأمر، لم يتحمل شكاواي وآهاتي، فتركني على السلم، وأسرع بالنزول إلى مدخل المنزل. وأنا، صعدت إلى بيتنا ولكن، خارت قواي أمام الباب، لم أجرؤ على الدخول، لم أستطع الدخول، وكل ما كان بداخل قلبي ثار واضطرب. أخفيت وجهي بيدي وهرعت إلى النافذة، كما في ذلك اليوم، حين سمعت أبي يقول لأول مرة إنه كان يتمنى أن تموت أمي.

كنت في نوع من الإغماء، والذهول، كنت أرتعش وأنا أسمع أي حفيف على الدرج، ثم سمعت أخيرا وقع خطى صاعدة بسرعة. كان هو، عرفت خطاه.

همس لي:

- أنت هنا؟

اندفعت نحوه. فصاح، واضعا بين يدي النقود:

- خذي! خذي النقود! خذيها! الآن، لست أباك، هل تسمعين؟ لم أعد أريد أن أكون أباك! أنت تحبينني، أقل من أمك! وإذن، عودي إلى أمك! أنا، لم أعد أريد أن أعرفك!

وعندما قال هذه الكلمات، دفعني وأسرع نازلا على السلم.

وركضت أنا في أثره صائحة:

- بابا ! أبي العزيز! سأكون مطيعة! أحبك أكثر من ماما! خذ النقود من جديد، خذها!

ولكن لم يعد يسمعني، كان قد اختفى. طوال الأمسية، كنت كالمسحوقة، مرتعشة في نوبة حمى. أتذكر أن أمي قالت لي شيئا، دعتني إليها، كنت كالفاقدة الوعي، لا أسمع شيئا، ولا أرى شيئا.

وأخيرا، انتهي كل شيء إلى نوبة عصبية: أخذت أبكي وأصيح، فاستولى الخوف على أمي، ولم تعرف ماذا تفعل. أخذتني إلى فراشها ولم أتذكر كيف نمت، محيطة عنقها بذراعي، مرتجفة، خائفة مما لا أدري في كل لحظة.

هكذا مرت الليلة. في الصباح، استيقظت في ساعة متأخرة جدا، بينما كانت أمي قد خرجت من البيت. كانت تنصرف دائما إلى شؤونها في تلك اللحظة.

كان أبي يستقبل شخصا لم أكن أعرفه، كانا يتكلمان معا بصوت عال. كنت أنتظر بفارغ الصبر انصراف هذا الزائر، ثم، بعدما بقينا وحدنا، اندفعت نحو أبي، وهنا، أخذت أنتحب وأطلب منه أن يسامحني على الأمس.

سألني بصوت صارم:

- ستكونين طفلة ذكية، كما من قبل؟

أجبت:

- نعم، بابا، نعم! سأقول لك، أين تخبئ أمي نقودها. بالأمس، وضعتها في صندوقة، داخل حقة.

صاح منتفضا وناهضا عن مقعده:

- بالأمس؟ أين؟ أين وضعتها بالأمس؟

أحبته:

- أغلقت عليها بالمفتاح، يا بابا! انتظر حتى المساء، عندما سترسلني أمي، لأصرفها لها، لأنني رأيتها، ليست هناك قطع نقدية صغيرة.

- أنا محتاج لخمسة عشر روبلا. يا نيتوتشكا! هل تسمعين؟ فقط، خمسة عشر روبلا! احصلي لي عليها، وغدا، سأعيدها إليك. سأذهب حالا لأشتري لك الحلوى والمكسرات... وسأشتري لك أيضا دمية، وغدا كذلك... وفي كل يوم، سأحمل لك الكعك إذا كنت طفلة ذكية!

- لا داعي، يا بابا، ليس ضروريا! لا أريد كعكا، لن آكله، سأرده لك!

هكذا صحت، وأنا أنتحب، لأن ألما فظيعا قد استولى على قلبي. شعرت في هذه اللحظة أنه لا يرثي لحالي أبدا، أنه لا يحبني، مادام لا يرى أنني أحبه ويظن أنني مستعدة لخدمته من أجل الحلوى.

وفي هذه اللحظة، كنت، أنا الطفلة، أفهمه جيدا، وأشعر

أنني سأظل جريحة دائما بهذا الشعور، وأنني لن أستطيع أن أحبه كما من قبل، وأنني فقدت بابا الذي كنت أحبه. وكان هو مبتهجا كثيرا بوعودي، ويرى أنني مستعدة لأن أحاول كل شيء في سبيله، وأن أفعل من أجله كل شيء، ويعلم الله، كم كان يعني كثيرا هذا ال "كل شيء" بالنسبة إلي في ذلك الحين.

كنت أعلم ماذا تعني هذه النقود عند أمي، وأعرف أنها ستمرض حزنا إذا ما فقدتها وأخذ تأنيب الضمير يعول في داخلي ويمعن في تعذيبي.

غير أنه لم يكن يرى شيئا، وكان يعتبرني طفلة في سن الثالثة، بينما كنت أفهم كل شيء.

كان حماسه بلا حدود، كان يقبلني، ويحاول إقناعي بألا أبكي، ويعدني، بأننا سنذهب، في ذلك اليوم نفسه، إلى حيث لا أدري، بعيدا عن أمي - ربما، ليدغدغ استيهامي الدائم- واستخرج من جيبه أخيرا إعلانا وأخذ يؤكد لي بأن هذا الرجل الذي سيراه مساء اليوم، كان عدوه، كان عدوه اللدود، ولكنه لن يدع أعداءه ينتصرون عليه. وكان هو نفسه شبيها بطفل، عندما بدأ يحدثني عن أعدائه.

ولما لاحظ أنني لم أكن أبتسم، كالعادة، حين كان يكلمني، وأنني كنت أصغي إليه صامتة، تناول قبعته وخرج من الغرفة، لأنه كان مستعجلا، ولكنه أثناء خروجه قبلني مرة أخرى وأومأ لي برأسه وهو يبتسم ابتسامة ساخرة، كأنه لم يكن واثقا بي، ويبذل كل ما في وسعه لكي لا أغير رأيي.

قلت إنه كان كالمجنون، ولكن، حتى العشية كان يمكن أن يُرى ذلك بوضوح. كان بحاجة إلى النقود ليقتني تذكرة الدخول إلى الحفل الموسيقي، الذي كان يجب، بالنسبة إليه، أن يقرر مصيره.

كان كأنه يتوقع مسبقا أن هذا الحفل الموسيقي، كان ينبغي أن يقرر كل شيء. ولكنه كان مرتبكا جدا، بحيث إنه أراد، العشية، أن ينتزع مني قطعي النقدية النحاسية الصغيرة، كأنه كان يستطيع شراء التذكرة بهذه القطع النقدية الصغيرة.

وظهرت عجائبه أيضا بشكل أقوى خلال وجبة الغداء.

كان غير قادر تماما على أن يظل جالسا في مكانه، ولم يلمس أي طبق، لم يكف عن الوقوف في كل لحظة، وعن الجلوس من جديد، كما لو كان يغير رأيه دائما، كان تارة يتناول قبعته، كأنه يهم بالخروج إلى حيث لا أدري، وكان تارة أخرى، يصبح فجأة شارد الذهن بشكل غريب، ولا يتوقف عن الهمس لنفسه ببعض الأشياء، ثم كان، فجأة، يلقي علي نظرات، وغمزات، ويقوم بإشارات، كما لو كان يتعجل الحصول على النقود بأقصى سرعة، وكأنه مستاء، لأني لم آخذها بعد من أمي. وحتى أمي لاحظت عجائبه وكانت تنظر إليه بذهول.

أما أنا، فكنت كالمحكوم عليها بالإعدام. ولما انتهت وجبة الغداء، انتحيت جانبا، وأخذت، مرتعشة، كالمحمومة، أحصي الدقائق حتى الساعة التي اعتادت أمي أن ترسلني إلى الحانوت لأشتري لها شيئا. في حياتي كلها لم أقض يوما لحظات أشد إيلاما، ستبقى محفورة في ذاكرتي إلى الأبد.

كم قاسيت في تلك اللحظات! هناك لحظات يعاني فيها المرء من الوعي أكثر بكثير مما يعاني منه في سنوات كاملة.

كنت أشعر أنني أسأت التصرف: وهو نفسه ساعد غرائزي الخيرة، عندما دفعني أول مرة بجبن إلى فعل الشر، وخوفا منه، فسر لي أنني تصرفت بطريقة سيئة جدا. ألم يستطع إذن أن يدرك كم هو صعب خداع طبيعة متعطشة لمعرفة كل أنواع العواطف، والتي سبق لها فعلا أن استشعرت واختبرت كثيرا من الشر والخير؟ كنت أعرف أن هناك، كما يبدو، ضرورة شديدة، هي التي أجبرته على أن يدفعني إلى الرذيلة، للمرة الثانية، وأن يضحي بطفولتي البائسة، غير المحمية، وأن يتجاسر على أن يزعزع مرة أخري ضميري غير المستقر.

والآن، كنت قابعة في زاوية، أفكر في هذا: لماذا كان يعد بمكافأتي على شيء قررت القيام به من تلقاء نفسي؟ إحساسات جديدة، طموحات جديدة، مجهولة حتى الآن، وأسئلة جديدة كانت تنهض محتشدة في داخلي، وكنت أتعذب بهذه الأسئلة. ثم، أخذت فجأة أفكر في أمي، فتصورت حزنها عند فقدها للنقود الأخيرة التي كسبتها بعرق جبينها. وأخيرا، وضعت أمي جانبا عملها الذي كانت تقوم به بصعوبة كبيرة، ودعتني إليها. أخذت أرتعش، وتقدمت نحوها. أخرجت النقود من خزانة الثياب، وقدمتها إلي وقالت: "هيا اذهبي، يا نيتوتشكا، ولكن بحق السماء، احرصي على أن لا تسرق منك، كما في المرة السابقة، ولا تضيعيها. ألقيت نظرة متوسلة على أبي، ولكنه هز رأسه، وابتسم لي باستحسان، وفرك يديه من قلة الصبر. دقت الساعة السادسة،

بينما كان موعد الحفل الموسيقي محددا في السابعة. لاشك أنه هو أيضا كان يعاني كثيرا من هذا الانتظار.

توقفت على السلم، بانتظاره. كان شديد الاضطراب، نافد الصبر، عندما قفز ورائي دون أدنى احتياط. أعطيته النقود، على السلم كان الظلام حالكا، فلم أستطع أن أرى وجهه، ولكنني شعرت أنه كان مرتعشا بكامل جسمه، حين تسلمه النقود. وقفت هناك، كالمصعوقة، جامدة في مكاني، وأخيرا، ثبت إلى رشدي، عندما بدأ يرسلني إلى الأعلى لآتي له بقبعته. لم يرد حتى الدخول إلى البيت.

سألته بصوت متقطع، مفكرة في أملي الأخير، بأن يدافع عني:

- بابا! هل ...لا تأتي معي؟

- لا... أنت، اذهبي وحدك... هه؟ انتظري، انتظري!

ثم، صاح مستدركا:

- اسمعي، سآتي لك حالا بحلوى، هيا اصعدي أنت أولا واحملي لي قبعتي إلى هنا.

كأن يدا باردة كانت تضغط فجأة على قلبي. أطلقت صرخة، واندفعت صاعدة. حين دخلت إلى الغرفة، كنت شاحبة، كالميتة، ولو أردت الآن أن أقول لأمي إن النقود سرقت مني، لصدقتني. ولكنني كنت عاجزة عن الكلام في هذه اللحظة.

ومن شدة يأسي المتشنج، ارتميت على سرير أمي وأخفيت وجهي بيدي. وبعد دقيقة، صر الباب بوجل، كان أبي هو الذي دخل. لقد جاء لأخذ قبعته.

وعلى حين غرة، صاحت أمي، التي أدركت توا أن شيئا غير عادي قد حدث:

- أين النقود؟ تكلمي! تكلمي إذن!

وفي هذه اللحظة، انتزعتني من السرير، ووضعتني في وسط الغرفة.

لزمت الصمت، وأنا أنظر إلى الأرض، وفهمت تماما ما يحدث لي وما يفعل بي.

صاحت من جديد، وهي تتركني وتلتفت نحو بابا، الذي وجد الوقت لأخذ قبعته:

- أين النقود؟ وكررت، آه، أعطتها لك؟ أيها الكافر! القاتل! الشرير! وإذن، هي أيضا، تريد قتلها؟ وهي طفلة! هي، هي!؟ آه كلا! لن تذهب بعيدا!

وفي لمح البصر، هرعت إلى الباب، وأغلقته من الداخل ووضعت المفتاح في جيبها.

وخاطبتني بصوت غير مسموع الانفعال تقريبا:

- تكلمي! اعترفي! اعترفي بكل شيء! تكلمي إذن، تكلمي! وإلا لا أدري ماذا سأفعل لك!

أمسكتني من يدي ولوتها وهي تسألني. كانت في حالة غير طبيعية. وفي هذه اللحظة، أقسمت أن ألزم الصمت وأن لا أقول كلمة عن أبي، ولكنني رفعت بخجل عيني إليه مرة أخيرة... نظرة منه، كلمة، شيء كان يمكن أن يجيب على ما كنت أتوقعه، وما

صليت من أجله في نفسي، - كان يمكن أن أكون سعيدة، رغم كل الآلام، وكل العذابات...ولكن، يا إلهي! بإشارة قاسية، ومهددة، أمرني بالتزام الصمت، كما لو كنت، في هذه اللحظة، أستطيع أن أكون خائفة من تهديد شخص آخر.

كنت متشنجة الحلق، مقطوعة النفس، مصطكة الساقين، وسقطت على الأرض، غائبة عن الوعي... عندما ثبت إلى رشدي، سمعت فجأة طرقا على باب بيتنا. فتحت أمي الباب ورأيت رجلا في حلة الخدم الرسمية الموحدة، داخلا إلى الغرفة، وجائلا ببصره في أرجائها ذاهلا، ومتطلعا إلينا جميعا، وسائلا عن الموسيقي يفيموف. ولما أعلن زوج أمي اسمه، سلمه رسالة وأخبره أنها مرسلة من طرف ب. الذي يوجد، في هذه اللحظة، عند الأمير. كان الظرف يحتوي على تذكرة الدخول إلى حفل س-تس.

إن ظهور الخادم المرتدي الحلة الغنية، الذي نطق باسم الأمير، واسم سيده، الذي بعثه رسولا خاصا إلى الموسيقي البائس يفينوف، كل ذلك، كان له بسرعة خاطفة تأثير قوي في نفس أمي. تحدثت عن طبعها في بداية قصتي، وقلت إن المرأة الشقية كانت دائما تحب أبي. والآن أيضا، رغم سنوات من القلق والألم، المستمرين، لم يتغير قلبها أبدا: كانت لا تزال قادرة على أن تحبه! يعلم الله، ربما رأت فجأة، في هذه اللحظة، تحولا في مصيره.

كان يمكن أن تتأثر حتى بظل من الأمل. من يدري، قد تكون، هي أيضا، أصابتها عدوى الثقة التي لا تتزعزع بالنفس عند هذا المهووس الذي هو زوجها! ومن غير الممكن ألا يكون لهذه

الثقة بالذات ولو بعض التأثير فيها، هي المرأة الضعيفة، وكانت تستطيع، في لحظة، أن تبني آلاف الخطط على نية الأمير.

وفي لحظة واحدة، كانت مستعدة لأن تلتفت من جديد إلى زوجها، وأن تغفر له كل شيء، وحتى جريمته الأخيرة،- التضحية بابنتها الوحيدة، وفي غمرة الحماس الشديد، والأمل الجديد، كانت تستطيع أن تخفض جريمته إلى مجرد جنحة بسيطة، وخور عزيمته، الناجمة عن حياته الكريهة البائسة، وحالته اليائسة.

كان لا يزال لديها هذا الهوى، وفي هذه اللحظة، كان عفوها وحنوها جاهزين من جديد لأجل زوجها الضائع.

اضطرب بابا، هو بدوره، وكان مذهولا بالتفاتة الأمير وب. توجه مباشرة نحو أمي وهمس في أذنها بشيء فخرجت من الغرفة. وعادت بعد دقيقتين، وهي تحمل فكة النقود، وأعطى أبي حالا روبلا من الفضة للرسول، الذي انصرف بعد أن حيا بأدب. وفي غضون ذلك، جاءت أمي، التي خرجت لحظة، بمكواة، وبأفضل قميص لزوجها، وأخذت تكويه. وهي نفسها التي عقدت ربطة عنقه البيضاء من قماش باتيستا، وقد احتفظت بها على كل حال منذ زمن سحيق في دولاب الثياب مع "فْراك" أسود اللون، رغم أنه كان رثا جدا، ومخيطا عند التحاقه بالمسرح.

بعد انتهاء أبي من زينته، تناول قبعته، وأثناء خروجه، طلب كأس ماء، كان شاحبا، ومنهوك القوى، تهالك على كرسي. كنت أنا التي قدمت له كأس الماء، ربما عاد شعور العداء إلى الظهور في قلب أمي، فأصاب هواها الأول بالفتور.

خرج بابا، وبقينا وحدنا. قبعت في زاوية، ومكثت هناك طويلا أنظر صامتة إلى أمي. لم أرها يوما بمثل هذا الاضطراب الشديد، كانت شفتاها مرتعشتين، وأصبحت وجنتاها الشاحبتان فجأة ملتهبتين ومن حين لآخر، كانت ترتعش بكامل أعضائها. وأخيرا، أخذ قلقها يتدفق آهات ودموعا مكبوتة وشكاوى:

كانت تقول لنفسها:

- نعم، أنا المخطئة، أنا المذنبة في كل شيء، أنا الشقية! ماذا سيحدث لها إذن؟ كيف ستغدو إذن، عندما سأموت؟

واستأنفت تمتمتها بعدما توقفت في وسط الغرفة، كالمصعوقة بهذه الفكرة وحدها:

- نيتوتشكا! بنيتي! صغيرتي المسكينة! شقيتي!

وأضافت وهي تمسكني من يدي وتقبلني بطريقة متشنجة:

- من سيعتني بك، لو لم أستطع، حتى حين أكون حية، أن أربيك، أن أحرسك، أن أرعاك؟ آه أنت لا تفهمينني! هل تفهمين؟ هل ستتذكرين ما قلت الآن؟ نيتوتشكا؟ هل ستتذكرين ذلك، من الآن فصاعدا؟

قلت لها، جامعة يدي على صدري متضرعة إليها:

- نعم، نعم، ماما، سأتذكر ذلك!

ضمتني طويلا، وبقوة، بين ذراعيها، كما لو كانت ترتعد خوفا من مجرد التفكير في أن تفترق عني. كان قلبي ينفطر.

قلت وأنا أنتحب:

- ماما عزيزتي! ماما! لماذا... لماذا لا تحبين بابا؟

ومنعتني الدموع من مواصلة الكلام.

انطلقت زفرة من صدرها. ثم، بدأت تذرع الغرفة جيئة وذهابا، طافحة بقلق جديد مريع.

- صغيرتي المسكينة! صغيرتي المسكينة! وأنا التي لم ألاحظ كم كبرت، إنها تعرف كل شيء، تعرف كل شيء! يا إلهي! أي تأثير! أية قدوة!

ومن جديد، بدأت تلوي ذراعيها بيأس.

وبعد ذلك، عادت إلي، وبحب مجنون، قبلتني، قبلت يدي، غسلتهما بدموعها، توسلت إلي أن أصفح عنها... أبدا لم أر مثل هذا الألم... وفي الأخير، كما لو كانت منهكة القوى، سقطت في ما يشبه الغيبوبة. هكذا مرت ساعة كاملة. ثم نهضت، منهكة، ومحطمة، وطلبت مني أن أذهب لأنام. مضيت إلى زاويتي، والتحفت غطائي، ولكنني كنت غير قادرة على النوم. كانت تعذبني، وبابا أيضا كان يعذبني. كنت أنتظر عودته بفارغ الصبر. حين أفكر فيه، كان يستولي علي نوع من الرعب. وبعد نصف ساعة، حملت أمي شمعة وجاءت إلي، لترى إن كنت نائمة. ولكي أهدئ من روعها، أغمضت عيني وتظاهرت بالنوم. نظرت إلي قليلا، وبهدوء ذهبت إلى الدولاب، فتحته، وصبت لها كأسا من الخمر. شربت وذهبت لتنام، تاركة الشمعة مشتعلة فوق المائدة والباب مفتوحا، كما كانت تفعل دائما عندما كان أبي يعود في ساعة متأخرة.

كنت مضطجعة كأنني غائبة عن الوعي، ولكن النوم لم يغمض عيني. كنت، كلما حركتهما، أصحو وأرتجف من رؤى مفزعة. كان قلقي يتضاعف أكثر فأكثر. كنت أود أن أصرخ، لكن الصرخة اختنقت في صدري. وأخيرا، في ساعة متأخرة من الليل، سمعت صرير بابنا الذي فتح. لا أتذكر كم مر من الوقت، ولكنني، عندما فتحت فجأة عيني تماما، رأيت أبي. كان انطباعي أنه كان شاحبا بشكل فظيع. رأيته جالسا فوق كرسي، قريبا من الباب، وكان كأنه يفكر في شيء ما. كان يرين على الغرفة السكون المطبق. كانت شمعة الوَدَك، وهي تذوب، تضيء مسكننا بحزن.

راقبت أبي طويلا، ولكنه لم يتحرك من مكانه قيد أنملة، كان جامدا، على الوضع نفسه دائما، مطأطئ الرأس، ضاغطا يديه على ركبتيه بشدة، حاولت مرارا أن أناديه، ولكنني لم أقدر على ذلك.

استمر خدري طويلا. وفي النهاية، ثاب إلى رشده، فجأة، فرفع رأسه ونهض من مقعده. ظل واقفا لحظات وسط الغرفة، كأنه كان يحاول اتخاذ قرار، وبعد ذلك، تقدم، فجأة، نحو سرير أمي، أصاخ السمع، ولما تأكد أنها كانت نائمة، توجه نحو الصندوقة التي كان يخزن فيها الكمان.

فتح الصندوقة، أخرج العلبة السوداء ووضعها على المائدة، ثم، نظر حوله مرة أخرى، كانت نظرته زائغة وسريعة- لم أر يوما لديه مثل هذه النظرة.

أراد أن يأخذ كمانه، ولكنه تركه حالا، ورجع على عقبيه، وذهب ليغلق الباب.

ثم، لما لاحظ أن الدولاب مفتوح، اقترب منه بهدوء، رأى الكأس والخمر، أترعه وشرب.

هنا، للمرة الثالثة، هم بأخذ كمانه، وتركه أيضا، وعاد نحو سرير أمي.

كنت، جامدة رعبا، أنتظر ما سوف يجري.

ظل يصيخ السمع لشيء ما مدة طويلة وبشكل غريب، ثم، فجأة، طرح الغطاء عن وجه أمي، وأخذ يجسه بيده.

كنت مرتجفة خوفا. ثم انحنى مرة أخرى، ووضع رأسه على وجهها تقريبا، ولكنه عندما نهض مرة أخيرة، بدا كأن ابتسامة لاحت على وجهه الذي امتقع لونه بشكل رهيب.

وبكل عناية وهدوء غطى النائمة من جديد، غطى رأسها، قدميها.... وارتعدت بخوف مجهول: خفت على أمي، وخفت من نومها العميق، وأخذت أنظر بقلق شديد إلى هذا الخط غير المتحرك الذي كان يرسمه جسمها تحت الغطاء.

والتمعت ببالي فكرة رهيبة كالصاعقة.

عندما انتهت استعداداته، اقترب من الدولاب مرة أخرى وشرب ما بقي من الخمر.

كان يرتعش بكامل جسمه وهو يتقدم نحو المائدة.

لم يكن من الممكن التعرف عليه، لأنه كان شديد الشحوب.

هنا، أخذ كمانه من جديد. كنت قد رأيت هذا الكمان، وعرفت ما هو، ولكنني الآن، كنت أتوقع شيئا فظيعا، مريعا، ورائعا، وأرتجف عند سماع أصواته الأولى.

كان أبي قد بدأ العزف، ولكن هذه الأصوات كانت كالمتقطعة، إذ كان يتوقف في كل لحظة، كأنه كان يحاول أن يتذكر شيئا، وأخيرا، بمظهر مؤثر ومؤلم، وضع كمانه مرة أخرى وألقى نظرة غريبة نحو السرير. هنا، كان هناك دائما شيء يقلقه. عاد إلى السرير من جديد... كنت أتابع أدنى حركة من حركاته وجامدة بشعور فظيع، واصلت مراقبته.

فجأة، بدأ يبحث عن شيء، على عجل، تحت يديه ومن جديد، أحرقتني، كالصاعقة، هذه الفكرة المخيفة. قلت لنفسي: ولكن لماذا تنام أمي إذن نوما عميقا جدا؟ ولماذا لم تستيقظ إذن عندما جس بيده وجهها؟ وأخيرا، رأيت أنه كان يجمع كل ما كان يستطيع أن يجده من ثيابنا، أخذ معطف أمي القديم، و"سيورتوكه"[1] ومبذله، وحتى فستاني، الذي نزعته عند النوم، بحيث إنه لف أمي كلها تقريبا، بهذا الركام من الثياب، التي كان يلقيها عليها، وهي مازالت مستلقية بلا حَراك، لم يتململ أي عضو فيها.

كانت تنام نوما عميقا!

كان كأنه يتنفس بحرية أكثر، حينما انتهى من عمله. في هذه المرة، لا شيء يمكن أن يزعجه، ولكن لا يزال هناك شيء يقلقه حتى الآن. نقل الشمعة من مكانها، وولى وجهه نحو الباب، لكي لا يتطلع حتى إلى السرير. وفي الأخير، أخذ كمانه، وبنوع من الحركة اليائسة، نقره بقوسه... وانطلقت الموسيقى.

---

(1) سيورتوك сюртук و فْراك фрак بالروسية أو ردنغوت redingote بالفرنسية بذلة سهرة طويلة ضيقة من الخصر سوداء اللون.

ولكنها ليست الموسيقى... أتذكر كل شيء بوضوح، حتى آخر لحظة، أتذكر كل ما أثار انتباهي في ذلك الحين. كلا، لم تكن هذه موسيقى، كتلك التي أتيح لي أن أسمعها فيما بعد.

لم تكن أصوات كمان، ولكن بدا كأن صوتا رهيبا بدأ للمرة الأولى يدوي في مسكننا القاتم. ربما كانت انطباعاتي خاطئة، وضعيفة، ربما كانت مشاعري مصدومة بكل ما شاهدت، ربما كانت مهيأة لتأثيرات رهيبة، ومؤلمة بما لا يطاق، ولكنني أظل مقتنعة بصورة قاطعة أنني سمعت أنينا، وصراخا إنسانيا، ونحيبا، ويأسا تاما كان منبجسا في هذه الأصوات، وفي النهاية، عندما دوى اللحن الأخير والمخيف الذي احتوى على كل ما يمكن أن يكون مرعبا في البكاء، وما لا يطاق في الألم، ومؤلما في قلق ميؤوس منه، بدا لي كأن كل ذلك كان مجتمعا مرة واحدة... ولم أستطع أن أتمالك نفسي - فأخذت أرتجف، وطفرت الدموع من عيني، واندفعت نحو أبي، وأنا أطلق صرخة مرعبة ويائسة، واحتضنته بذراعي. فصرخ وأنزل كمانه.

ظل واقفا لحظة كالتائه. وأخيرا، بدأ يجول بعينيه في جميع الجهات، كأنه كان يبحث عن شيء، وفجأة، أخذ كمانه، ولوح به فوق رأسي... لحظة أخرى وربما كان يمكن أن يقتلني على الفور.

ناديته:

- بابا! بابا!

ارتعش مثل ورقة عندما سمع صوتي وتراجع خطوتين.

صاح وهو يرفعني في الهواء من الكتفين:

- آه! ما زلت أنت هنا! وإذن لم ينته كل شيء بعد! وإذن، أنت، بقيت معي!

صحت من جديد:

- بابا! لا تفزعني، أرجوك! أنا خائفة! آه!

أذهلته دموعي. وضعني بهدوء على الأرض. وبقي لحظة ينظر إلي صامتا، كما لو كان يحاول أن يتعرف علي وأن يتذكر أمرا. وأخيرا، بدا فجأة، كأن شيئا أثر فيه، كما لو أن فكرة رهيبة أذهلته، انحنى علي وبدأ يحدق في وجهي بإمعان.

قلت له مرتجفة خوفا:

- بابا، لا تنظر إلي هكذا، يا بابا! لنذهب من هنا! لنذهب بسرعة! هيا، لنذهب!

- نعم، نعم، لنذهب، حان الوقت، يا نيتوتشكا، أسرعي، أسرعي!!

وأخذ يتحرك كما لو أنه كان يعرف الآن فقط ما يجب عليه أن يفعل. ألقى حوله نظرات خاطفة، ولما رأى خمار أمي على الأرض، التقطه ودسه في جيبه، ثم أبصر قبعته، فالتقطها هي أيضا وأخفاها كأنه كان يستعد لسفر طويل ويريد أن يحمل كل ما كان يمكن أن يحتاج إليه.

وفي لمح البصر، ارتديت فستاني، وأنا أيضا، أخذت بسرعة أتناول كل ما رأيته ضروريا للسفر.

سألني أبي:

- أهذا كل شيء، كل شيء؟ كل شيء جاهز؟ أسرعي، أسرعي!

عقدت صرتي بسرعة، وألقيت خمارا على رأسي، وعندما كنا معا على أهبة الخروج، خطر ببالي أنه يجب أن نحمل أيضا اللوحة التي كانت معلقة على الجدار. اتفق بابا معي فورا، الآن، كان هادئا، ولا يتكلم إلا همسا ويحثني فقط على الإسراع بالذهاب.

كانت اللوحة معلقة عاليا جدا: حملنا معا كرسيا، وأضفنا إليه مقعدا صغيرا، وصعدنا فوقه، وبعد جهود طويلة، أنزلناها عن الجدار.

هنا، كان كل شيء معدا لرحيلنا. أمسكني أبي من يدي، وكنا نهم بالخروج، لما استوقفني فجأة. وأخذ يضرب جبهته لفترة طويلة، كأنه كان يحاول أن يتذكر شيئا لم يفعله بعد.

وأخيرا، بدا كأنه وجد ما كان يحتاج إليه، بحث عن المفاتيح التي كانت أمي تضعها تحت وسادتها وعلى عجل أخذ يبحث عن شيء في صوان الثياب.

وأخيرا، عاد إلي، حاملا لي قليلا من النقود، التي وجدها في الصوان.

قال همسا:

- خذي، خذي هذه النقود، حافظي عليها، لا تضيعيها إذن! انتبهي! تذكري!

بدأ بوضع النقود في يدي، ثم أخذها مني ثانية، وحشاها في

عبّي. أتذكر أنني ارتجفت حين لامست هذه العملة الفضية جسمي، وبدا لي أنني منذ هذه اللحظة فقط فهمت ماذا كانت تعني النقود.

في هذه المرة، كنا من جديد على استعداد للذهاب، ولكنه استوقفني فجأة مرة أخرى.

قال لي، كأنه كان يبذل جهدا كبيرا للتفكير:

- نيتوتشكا! بنيتي، نسيت شيئا... ولكن ما هو؟ ماذا يجب أيضا؟ لم أعد أذكر... بل، نعم، وجدت، أتذكر! تعالي إلى هنا، يا نيتوتشكا!

قادني نحو الزاوية التي كانت توجد فيها الإيقونة[1] وطلب مني أن أجثو على ركبتي.

قال لي همسا، ومشيرا إلى الإيقونة وناظرا إلي بسحنة غريبة:

- صلي، يا بنيتي، أدي صلاتك! ستشعرين بنفسك أحسن حالا! نعم، حقا، ستكونين أفضل حالا! قومي بالصلاة، صلي صلاة صغيرة!

هكذا قال لي بصوت فيه بعض الرجاء والتوسل.

جثوت على ركبتي، شبكت يدي، وطافحة بالخوف، اليأس الذي استولى علي تماما في هذه اللحظة، جثوت حتى الأرض، ومكثت هكذا لعدة دقائق، كالميتة. ركزت كل أفكاري، كل مشاعري، حول الصلاة، ولكن الخوف سيطر علي. نهضت، منهكة من القلق. لم أعد أريد الذهاب معه، كنت خائفة منه، كنت أود البقاء. وأخيرا، كل ما كان يتعبني ويعذبني تدفق خارج صدري.

---

(1) الإيقونة روسيا وفرنسيا بكسر الهمزة ولم لا عربيا أيضا!؟

قلت مغرقة في الدموع:

- بابا، وماما؟... ماذا يجري لماما؟ أين هي؟ أين أمي؟

كنت عاجزة عن متابعة الكلام وغارقة في الدموع.

وهو أيضا، كان ينظر إلي، دامع العينين.

وأخيرا، أخذني من يدي، وقادني نحو السرير، طرح عنه أكواما من الثياب، وأزاح الغطاء. يا إلهي! كانت جثة هامدة، باردة ومزرقة. وكأنني فاقدة الإحساس، اندفعت نحوها، واحتضنت جثمانها. جعلني أبي أنحني على ركبتي.

قال لي:

- انحني أمامها، يا بنيتي، قولي لها وداعا...

انحنيت. وانحنى أبي معي... كان شاحبا بشكل رهيب، وكانت شفتاه تتحركان وتتمتمان بشيء.

كان يقول وهو يشير إلى الجثمان بيد مرتعشة:

- لست أنا، يا نيتوتشكا، لست أنا، أتسمعين، لست أنا، لست أنا المذنب. تذكري، يا نيتوتشكا!

همست له بخوف:

- لنذهب، يا بابا، حان الوقت.

قال لي وهو يمسكني من يدي بشدة ويستعجلني على الخروج من الغرفة:

- نعم، الآن، حان الوقت، حان الوقت منذ مدة طويلة! حسنا، هيا الآن، فلننطلق! حمدا لله، حمدا لله، الآن، انتهى كل شيء!

نزلنا السلم، كان البواب شبه نائم، فتح لنا البوابة، وألقى علينا نظرة مرتابة، وكما لو كان بابا يخشى ويتحاشى أسئلته، وثب إلى الشارع هو الأول وبسرعة بحيث لم أستطع اللحاق به. نزلنا شارعنا، لننطلق على رصيف القناة. طوال الليل، ظل الثلج يسقط فوق أحجار الرصيف والآن مازال يهمي بندف صغيرة.

كان الطقس باردا، كنت أرتجف حتى العظام، وأركض خلف أبي، متشبثة بتشنج بأهداب معطفه. وهو، كان متأبطا كمانه، يتوقف في كل لحظة، ليثبت هذه العلبة تحت ذراعه. مشينا منذ ربع ساعة، وأخيرا، نزل منحدر الرصيف حتى ضفة القناة وجلس على الحد الأخير. كانت هناك حفرة ماء على بعد خطوتين منا. لا روح حولنا. يا إلهي! كما الآن، أتذكر ذلك الإحساس المخيف الذي استولى علي فجأة! أخيرا حدث كل ما حلمت به سنة كاملة. لقد غادرنا مسكننا البائس الفقير... ولكن أهذا ما كنت أنتظره، ما حلمت به، وما كان يتشكل في مخيلتي الطفولية، عندما كنت أحاول أن أتنبأ بسعادة ذلك الذي أحببته حبا قليل الصبيانية جدا؟ أمي هي التي كانت تعذبني أكثر في هذه اللحظة. كنت أتساءل: "لماذا تركناها وحيدة؟ تركنا جسدها كشيء غير نافع؟ أتذكر أن ذلك ما كان يعذبني ويمزقني أكثر.

بدأت أقول، لماذا لم أعد قادرة على احتمال هذا القلق المؤلم:

- بابا! بابا!

فسألني بصوت حاد

- ماذا هناك؟

سألته باكية:

- بابا، لماذا تركنا ماما هناك؟ لماذا تركناها وحيدة؟ لنرجع إلى البيت! لنطلب أحدا لمساعدتها.

صاح فجأة، قافزا وناهضا من ذلك التخم، كما لو أن فكرة جديدة خطرت بباله، فكرة بددت بغتة كل شكوكه:

- نعم، نعم، يا نيتوتشكا، لا يمكن أن نتركها هكذا، يجب الرجوع إلى ماما، إنها باردة هناك! عودي إليها، يا نيتوتشكا، هيا اذهبي، ليس هناك ظلمة، هناك الشمعة، لا تخافي، اطلبي أحدا لمساعدتها ثم ارجعي إلي، وحدك، وأنا، سأنتظرك هنا... لأنني لن أذهب إلى أي مكان.

وذهبت على الفور، ولكنني لم أكد أصل إلى الرصيف حتى شعرت بشيء يخترق قلبي... فالتفت ورأيته راكضا، بالفعل، من الجانب الآخر، هاربا بعيدا عني، تاركا إياي وحيدة، متخليا عني في مثل هذه اللحظة! أخذت أصرخ بكل قواي، وقد استولى علي خوف رهيب، وانطلقت أعدو للحاق به. فانقطع نفسي: كان يركض أسرع فأسرع... واختفى بالفعل عن ناظري. في الطريق، عثرت على قبعته التي فقدها أثناء فراره، التقطتها واستأنفت ركضي. خانتني أنفاسي وتخاذلت ركبتاي. وشعرت كأن شيئا فظيعا يحدث لي: إذ كان إحساسي دائما بأن ذلك ليس إلا حلما، وأحيانا، كان لدي نفس الشعور، كما في الحلم، عندما كنت أراني أركض هاربة من أحد ما، ولكن لما خذلتني ساقاي، أدركتني الجماعة التي كانت تطاردني فسقطت غائبة عن الوعي. إحساس

مؤلم كان يمزقني: كنت أرثي له، وقلبي كان يحترق ويتمزق، عندما كنت أتصور أنه كان يهرب مني، دونما معطف ولا قبعة، أمامي، أمامي أنا طفلته العزيزة... كنت أريد اللحاق به فقط لأقبله مرة أخرى، بقوة، أن أقول له إنه لا داعي للخوف مني، أن أطمئنه، أن أؤكد له أنني لن أتبعه، إذا لم يرد ذلك، وأنني سأعود وحدي إلى بيت أمي.

وأخيرا تمكنت من أن أتبينه، كان قد انتقل إلى إحدى الأزقة، فانطلقت إليها ولما انعطفت واقتفيت أثره، لاحظته أمامي... وهنا، خذلتني قواي، فأخذت أبكي، وأصيح. أتذكر أنني عندما كنت أجري، اصطدمت بعابرين، لم يلبثا أن توقفا في وسط الرصيف، وتطلعا إلينا معا باستغراب.

أخذت أصيح مرة أخيرة:

- بابا ! بابا!

ولكنني انزلقت فجأة على الرصيف، وسقطت أمام أبواب إحدى البنايات، فشعرت بوجهي فائضا دما. وبعد لحظة، أغمي علي...

صحوت في فراش دافئ وناعم واكتشفت حولي وجوها ودودة كانت فرحة باستيقاظي. ميزت منها عجوزا قصيرة، بنظارتين على أنفها، رجلا طويل القامة، كان ينظر إلي بعطف عميق، ثم سيدة شابة جميلة جدا، وأخيرا، عجوزا أبيض الشعر، كان يمسكني من يدي وينظر إلى ساعته. صحوت على حياة جديدة. أحد اللذين صادفتهما أثناء ركضي كان هو الأمير خ. وكنت قد سقطت أمام باب منزله.

عندما استطاعوا، بعد بحث طويل جدا، أن يعلموا من أكون، قرر الأمير، الذي كان قد بعث إلى أبي بتذكرة الدخول لحفل س-تس، ومضطربا بغرابة ما حدث، أن يؤويني في بيته وأن يربيني مع أبنائه.

كان قد بدأ البحث لمعرفة ما حصل لأبي وعلم أنه اعتقل من طرف من لا أدري، حين كان خارج المدينة، مصابا بنوبة جنون شديدة. وأخذ إلى المستشفى، حيث مات بعد يومين.

لقد مات، لأن مثل هذه الوفاة كانت ضرورة، ونتيجة طبيعية لحياته كلها. كان عليه أن يموت هكذا عندما انهار مرة واحدة كل ما كان يدعمه في حياته، وتلاشى مثل شبح، مثل حلم فارغ وعقيم.

مات، عندما اضمحل أمله الأخير، وعندما انحل في لحظة واحدة أمام عينيه ودخل في عقله اليقظ كل ما خدع نفسه ودعمها طوال حياته.

أعمته الحقيقة ببريقها الذي لا يطاق وما كان كذبا صار كذلك حتى بالنسبة إليه.

خلال الساعة الأخيرة من حياته، كان قد استمع لعبقري رائع قال له كل شيء عن نفسه، وحكم عليه إلى الأبد.

ومع انفجار آخر صوتٍ من أوتار كمان العبقري س-تس، كُشف فجأة أمام عينيه كلّ سرّ الفن، والعبقرية، الدائمة الشباب، الجبارة والحقة والصادقة، قد سحقته بحقيقتها. كان يبدو أن كل ما عاناه طوال حياته من آلام غامضة وغير قابلة للوصف، وكل ما لم يره حتى ذلك الحين إلا في حلم، والذي كان يهرب دائما برعب، ويتقنع بالكذب طوال حياته، وكل ما كان يتوقعه ويفزعه حتى ذلك

الحين، كل ذلك، كان يسطع فجأة بعناد أمام عينيه اللتين لم تكونا تريدان الاعتراف بأن النور هو النور وأن الظلام هو الظلام.

ولكن الحقيقة كانت لا تطاق لعينيه اللتين رأتا بوضوح لأول مرة، ما جرى، وما كان يجري، وما كان ينتظره، فأعمته ودمرت عقله. انقضت عليه، فجأة وحتما، كالصاعقة.

وتحقق ما كان يتوقعه طوال حياته جامدا ومرتعدا رعبا. وطوال حياته، كان يبدو، كأن فأسا كانت معلقة فوق رأسه، وطوال حياته، كان يتوقع في كل لحظة، وبآلام لا توصف، أن تهوي فوق أم رأسه، وهوت عليه الفأس أخيرا! كانت الضربة قاتلة.

كان يريد الهروب من الحكم عليه ولكن إلى أين المفر: كان أمله الأخير قد ضاع وضاعت هباء ذريعته الأخيرة. تلك التي كانت حياتها عبئا عليه، طوال سنين، تلك التي كانت تمنعه من الحياة، تلك التي كان عليها أن تموت، حسب إيمانه الأعمى، لكي يحيا هو من جديد فجأة، كانت تلك قد ماتت. وأخيرا، كان وحيدا، لم يعد يمنعه شيء: كان أخيرا حرا! ومرة أخيرة، أراد في نوبة من اليأس المتشنج، أن يحاكم نفسه، وأن يدينها بعناد وصرامة، مثل قاض عادل ونزيه، ولكن قوسه التي ضعفت لم تستطع إلا أن تكرر بطريقة ضعيفة عزف الجملة الموسيقية الأخيرة للعبقري... وفي هذه اللحظة، كان لابد أن يصاب بالجنون الذي استولى عليه منذ عشر سنوات.

الفصل الرابع

استعدت عافيتي ببطء، ولكنني حين تركت الفراش نهائيا كان عقلي في نوع من البلادة، التي منعتني لمدة طويلة من فهم ما حدث لي بالضبط. في بعض اللحظات، كان يبدو أنني كنت في حلم، وأتذكر أنني كنت أود لو أن كل ما حدث لي، في الواقع، لم يكن إلا حلما! في المساء، عندما أنام، كنت أتمنى أن أستيقظ فجأة مرة أخرى في غرفتنا الفقيرة، وأن أرى من جديد أبي وأمي. ولكن أخيرا، تبين لي وضعي، وشيئا فشيئا، فهمت أنني بقيت وحيدة تماما، وأنني أعيش في بيت غريب. وعندئذ شعرت لأول مرة في حياتي، بأنني كنت يتيمة.

بدأت أتفحص بفارغ الصبر كل ما كان محيطا بي وجديدا علي. في أول الأمر، بدا لي كل شيء غريبا ورائعا، كل شيء كان يزعجني: الوجوه الجديدة، العادات الجديدة، غرف الإقامة الأميرية القديمة-التي كانت، وما زالت حتى الآن ماثلة أمام عيني، فسيحة، عالية، وفاخرة، ولكنها جد قاتمة وجهمة، بحيث أذكر أنني كنت على محمل الجد أشعر بالخوف من عبور هذه أو تلك من القاعات التي ليس لها نهاية وكان يبدو لي أنني كنت سأضيع فيها.

لم أكن قد شفيت من مرضي تماما وكان شعوري قاتما، وثقيلا، وشبيها وعلى شاكلة هذا المسكن الرسمي الكئيب. وفضلا

عن ذلك، كان نوع من القلق، الذي لما يزل غامضا بالنسبة إلي، يتعاظم أكثر فأكثر في قلبي الفتي.

كنت أقف، مذهولة، أمام لوحة، مرآة، مدخنة موقد غريب الصنع، أو تمثال كان يختبئ عمدا في كوة عميقة لكي يراقبني من الداخل بشكل أفضل وليستطيع بالتالي أن يفزعني، كنت أتوقف ثم فجأة أنسى لماذا توقفت، وماذا كنت أريد، وفي ما بدأت أفكر، وحالما كنت أثوب إلى رشدي، كان يجتاحني الرعب والاضطراب من جديد ويشتد خفقان قلبي.

من أولئك الذين نادرا ما كانوا يأتون لرؤيتي، عندما كنت بعد مريضة، بصرف النظر عن الدكتور العجوز، تأثرت على الخصوص بوجه رجل، كان كبيرا في السن، جادا كثيرا، ولكنه كان طافحا طيبة، وفياضا رحمة! وجهه، هو الذي كان يعجبني أكثر. كنت أحلم بالكلام معه، ولكنني كنت خائفة: كان يرى دائما كئيبا، متكلما قليلا بصوت مرتعش، ولا بسمة على شفتيه. كان هو الأمير خ. وهو الذي وجدني وأخذني إلى منزله. عندما كنت أتماثل للشفاء، أصبحت زياراته نادرة أكثر فأكثر. وأخيرا، حين جاء آخر مرة، جلب لي حلاوى، وكتاب أطفال صغيرا ومزدانا بصور، ثم قبلني، ورسم علي علامة الصليب، وطلب مني أن أكون أكثر سرورا وحبورا.

ولكي يسري عني، أضاف قائلا إنني قريبا ستكون لي صديقة، صبية في مثل سني، ابنته كاتيا، التي كانت حتى هذه اللحظة في موسكو. وبعد أن قال شيئا لفرنسية مسنة، مربية أولاده، ولامرأة شابة، كانت تعالجني، أشار لهما إلي، وخرج، ومنذ ذلك الوقت

لم أره لمدة ثلاثة أسابيع كاملة. كان الأمير يعيش في منزله على انفراد.

وكانت الأميرة زوجته تحتل أكبر قسم من المنزل. وهي أيضا لم تكن ترى الأمير أحيانا لمدة أسابيع كاملة، وفيما بعد، لاحظت أن الحاشية كلها كانت أيضا قليلة الكلام على الأمير، كأنه ليس في المنزل. كانوا جميعا يحترمونه وحتى يحبونه، كما كان واضحا، ولكنهم كانوا ينظرون إليه كرجل غريب عجيب. وهو نفسه، فيما يبدو، كان يدرك أنه غريب جدا، كأنه لم يكن كالآخرين، ولذلك كان حريصا على أن لا يظهر أمامهم إلا لماما... وفيما بعد، ستتاح لي فرصة الحديث عنه بتفصيل.

ذات صباح، كسوني بملابس داخلية نظيفة ورقيقة، وألبسوني فستانا من الصوف الأسود، **بشرائط بيضاء**[1]، نظرت إليها بنوع من الذهول الكئيب، ومشطوا شعري، وأنزلوني، من الغرف العلوية، إلى الأسفل، نحو غرف الأميرة. وقفت كالجامدة في مكاني عندما أحضروني أمامها: أبدا لم أر حتى الآن حولي مثل هذا الثراء وهذا البهاء.

ولكن، كان ذلك انطباعا عابرا وامتقع لوني سريعا عندما سمعت صوت الأميرة التي كانت تأمرهم بأن يقودوني قريبا منها. أثناء ارتداء الثياب، اعتقدت أنهم كانوا يهيئونني لنوع من العذاب، حتى وإن كان الله وحده يعلم من أين أتتني مثل هذه الفكرة.

---

(1) شرائط بيضاء: من قماش في أكمام ثياب الحداد، بالفرنسية pleureuses وبالروسية بْليريوزي плерёзы

على العموم. دخلت إلى هذه الحياة الجديدة، بنوع من الحذر الغريب نحو كل ما كان يحيط بي. ولكن الأميرة كانت لطيفة جدا معي وقبلتني. وتجرأت على رفع عيني إليها. كانت هي تلك المرأة الرائعة التي رأيتها حين ثبت إلى رشدي، بعد الإغماء علي.

ولكني ارتجفت بكامل جسمي عندما قبلت يدها، وكنت عاجزة تماما عن الرد على أي شيء من أسئلتها. أمرتني بالجلوس قربها على مقعد صغير. أظن أن هذا المكان كان معدا سلفا من أجلي. كان واضحا أن الأميرة لم تكن تريد شيئا أكثر من أن تتعلق بي بكل روحها، وأن تلاطفني، وأن تعوض أمي تماما.

ولكنني لم أستطع أن أفهم إطلاقا أنها فرصة سعيدة بالنسبة إلي ولم أكسب شيئا في نظرها. أعطوني كتابا صغيرا رائعا مزدانا بالصور وأمروني بالنظر إليه.

كانت الأميرة نفسها تكتب لشخص رسالة، وبين الفينة والأخرى كانت تترك ريشتها وتبدأ الكلام معي، ولكنني كنت أرتبك وأتبلبل ولا أستطيع قول جملة مفيدة. باختصار، رغم أن قصتي كانت غير عادية جدا، وكان للقدر، ولنقل، حتى لأنواع شتى من الوسائل الغامضة، الدور الأكبر فيها، ورغم أن هناك بشكل عام أشياء كثيرة مثيرة للاهتمام، لا يمكن تفسيرها، وحتى أشياء خارقة، إلا أنني برغم كل هذه الظروف الميلودرامية كنت طفلة أكثر من عادية، ومذعورة، كما لو كنت مسحوقة وحتى بلهاء قليلا.

هذا الأمر الأخير خصوصا لم يرق للأميرة بتاتا، وبدا لي أنني قريبا جدا سأضايقها تماما، ولن ألوم على ذلك إلا نفسي، بطبيعة

الحال. حوالي الساعة الثانية، بدأت الزيارات، وبدت الأميرة فجأة أكثر انتباها ولطفا تجاهي. كانت تجيب على أسئلة الزوار عني بأنها قصة من أهم القصص، ثم تبدأ تحكي بالفرنسية. حين كانت تحكي، كانت تتجه إلي النظرات، وتومئ نحوي الرؤوس، وتتعجب مني النفوس. اختلس النظر إلي شاب، أراد عجوز صغير أبيض الشعر تفوح منه رائحة الطيب أن يطبع على خدي قبلة، ولكنني امتقعت، تضرجت خجلا، وبقيت مسبلة العينين، خائفة من القيام بأية نأمة، ومرتجفة بكامل أطرافي. كان قلبي يتأوه، ويحترق. كنت أهرب نحو الماضي، إلى علّيتنا، كنت أتذكر أبي، وأمسياتنا الطويلة الصموت، وأمي، وعندما كنت أعيد التفكير في أمي - كانت الدموع تطفر من عيني، ويضيق حلقي، وكانت لدي رغبة شديدة في أن أهرب، أن أختفي، أن أبقى وحدي... وبعد ذلك، عندما انتهت الزيارات، أصبح وجه الأميرة أقسى بشكل ملحوظ. كانت الآن ترمقني بنظرات أشد صرامة، وتكلمني بلهجة أكثر حدة، وما كان يخيفني منها خاصة هما عيناها السوداوان، الثاقبتان، الثابتتان علي أحيانا لمدة ربع ساعة، وشفتاها الرقيقتان المزمومتان بشدة.

في المساء، أخذت إلى أعلى. نمت محمومة، مستيقظة ليلا، مصابة بنوبة من القلق، باكية من أحلامي السقيمة، ثم في الصباح التالي، كانت القصة نفسها، واقتادوني إلى الأميرة من جديد. وأخيرا، بدا كما لو أنها هي ذاتها تعبت من حكي مغامراتي لزوارها وكأن هؤلاء ملوا من الرثاء لحالي.

وفضلا عن ذلك، كنت طفلة عادية جدا، "دون أدنى سذاجة"، كما، أذكر، قالت ذلك الأميرة نفسها، عندما كانت تتكلم وجها

لوجه مع سيدة مسنة سألتها إن لم تكن تتضايق مني حقا- وأخيرا، ذات مساء، قادوني مرة أخرى نهائيا إلى أعلى، لكي لا ينزلوني إلى أسفل من جديد. وهكذا انتهى وقت محاباتي، ومع ذلك، كان يحق لي أن أتنزه حيثما شئت، وبقدر ما كنت أريد. وأنا، من جانبي، لم أستطع البقاء في مكاني، بسبب هذا القلق العميق، السقيم، الذي كان ينتابني، وكنت في غاية السعادة عندما تركتهم جميعا، أخيرا، ونزلت إلى الغرف الكبيرة.

كانت لدي رغبة شديدة في أن أتكلم مع حاشية المنزل، لكنني كنت أخاف كثيرا من إزعاجهم، ففضلت البقاء وحدي. كانت هوايتي المفضلة أن أقبع في إحدى الزوايا، بعيدا عن الانظار، أن أندس خلف قطعة من الأثاث، وهناك كنت أشرع حالا في تذكر وفهم ما حدث لي، ولكن، شيء غريب! كنت كأنني نسيت نهاية ما حدث لي في منزلي العائلي وكل هذه القصة الفظيعة. كانت تومض أمامي بعض الصور، تعرض بعض الأحداث، كنت حقا أتذكر كل شيء: الليل، الكمان، أبي، وكيف حصلت له على النقود، ولكن، أن أفكر في كل هذه الأحداث، وأن أشرحها، ذلك ما لم أستطعه... كنت أحس فقط بانقباض قلبي، وعندما كنت أصل إلى تذكر اللحظة التي صليت فيها أمام جثمان أمي، كانت الرعشات تجتاح فجأة كل أعضاء جسمي، كنت أرتجف، أطلق صرخات خافتة، ثم أحس باختناق أنفاسي، كان صدري كله يتمزق، وقلبي يخفق بسرعة، فأصاب بالرعب وأهرب من زاويتي بعيدا. ومع ذلك، ليس صحيحا أنهم كانوا يتركونني وحدي: كانوا يراقبونني بدون انقطاع ولا فتور، ويطبقون حرفيا تعاليم الأمير،

الذي أمرهم بأن تعطى لي حرية كاملة، وأن لا أقيد بشيء، ولكن على أن لا تغفل عني عيونهم لحظة واحدة. كنت ألاحظ أن أحدا من الحاشية أو من الخدم، كان بين الفينة والأخرى يلقي نظرة على الغرفة التي كنت فيها ويمضي دون أن يقول لي كلمة. استغربت جدا واحترت قليلا من مثل هذا الانتباه. لم أستطع أن أفهم لماذا كانوا يفعلون ذلك. كان يبدو لي دائما أنهم كانوا يراقبونني لحاجة في نفوسهم، وينوون أن يفعلوا بي شيئا فيما بعد... أتذكر أنني كنت أحاول دائما أن أبقى بعيدة قدر الإمكان، لكي أجد، عند الحاجة، مكانا للاختباء.

ذات يوم، وجدتني على الدرج الكبير، كان كله من الرخام، عريضا، مغطى بسجادة، مزينا بالنباتات والمزهريات الرائعة. على كل مصطبة كان يقعي في صمت رجلان بقامة طويلة، وملابس غريبة، وقفازات، وربطات عنق ناصعة البياض. كنت ألقي عليهم نظرة ذهول، غير قادرة تماما على فهم ماذا كان يمكن أن يفعلوا هناك، صامتين، متقابلين، دون القيام بأي شيء آخر.

كانت تعجبني هذه النزهات أكثر فأكثر. وبالأخص عندما يكون هناك سبب آخر يدعوني للهروب إلى الطابق العلوي. كانت تعيش هناك في الأعلى عمة الأمير، التي لم تكن تخرج تقريبا أبدا لا إلى المدينة، ولا حتى من المنزل.

هذه العجوز الصغيرة تركت أثرا قويا في ذاكرتي.

كانت تقريبا أهم شخصية في البيت. كان الجميع يلاحظون في العلاقات معها نوعا من المعاملة الرسمية. حتى الأميرة الشديدة

الكبرياء والديكتاتورية، كان يجب عليها، مرتين بالضبط أسبوعيا، في أيام ثابتة، أن تصعد شخصيا لزيارة عمتها. كانت تأتي إليها عادة في الصباح، وتبدأ حوارا معها جافا، تقطعه في كثير من الأحيان لحظات من الصمت المهيب، كانت العجوز خلالها تتمتم بصلاتها تارة، وتلعب بمسبحتها تارة أخرى. لم تكن الزيارة تنتهي إلا برغبة العمة العجوز، التي كانت تنهض من مقعدها، وتقبل الأميرة على شفتيها، مما كان يعني انتهاء المقابلة.

منذ عهد قريب، كانت الأميرة مجبرة على زيارة قريبتها يوميا، ولكن، فيما بعد، برغبة العجوز الصغيرة، كان هناك تخفيف، ولم يعد على الأميرة، خلال الخمسة أيام من الأسبوع، إلا أن ترسل كل صباح شخصا يستفسر عن صحتها. على العموم، كانت الأميرة العجوز تعيش تقريبا حياة رهبانية. كانت آنسة وفي سن الخامسة والثلاثين، التحقت بدير، قضت فيه سبعة عشر عاما، ولكنها لم تترهبن، وبعد ذلك، غادرت الدير وجاءت إلى موسكو، لتعيش فيها مع أختها، الأرملة، الكونتيسة ل.، التي تدهورت صحتها من سنة إلى أخرى، والتي تصالحت مع أختها الثانية، وهي أيضا الأميرة خ.، كانت مختلفة معها منذ عشرين سنة وأكثر.

ولكن العجائز الصغيرات، فيما يقال، لم يقضين يوما واحدا في سلام، وأردن ألف مرة أن يفترقن، ولم يستطعن فراقا، لأنهن لاحظن أخيرا أن كل واحدة منهن ضرورية للأخريين، ليحمين أنفسهن من الضجر ومن أزمات الشيخوخة.

ولكن، بصرف النظر عن عدم وجود سحر في حياتهن، وبرغم الملل الذي كان يسود قصرهن، فإن المدينة كلها كانت ترى

أن من واجبها ألا تكف عن زيارة الزاهدات الثلاث. كان ينظر إليهن كحارسات لكل الوصايا والتقاليد الأرستوقراطية، والتاريخ الحي للنبلاء الأصلاء. تركت الكونتيسة حشدا من الذكريات الرائعة وكانت امرأة ممتازة.

كان مسافرو بطرسبورغ يبدؤون زياراتهم بها. من كان يستقبل عندها كان يرحب به في كل مكان. ولكن الكونتيسة ماتت وافترقت الأخريان: الكبرى، الأميرة خ. بقيت في موسكو، لتتلقى نصيبها من الإرث، بعد وفاة الكونتيسة دون أولاد. أما الصغرى، التي كانت في الدير، فقد انتقلت إلى بطرسبورغ، لتعيش عند ابن أخيها الأمير خ. ومن جهة أخرى، ظل طفلا الأمير، الأميرة كاتيا وألكسندر، عند جدتهما في موسكو، لتسليتها ومواساتها في وحدتها. لم تجرؤ الأميرة، التي كانت تحب طفليها حتى الجنون، على النطق بكلمة واحدة بعد فراق طفليها طوال فترة الحداد. نسيت أن أقول إن الحداد كان بعد مستمرا في منزل الأمير حين أقمت عندهم، ولكنه كان مشرفا على نهايته.

لم تكن الأميرة العجوز تكتسي إلا بالسواد، ولا ترتدي إلا فساتين من صوف بسيط، ولا تلبس إلا ياقات منشاة بيضاء ذات ثنايا صغيرة، مما كان يضفي عليها مظهر سيدة محسنة. لم تكن تفارق مسبحتها أبدا، كانت تخرج رسميا للذهاب إلى القداس، تصوم في كل يوم، تتلقى زيارة مختلف رجال الدين والناس ذوي الأخلاق الرفيعة، تقرأ الكتب المقدسة، وتعيش تقريبا حياة الرهبانية.

كان الصمت في الأعلى مفزعا، كان من المستحيل أن يسمع صرير الباب: كانت العجوز الصغيرة مرهفة السمع جدا، كفتاة في

الخامسة عشرة من العمر، وعلى الفور كانت تبعث من يبحث عن السبب الذي جعل الباب يصفق أو يصرف فقط. كان الكلام همسا، والمشي على رؤوس أصابع القدمين، وأجبرت الفرنسية المسكينة، وهي أيضا عجوز صغيرة، في آخر الأمر، على التخلي عن أحذيتها المفضلة- ذات الكعب العالي. كان الكعب العالي محظورا. بعد ظهوري بأسبوعين، أرسلت أحدا ليتقصى أخباري: من أنا، كيف كنت، وكيف وجدت نفسي عندهم وهلم جرا. وبكامل الاحترام وفورا تلقت أخبارا مرضية. وعندئذ، أرسل شخص ثان، إلى السيدة الفرنسية، مستفسرا، لماذا لم ترني الأميرة حتى الآن؟ وعلى الفور دب في المنزل الاضطراب: أخذوا يمشطون شعري، ويغسلون وجهي ويدي، مع أنهما كانتا نظيفتين جدا، علموني كيف يجب علي أن أمشي، أن أنحني، أن أبدو أكثر مرحا وبشاشة، وكيف يجب علي أن أتكلم، باختصار، قلبوني رأسا على عقب.

ثم، أرسلت من جانبنا امرأة لتسأل: هل تود الأميرة أن ترى اليتيمة اليوم؟ كان الجواب على هذا الاقتراح سلبا، ولكن حدد لي موعد في اليوم التالي بعد القداس.

لم أنم طوال الليل، وقد حكي لي فيما بعد، أنني قضيت الليلة كلها وأنا أهذي، وأدنو من الأميرة وأسألها الصفح على شيء غير واضح. وأخيرا، تم تقديمي. اكتشفت عجوزا صغيرة، هزيلة جدا، جالسة في أريكة كبيرة. أخذت تومئ لي برأسها، وتنزع نظارتيها لتمعن النظر في وجهي أقرب. أتذكر أنني لم أعجبها بتاتا. لوحظ أنني كنت متوحشة حقيقية، لا أعرف لا انحناءة احترام ولا تقبيل يد.

وبدأ طرح الأسئلة، التي كنت أجيب عنها بصعوبة، ولكن عندما سئلت عن أبي وأمي انخرطت في البكاء.

شعرت العجوز الصغيرة بعدم الارتياح من تأثري الشديد، ومع ذلك، أخذت تواسيني وطلبت مني أن أضع كل آمالي على الله، ثم، سألتني متى كنت في الكنيسة آخر مرة، وما كدت أفهم سؤالها، لقصور تعليمي، حتى أصيبت السيدة العجوز بالرعب. أرسل في طلب الأميرة.

وانعقد بعد ذلك اجتماع للتشاور.

وتقرر إرسالي إلى الكنيسة منذ يوم الأحد التالي.

وحتى ذلك الحين، وعدت الأميرة العجوز بالصلاة من أجلي، ولكنها أمرت بإخراجي لأنني كما قالت تركت لديها انطباعا مؤلما للغاية. لا شيء يدعو للاستغراب، بل ما كان ينبغي أن يكون الأمر إلا كذلك.

كان واضحا أنني لم أعجبها تماما، وفي ذلك اليوم نفسه، قيل إنني كثيرة اللهو، وإن ضجيجي كان يسمع في المنزل كله، بينما بقيت طوال اليوم بلا حَراك تقريبا: كان واضحا أن العجوز الصغيرة كان لها هذا الشعور.

ومع ذلك، في اليوم التالي أيضا، كان هناك نفس التعليق. وحدث لي الشيء نفسه، في ذلك اليوم، إذ أسقطت فنجانا وكسرته. كانت السيدة الفرنسية والفتيات جميعا في ذروة اليأس، وعلى الفور، نقلت إلى أبعد غرفة، حيث تبعني الجميع في نوبة من الرعب العميق.

ولكن، لا أدري كيف كانت نهاية هذه القصة.

لهذا السبب كنت سعيدة بالنزول إلى الحجرات الكبيرة، والتسكع وحيدة، وأنا أعلم أنني لن أزعج هناك أحدا.

أذكر أنني كنت ذات يوم جالسة في قاعة كبيرة بالطابق السفلي. كنت أخفي وجهي بين يدي، وأحني رأسي، وبقيت على هذا الوضع، لا أدري كم من الساعات. كنت مستغرقة في التفكير العميق طويلا، وكان عقلي الذي ما زال هشا، غير قادر على حل كل هذا القلق الذي كان في داخلي، وكان قلبي يزداد انقباضا ومرضا. وفجأة، رنّ صوت عذب فوق رأسي:

- ما بك، يا صغيرتي المسكينة؟

رفعت رأسي: كان الأمير، وعلى وجهه تعابير تعاطف شديد وشفقة عميقة، ولكن النظرة التي ألقيتها عليه كانت حزينة ومستاءة جدا، بحيث تلألأت دمعة فوق عينيه الكبيرتين الزرقاوين.

همس وهو يداعب رأسي:

- يا للصغيرة اليتيمة المسكينة!

- لا، لا، لست يتيمة! كلا!

هكذا قلت وندت من صدري تنهيدة عميقة، واصّاعد مني كل شيء، واهتز كياني كله، ونهضت من مكاني، وأمسكت بيده وقبلتها وبللتها بدموعي وكررت بصوت متوسل:

- لا، لا، لست يتيمة! كلا!

- طفلتي، ماذا جرى لك، يا صغيرتي العزيزة، نيتوتشكا المسكينة؟ ما بك؟

أخذت أصرخ، منتحبة بحرقة، غير قادرة على كبح حزني مدة أطول، وانهرت أمامه جاثية على ركبتي بلا حول ولا قوة:

- أين ماما؟ أين هي ماما؟ قل لي، يا سيدي الطيب، أين هي ماما؟

- عفوا، يا طفلتي!...آه، يا لصغيرتي المسكينة، أيقظت ذكرياتها... ماذا فعلت! تعالي، تعالي معي، يا نيتوتشكا، هيا معي.

أمسكني من يدي وقادني بسرعة. كان مضطربا من أعماق روحه. وصلنا أخيرا إلى حجرة لم أرها قط.

كانت قاعة الإيقونات. كان قد حل الليل. وكانت المصابيح ساطعة الأضواء على الإطارات المذهبة المرصعة بالأحجار الكريمة للإيقونات. ومن خلال رسوماتها اللامعة كانت تلوح كابية اللون وجوه القديسين. هنا، كان كل شيء قليل الشبه بالغرف الأخرى، كل شيء كان غامضا وغامقا جدا بحيث ذهلت وغزا قلبي نوع من الرعب. وإلى جانب ذلك، كنت عرضة للمرض! وسرعان ما جعلني الأمير أجثو على ركبتي أمام إيقونة والدة الإلاه وجثا هو أيضا إلى جانبي ...

قال لي بصوت خافت ومتقطع:

- صلي، يا طفلتي، هيا أدي الصلاة، سنصلي معا!

غير أنني لم أستطع أن أصلي، كنت مضطربة، بل وحتى مرعوبة، تذكرت كلمات أبي، خلال الليلة الأخيرة، أمام جثمان

أمي، فأصبت بأزمة عصبية. ووجدتني طريحة الفراش، وطوال هذه الفترة الثانية من مرضي، أشرفت على الموت، وها هو ذا كيف حدث ذلك:

ذات صباح، رن في أذني اسم كنت أعرفه. سمعت اسم س-تس. نطق به أحد من المنزل عند رأس سريري. ارتجفت، وانثالت الذكريات على خاطري، وبينما كنت أستعيدها، وأفكر، وأتألم، استغرقت خلال ما لا أدري كم من الساعات في هذيان حقيقي. ولم أثب إلى رشدي إلا بعد مدة طويلة، كان الجو حولي قاتما، فقد انطفأ ضوء سراج الليل، والفتاة الشابة التي كانت ساهرة على غرفتي لم تعد هناك.

وعلى حين غرة، سمعت أصداء موسيقى متناهية من بعيد.

في بعض الأحيان كانت هذه الأصوات تخبو تماما، وفي أحيان أخرى كانت ترن متميزة أكثر فأكثر، كما لو كانت تقترب. لم أعد أذكر أي شعور اعتراني، وأية فكرة لمعت فجأة في رأسي المريض. نهضت من سريري؛ ولا أدري من أين أتتني القوة، لكنني ارتديت على عجل فستاني الحدادي، وتلمست طريقي، وغادرت الغرفة. لم أصادف أحدا، لا في الغرفة الثانية، ولا في الغرفة الثالثة. وفي آخر الأمر، انتهيت إلى الممر. كانت الأصوات تغدو دائما متميزة على نحو متزايد. وفي وسط الممر، كان هناك سلم يفضي إلى الأسفل، اتخذت دائما هذا الطريق للنزول إلى القاعات الكبيرة. كانت الأضواء ساطعة على السلم، وفي الأسفل، كانت الحركة دائبة، لبدت في زاوية، حتى لا يراني أحد، وحالما أصبحت اللحظة مواتية، نزلت إلى ممر ثان. كانت الموسيقى هادرة

في قاعة مجاورة، كان فيها كثير من الضجيج، والكلام، حتى ليخيل للمرء كأن آلافا من الأشخاص اجتمعوا هناك.

كان أحد الأبواب، المطلة على القاعة، ابتداء من الممر مباشرة، مغطى بستارة ضخمة مزدوجة من القطيفة الحمراء الوردية اللون. أزحت الستارة الأولى قليلا واتخذت مكاني بين الستارتين. كان قلبي يخفق بعنف، حتى أنني لم أستطع الوقوف على ساقي. ومع ذلك، بعد لحظات، تمالكت نفسي، وتجرأت على رفع الستارة الثانية... يا إلهي! هذه القاعة الضخمة المظلمة التي كنت أخاف من الدخول إليها كانت تسطع الآن بآلاف الأضواء. كان هذا مثل بحر من الضوء الذي يسقط علي، وإذا بعيني المعتادتين على الظلام قد عميتا في اللحظات الأولى إلى حد الشعور بالألم. لفح وجهي هواء عطري مثل ريح ساخنة. كان هناك حشد من الناس الذين يسيرون طولا وعرضا، وهم جميعا، كما كان يبدو، من البهجة التي تعلو وجوههم، سعداء. كانت النساء يرتدين فساتين ثمينة وشفافة، وفي كل مكان، كنت أواجه نظرات كانت تبدو متألقة بالمتعة. كنت كالمسحورة. كان يبدو لي أن كل ذلك قد رأيته بالفعل، لم أعد أذكر أين، ولا أدري متى، في الحلم... إنني أتذكر الظلام، أتذكر علّيتنا، النافذة العالية، الشارع، في الأسفل، بعيدا جدا، مع فوانيس مضيئة، نوافذ المنزل المقابل ذات ستائر حمراء، العربات المحتشدة في المدخل، الخيول الشامخة، التي كانت تجفل وتجلجل حوافرها، الصيحات، الضوضاء، الأشباح التي كانت تلوح من النوافذ، والموسيقى، الخافتة، البعيدة... وإذن، ها هو، ها هو أين كان هذا النعيم! هكذا قلت لنفسي في ومضة. ها هو أين كنت أريد

الذهاب مع أبي المسكين... نعم، كل ذلك، سبق لي أن رأيته بالفعل، في تأملاتي، في أحلامي! اشتعلت في رأسي المخيلة التي أججها المرض، وانبجست الدموع من عيني بنوع من النشوة غير المفهومة.

كنت أبحث عن أبي بعيني، وأقول لنفسي: "يجب أن يكون هنا، إنه هنا" وكان قلبي يخفق لهفة وانتظارا.. وضاق نفسي. ولكن الموسيقى صمتت، وانتشرت ضجة، وسرت تمتمة في أرجاء القاعة. نظرت بلهفة إلى الوجوه المتدفقة أمامي، محاولة أن أعرف وجها منها على الأقل. وفجأة، ثار في القاعة نوع من الهيجان غير العادي. بدا لي على منصة عجوز طويل نحيل. كان وجهه الشاحب باسما، وكان ينحني ويميل راسما زاوية من جميع الجهات، وبين يديه كان كمان. ساد صمت عميق، كما لو أن هؤلاء الناس جميعا حبسوا أنفاسهم. كل الوجوه التفتت نحو العجوز، كل الناس كانوا ينتظرون. تناول كمانه ولمس أوتاره بالقوس. وبدأت الموسيقى وشعرت بأن شيئا كان يعتصر فجأة قلبي.

وبألم لا يطاق، استغرقت، منقطعة الأنفاس، في الإصغاء إلى هذه الأصوات: كان يرن في أذني شيء معروف جدا، كأني سمعته بالفعل، كان هناك نوع من التوقع في هذه التوافقات، توقع شيء فظيع، مريع، كان يعزف في قلبي.

وأخيرا، رن الكمان أيضا بصوت أقوى، كانت الأصوات تدوي بسرعة شديدة، وبحدة أكثر. وهنا كان يسمع مثل عويل يائس، مثل صرخة شكوى، كما لو أن نوعا من الصلاة دون جدوى كان يرن في كل هذا الحشد من الناس، وأخذ يئن ثم خرس، بيأس. ثمة

شيء معروف بشكل متزايد كان يقال في قلبي. ولكن القلب كان يرفض أن يصدقه.

كنت أزم شفتي وأصر بأسناني لكي لا أئن من الألم، وأتمسك بالستارة حتى لا أسقط... كنت أحيانا أغمض عيني وأفتحهما فجأة، متوقعة أن أكون في حلم، وأن أصحو في نوع من اللحظة الرهيبة، التي عرفتها جيدا، وحلمت بتلك الليلة الأخيرة، واستمعت إلى نفس هذه الأصوات بالفعل. كنت أفتح عيني مرة أخرى، كنت أريد أن أكون متيقنة، كنت أمعن النظر في وجوه الحشد، كلا، كانوا جميعا أناسا آخرين، وجوها أخرى... كنت أشعر أنهم جميعا، كانوا مثلي، ينتظرون شيئا، أنهم جميعا، كانوا مثلي، يعانون من قلق عميق، كانوا جميعا، كما يبدو، يريدون أن يصرخوا أمام هذه التأوهات، والصرخات الرهيبة، كي يخرسوها، لتكف عن تمزيق أرواحهم. ولكن هذه الآهات والأنّات كانت تزداد عويلا، وتمتدّ طويلا، وفجأة دوت آخر صرخة، رهيبة، ممتدة إلى ما نهاية، فاضطرب كل شيء في داخلي...لا شك في ذلك! إنها الصرخة نفسها- هذه الصرخة! كنت أعرفها، وقد سمعتها بالفعل، هي الصرخة نفسها التي كانت في ذلك الوقت، وفي تلك الليلة، قد اخترقت روحي. فالتمع في ذهني كالبرق: "أبي! أبي! إنه هنا، هذا هو، إنه يناديني، هذا هو كمانه!" كأن أنينا كان ينطلق من كل هذا الحشد، فتهتز القاعة كلها بالتصفيق الحاد. وانفجر من صدري نحيب يائس، وثاقب. ولم أتمالك نفسي، فأزحت الستارة واندفعت إلى القاعة.

صرخت وقد جنّ عقلي تقريبا:

- بابا! بابا! هذا أنت! أين أنت!

لا أعرف، كيف استطعت الوصول إلى العجوز الطويل: فسح لي الناس طريق المرور، وانشق الحشد أمامي. اندفعت نحوه وأنا أطلق صرخة مؤلمة، كنت أعتقد أنني أعانق أبي...وفجأة، رأيت أنني كنت بين يدين طويلتين ونحيلتين، وأنني كنت مرفوعة في الهواء. كانت ترشقني عينان سوداوان، وكانتا تريدان، كما يبدو، أن تحرقاني بشررهما. نظرت إلى العجوز وقلت لنفسي في لحظة: "لا، ليس أبي، إنه قاتله!" استبدّ بي نوع من الحنق الشديد وبدا لي فجأة أنها ضحكته التي كانت تدوّي فوق رأسي، وأن هذه الضحكة كانت تتردد أصداؤها داخل القاعة في صرخة عامة وشاملة، فأغمي علي.

الفصل الخامس

كانت هذه المرحلة الثانية والأخيرة من مرضي.

حين فتحت عيني مرة أخرى، رأيت وجها طفوليا، منحنيا فوق رأسي، كان وجه بنت صغيرة في مثل سني، وكانت إشارتي الأولى أن مددت يدي إليها. من أول نظرة ألقيتها عليها، طفحت روحي كلها بنوع من السعادة، والإحساس الحلو.

تصوروا وجها صغيرا جميلا بشكل مثالي، جمالا مدهشا، ومتألقا، كذلك الجمال الذي تقف أمامه فجأة جامدا كالمقرور، بارتباك لذيذ، مرتعشا من الإعجاب الشديد، وممتنا لوجود مثل هذا الجمال، و لأن نظرتك وقعت عليه، ولأنه مر بجانبك. كانت ابنة الأمير، كاتيا، التي عادت للتو من موسكو. ردت على حركتي بابتسامة، فأخذت أعصابي الضعيفة تشكو من الافتتان العذب. نادت الأميرة والدها، الذي كان يقف على بعد خطوتين ويتكلم مع الطبيب.

قال الأمير، وهو يمسكني من يدي وأشرق وجهه بعاطفة صادقة:

- آه! حمدا لله! حمدا لله! أنا سعيد، سعيد جدا.

وأضاف، متكلما بسرعة، على عادته:

- وهذه كاتيا، بنيتي: تعارفا، - ها هي صديقة لك. تعافي بسرعة، يا نيتوتشكا. أوه الشريرة، كم أخافتني!

كان شفائي يسير بسرعة. في بضعة أيام، كنت قائمة على قدمي. كل صباح، كانت كاتيا تأتي إلى سريري، دائما باسمة، دائما بهذه الضحكة التي لم تكن تغادر شفتيها. كنت أترقب ظهورها مثل سعادة، كم كنت أود أن أقبلها! ولكن المشاغبة الصغيرة لم تكن تأتي إلا لبضع دقائق، لم تكن تثبت في مكان. أن تتحرك دائما، أن تركض، أن تقفز، أن تثير الصخب، والشغب في جميع أنحاء المنزل، ذلك، كان بالنسبة إليها حاجة ضرورية. لذلك أعلنت لي منذ المرة الأولى، أنها تشعر بالملل الشديد من الجلوس قرب سريري، ولذلك لن تأتي إلا نادرا، وليس إلا رثاء لحالي، وبالتالي، لا مفر من ذلك، لا يمكن لها أن لا تأتي، ولكن عندما أتعافى تماما، سنكون أفضل حالا وفي كل صباح، كانت كلمتها الأولى:

- وإذن، هل شفيت؟

وبما أنني كنت دائما شديدة الهزال والشحوب، وبالكاد تخترق ابتسامة وجهي الحزين، كانت الأميرة تعقد حاجبيها فورا وتهز رأسها وتضرب بقدميها الأرض غيظا.

- ولكنك قلت بالأمس إنك أفضل! ماذا إذن؟ إنهم لا يعطونك طعاما كثيرا، بالتأكيد؟

- لا، قليلا.

هكذا أجبتها بوجل، لأنني كنت أشعر دائما بالخوف أمامها. كنت أريد بكل ما أوتيت من قوة أن أرضيها قدر الإمكان، لذلك كنت خائفة من كل كلمة، ومن كل حركة. كان ظهورها يغمرني دائما بالفرح المتعاظم.

لم تكن تحيد عنها نظراتي، وحين تنصرف، كنت أظل أتطلع، في كثير من الأحيان، إلى المكان الذي كانت توجد فيه. وبدأت أحلم بها. وفي وضح النهار، عندما لا تكون هنا، كنت أختلق معها كل أنواع الأحاديث، كنت صديقتها، كنت ألهو، كنت أقوم بحماقات، كنت أبكي معها حين يؤنبوننا على ما لا أدري- باختصار، كانت تسكن أحلامي كما لو كنت مغرمة.

كانت لدي رغبة شديدة في أن أتعافى وأن أسمن قليلا، على حد نصيحتها.

عندما كانت تهرع إلي كاتيا في الصباح، ومنذ الكلمة الأولى، كانت تصيح: لم تشفي بعد؟ لا تزالين أيضا هزيلة!" وكنت أنا أشعر بالخوف، كالمذنبة.

ولكن لا شيء يمكن أن يكون أخطر من دهشة كاتيا من أنني لا أستطيع أن أشفى في يوم واحد، حتى أنها، أخيرا، بدأت تستشيط غضبا في الواقع.

قالت ذات يوم:

- حسنا، تريدين أن أحمل لك اليوم فطيرة محشوة؟ كلي، ستزيدك هذه سمنة سريعا جدا.

- نعم.

قلت ذلك مبتهجة بأنني سأراها من جديد.

كانت الأميرة الصغيرة، بعد أن تستفسر عن صحتي، تجلس عادة أمامي على مقعد، وتبدأ في التطلع إلي بعينيها السوداوين. في

بادئ الأمر، ومنذ أن تعرفت إلي، لم تكف عن مراقبتي في كل لحظة، من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، باستغراب أشد سذاجة. ولكن حديثنا ظل متكلفا. كنت خائفة من كاتيا ومن نزواتها الفظة المباغتة، بينما كنت أنا أموت رغبة في التحدث إليها.

بدأت كاتيا الكلام، بعد فترة من الصمت:

- لماذا لا تقولين شيئا؟

سألتها، مبتهجة بأن هناك جملة يمكن أن نبدأ الحديث بها في كل مرة:

- ماذا يفعل بابا؟

- لا شيء، بابا، بخير. شربت اليوم فنجانين من الشاي، وليس واحدا فقط. وأنت، كم؟

- فنجانا واحدا فقط.

صمت جديد.

- اليوم، فالستاف أراد أن يَعَضّني.

- إنه الكلب؟

- نعم، إنه الكلب.

- لم تريه قط؟

- بلى، رأيته.

- وإذن لماذا تسألين عنه؟

وبما أنني لم أعرف بماذا أجيب، ألقت علي الأميرة نظرة جديدة مفاجئة.

- وإذن؟ أنت مسرورة عندما أكلمك؟

- نعم، مسرورة جدا، تعالي في كثير من الأوقات.

- هذا ما قيل لي، إنك سوف تكونين مسرورة بأن آتي كثيرا لرؤيتك، لكن، أنت، انهضي في أسرع وقت، أنا، منذ اليوم، سأحمل لك الفطيرة المحشوة...ولكن لماذا لا تقولين شيئا؟

- هكذا.

-تفكرين دائما، أكيد؟

- نعم؛ أفكر كثيرا.

- وأنا، يقال لي إنني أتكلم كثيرا وأفكر قليلا. أهو شيء سيء أن أتكلم؟

- كلا، أنا سعيدة حين تتكلمين.

- حم، سأسأل عن ذلك مدام ليوتار، إنها تعرف كل شيء. وفي ماذا تفكرين؟

أجبت، بعد لحظة صمت:

- أفكر فيك أنت.

- وأنت مسرورة؟

-نعم.

- وإذن، أنت تحبينني؟

- نعم.

- أنا ما زلت لا أحبك. أنت نحيفة جدا! ولكن سأحمل لك الفطيرة. هيا، وداعا!

ولما قبلتني الأميرة، تقريبا في الهواء، اختفت من الغرفة.

ولكن، بعد وجبة غداء، رأيت بالفعل الفطيرة قادمة. أقبلت كاتيا بسرعة كالمجنونة، ضاحكة من الفرح، لأنها حملت مع ذلك هذه الأكلة، التي كانت ممنوعة علي.

- كلي أكثر، كلي جيدا، إنها فطيرتي، أنا آكلها. هيا، وداعا!

- وما كدت أراها حتى اختفت.

مرة أخرى، هرعت فجأة إلي، هنا أيضا، ليس في الساعة المعتادة، بعد الغداء، كانت خصلاتها السوداء شعثاء، كما بريح عاصفة، وكانت وجنتاها مضرجتين كالأرجوان، وعيناها متوهجتين، مما يعني أنها كانت تجري وتقفز منذ ساعة أو ساعتين.

صاحت، لاهثة، على عجل، متعجلة للمغادرة من جديد:

- تعرفين اللعب بالكرة المُريَّشة؟

أجبت: لا، متأسفة بشكل رهيب لأنني لم أستطع قول: نعم!

-أنت إذن! طيب، حين تشفين، سأعلمك. مررت هكذا فقط. في هذه اللحظة، ألعب مع مدام ليوتار. وداعا، ينتظرونني.

وأخيرا، كنت قادرة على النهوض تماما، حتى وإن كنت بعد ضعيفة وعاجزة. كانت فكرتي الأولى ألا أفارق كاتيا. كان هناك شيء يجذب نحو كاتيا بطريقة لا تقاوم.

لا أكاد أحيد عنها بنظراتي، وتبقى كاتيا متفاجئة بذلك. كانت

الجاذبية التي شعرت بها نحو كاتيا قوية جدا، كنت ذاهبة إلى الأمام بهذا الدفء في شعوري الجديد الذي لم يكن ممكنا أن لا تلاحظه، وبدا لها ذلك في بادئ الأمر غرابة لا تصدق. أذكر، ذات يوم، بينما كنا نلعب معا، كان ذلك فوق احتمالي، ارتميت على عنقها، وأخذت أقبلها. تخلصت من عناقي، وأمسكتني من يدي، مقطبة حاجبيها، كأنني أهنتها، وسألتني:

- ماذا جرى لك؟ لماذا تقبلينني؟

اضطربت، كالمذنبة، ارتجفت من سؤالها السريع ولم أتفوه بكلمة، هزت الأميرة كتفيها الصغيرين، في علامة ذهول لا حل له (وهي إشارة أصبحت عندها عادة)، وزمت شفتيها الصغيرتين المكتنزتين، بكثير من الجدية والوقار، وتوقفت عن اللعب، وجلست في زاوية على الأريكة التي ظلت تتطلع إلي منها لمدة طويلة جدا، مفكرة في ما لا أدري، كأنها كانت تحاول أن تحل مسألة جديدة خطرت على بالها بطريقة مفاجئة. تلك أيضا، كانت عادتها في الحالات الصعبة. وأنا كذلك، استغرقت وقتا طويلا لأعتاد على نزوات طبعها الحادة والمفاجئة.

بدأت أتهم نفسي وأقول إن في كثيرا من الأشياء الغريبة حقا، ولكن، حتى وإن كان هذا صحيحا، فإنني مع ذلك كنت أتعذب من الحيرة والذهول: لماذا لم أستطع أن أكسب صداقة كاتيا منذ البداية وأن أعجبها مرة واحدة وإلى الأبد؟ لقد جرحتني إخفاقاتي إلى حد الشعور بالألم، وكدت أن أبكي لأدنى كلمة سريعة توجهها إلي كاتيا ولأية نظرة متحدية. ولكن شقائي كان يتعاظم ليس يوما

بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة، لأن الأمور مع كاتيا كانت تمر دائما بسرعة كبيرة. خلال بضعة أيام، لاحظت أنها لا تحبني بتاتا، بل وبدأت تشمئز مني.

كل شيء في هذه الفتاة الصغيرة كان يجري بسرعة، وبحدة، ويمكن للبعض أن يقول حتى بفظاظة، لو لم يشعر، في هذه الحركات، السريعة كومض البرق، لهذا الطبع الصريح والصادق والساذج، باللطافة الحقيقية الأصيلة والنبيلة.

في البداية، كانت تشعر نحوي بنوع من الشك، ثم حتى بالاحتقار، يبدو، لأنني أولا لم أكن أحسن اللعب بأية لعبة. كانت الأميرة تحبّ أن تتسلى، أن تركض، كانت قوية، نشيطة، وحاذقة، أنا، بالعكس لم تكن الألعاب تسليني، باختصار، كنت قطعا مفتقرة إلى المواهب التي قد تعجب كاتيا. وفضلا عن ذلك، لم أستطع احتمال أن يكون أحد مستاء منّي: إذ كنت أصبح حالا حزينة، ومحبطة، ولا أعود قادرة على أن أصلح خطئي و أن أحول لصالحي الانطباع السيئ عني، باختصار خسرت نفسي تماما. ذلك ما لم تستطع كاتيا أن تفهمه على الإطلاق.

في البداية كانت تتوجّسُ خيفة منّي، فتتفرّسُ في باستغراب، كعادتها، حين تبذل كلّ ما في وسعها لتُريني كيف تُلعب الكرةُ المُريَّشة، دون أن تصل إلى أيّ شيء. وبما أنني كنت أغدو حالا حزينة، وتكاد تنبجسُ الدموعُ من عينيّ، فإنها، بعد أن تُعاين حالي مرتين أو ثلاثا، ودون أن تصل إلى أيّ شيء أيضا، لا معي، ولا مع أفكارها، كانت أخيرا تتخلي عنّي تماما، وتنصرف إلى اللعب

وحدها، ولا تدعوني إطلاقا، ولا تكلمني أياما كاملة. لقد أذهلني ذلك كثيرا إلى حد أنني لم أستطع أن أتحمل ازدراءها. وأصبحت وحدتي الجديدة لا تطاق أكثر من وحدتي الأولى، وغدوت مرة أخرى حزينة، مستغرقة في التفكير، ومن جديد غزت قلبي أفكار سوداء.

وما لبثت مدام ليوتار، التي كانت مشرفة علينا، أن لاحظت هذا التغير في علاقاتنا. وبما أنني، أولا وقبل كل شيء، تركت لديها انطباعا قويا جدا وأقلقتها بوحدتي التي أكرهت عليها، فقد توجهت مباشرة إلى الأميرة، باللوم على سوء تصرفها معي. قطبت الأميرة حاجبيها، وهزت كتفيها، وذكرت أنها لا شأن لها بي، وأنني لا أحسن اللعب، وأنني مستغرقة في التفكير باستمرار، وأنها تفضل انتظار أخيها ساشا الذي سيعود قريبا من موسكو، وعندئذ سوف يستمتعان معا أكثر بكثير.

ولكن مدام ليوتار لم ترتح لهذا الجواب ولاحظت عليها أنها تركتني وحيدة بينما كنت لا أزال مريضة ولا أستطيع أن أكون مثل كاتيا مرحة وحيوية، وكان عليها، من الأفضل، فضلا عن ذلك، لأن كاتيا كانت كثيرة النشاط، أن تفعل هذا وذاك، وأنها، قبل يومين، كانت على وشك أن يعضها "البولدوغْ"، باختصار، ألقت عليها لوما شديدا، وفي آخر الأمر، أرسلتها إلي، وأمرتها بأن تتصالح معي على الفور.

استمعت كاتيا لمدام ليوتار بكثير من الاهتمام، كما لو أنها، حقا، فهمت شيئا جديدا وصائبا في حججها. وبعد أن تركت

الدولاب الذي كانت تديره حولها في القاعة، اقتربت مني، وألقت علي نظرة جدية وسألتني بشكل مفاجئ:

- لأنك تريدين أن تلعبي؟

- أجبت: لا، وقد استولى علي الخوف من أجلي ومن أجلها عندما عاتبتها مدام ليوتار.

- وإذن، ماذا تريدين؟

- سأبقى هنا، من الصعب علي أن أركض، ولكن، لا تغضبي مني، يا كاتيا، لأني أحبك كثيرا.

أجابت كاتيا بصوت بطيء، وهادئ، كما لو أنها لاحظت بدهشة أنها ليست مذنبة:

- طيب، وإذن، سألعب وحدي. حسنا، وداعا، أنا لن ألومك.

أجبت، وأنا أنهض من مقعدي وأمد إليها يدي:

- وداعا.

سألت بعد لحظة تفكير، متذكرة دون شك المشهد الذي حدث لنا في الآونة الأخيرة، ومتمنية لي أكبر متعة ممكنة، للتخلص مني بأسرع وقت وبودية أكثر:

- ربما، تريدين تقبيلي؟

أجبت، بأمل خجول:

- كما تشائين.

اقتربت مني، وبكل جدية، ودون ابتسامة، منحتني قبلة، وبعد

إنهاء كل ما كان مطلوبا منها وحتى أكثر مما ينبغي، لإرضاء الفتاة الصغيرة المسكينة التي أرسلت إليها، تركتني وركضت، فرحة ومرحة جدا، وسرعان ما تناهت من جميع الحجرات، ضحكاتها وصرخاتها، إلى أن أنهكت، ولم تكد تلتقط أنفاسها، حتى ألقت بنفسها على الأريكة كي تستريح وتستعيد قوى جديدة.

وطوال المساء ظلت تتطلع إلي بارتياب، لاشك أنني بدوت لها شاذة وغريبة الأطوار جدا.

كان واضحا أن هناك شيئا كانت تريد أن تقوله لي، لكي تشرح لنفسها نوعا من سوء الفهم الذي نشأ عني، ولكن، في هذه المرة، لا أدري لماذا، تمالكت نفسها.

على العموم، في الصباح، كانت تبدأ دروس كاتيا. كانت مدام ليوتار تعلمها الفرنسية.

كل تعليمها كان منحصرا في حفظ النحو وقراءة لافونتين.

لم يعلموها أشياء كثيرة، لأنهم وجدوا صعوبة كبيرة في أن يجعلوها تقبل البقاء ساعتين في اليوم أمام كتاب.

هذا الالتزام، قبلته أخيرا بطلب من أبيها وبأمر من أمها، واحترمته بوعي كبير، لأنها قطعت على نفسها عهدا.

كانت لها قدرات نادرة: كانت تستوعب بسرعة وبشكل جيد. ولكن، هنا أيضا، لم يكن الأمر يخلو من بعض الغرائب الصغرى: إذا استعصى عليها فهم شيء، كانت على الفور تبدأ بالتفكير فيه وحدها، ولا تحتمل أن تذهب للبحث عن شروح، كأنها كانت تخجل من ذلك.

كان يحكى أنها كانت تتصارع في بعض الأحيان لأيام كاملة مع هذه أو تلك من المسائل التي لم تقدر على حلها، وتستشيط غضبا إذا لم تفهمها وحدها، بدون مساعدة الآخرين، وليس إلا كملاذ أخير، عندما تكون منهكة تماما، فإنها تمضي إلى مدام ليوتار لتطلب منها المساعدة على حل المسألة الصعبة عليها.

كانت تفعل الشيء ذاته في كل تصرفاتها. كانت تفكر بالفعل كثيرا، حتى وإن لم يظهر لها ذلك هكذا على الإطلاق منذ الوهلة الأولى. ولكنها، في الوقت نفسه، كانت في غاية السذاجة بالنسبة لسنها: كان يحدث لها أحيانا أن تسأل عن أشياء سخيفة، وفي مرات أخرى، كانت أجوبتها تنم عن الدهاء والمكر.

عندما صرت أخيرا قادرة على أن أتعلم، اختبرت مدام ليوتار معارفي، ولما اكتشفت أنني أقرأ جيدا، ولكنني أكتب بشكل رديء جدا، رأت أن علي فورا أن أتعلم اللغة الفرنسية.

لم أعترض، وذات صباح، وجدنا نفسينا معا، كاتيا وأنا، حول نفس طاولة الدراسة. وحدث، في هذه المرة، أن كاتيا بدت، كما لو تعمدت ذلك، منطوية على نفسها وشاردة الذهن كثيرا، إلى حد أن مدام ليوتار ما عادت تعرفها. أنا، تقريبا في حصة واحدة، كنت أعرف بالفعل كل الأبجدية الفرنسية، محاولة إرضاء مدام ليوتار بكل ما أوتيت من اجتهاد. وفي آخر الدرس، اغتاظت مدام ليوتار حقا من كاتيا.

قالت وهي تشير إلي:

- انظري إليها، طفلة مريضة، تدرس لأول مرة، وفعلت ذلك عشر مرات أكثر منك. ألا تخجلين من ذلك؟

سألت كاتيا مذهولة:

- هي تعرف ذلك أكثر مني؟ ولكنها لا تزال في الأبجدية!

- وأنت، كم قضيت من الوقت في حفظ الأبجدية؟

- في ثلاثة دروس.

- وهي، في درس واحد. وإذن، هي تفهم أكثر منك بثلاث مرات، وسوف تتجاوزك في لمح البصر، أليس هكذا؟

فكرت كاتيا قليلا، واحمرت فجأة كلهيب نار، لأنها أدركت أن ملحوظة مدام ليوتار كانت صائبة. أن تحمر، أن تلتهب، من الخجل- كان ذلك أولى حركاتها في كل فشل، غيظا كان أم فخرا، عندما كانت تؤنب على القيام بحماقات - باختصار، في جميع الحالات تقريبا. في هذه المرة، كانت الدموع هي التي انفجرت من عينيها، ولكنها صمتت واكتفت بالنظر إلي كما لو كانت تريد أن تحرقني بنظرتها. وعلى الفور فهمت أنا المقصود بالأمر. كانت الصغيرة المسكينة مزهوة ومغترة بنفسها إلى أقصى حد. حين تركنا مدام ليوتار، أردت أن أكلمها لأذهب غيظها في أسرع وقت وأظهر لها أنني لم أكن مسؤولة عن كلمات الفرنسية، لكن كاتيا لم تقل شيئا، كأنها لم تسمعني.

بعد ساعة، دخلت إلى الغرفة التي كنت جالسة فيها وأنا أقرأ كتابا، وأفكر دائما في كاتيا، مضطربة ومرتعبة من أن ترفض الكلام معي. تطلعت إلي مقطبة، وجلست، كعادتها، على الأريكة، وخلال نصف ساعة لم تخفض عينيها عني. وأخيرا، لم أتمالك نفسي، وألقيت عليها نظرة استفهام.

سألتْ كاتيا:

- هل تعرفين الرقص؟

- لا، لا أعرف.

- وأنا، أعرف.

وبعد لحظة صمت سألت مرة أخرى:

- وهل تعرفين العزف على البيانو؟

- ولا هذا.

-وأنا، أعزف عليه. هذا من الصعب جدا تعلمه.

لزمت الصمت.

- مدام ليوتار قالت إنك أذكى مني.

أجبت:

- مدام ليوتار اغتاظت منك.

- وبابا أيضا، سيغتاظ مني؟

أجبت:

- لا أدري.

ران صمت جديد، وضربت الأميرة الأرضية الخشبية بقدمها الصغيرة نافدة الصبر.

وسألت أخيرا، غير قادرة على كبح غيظها:

- وإذن، سوف تتهكمين علي لأنك تفهمين أحسن مني؟

صحت وألقيت بنفسي بين ذراعيها:

- آه، كلا، كلا.

وفجأة رن صوت مدام ليوتار، التي كانت، منذ خمس دقائق، تراقبنا وتصغي لحوارنا:

- وألا تخجلين من أن تفكري في ذلك، وأن تسألي عنه، يا أميرة؟ يا للعار! أنت غيورة من طفلة مسكينة وتتباهين أمامها بمعرفتك الرقص والعزف على البيانو. هذا مخجل، سأقول كل شيء للأمير.

التهبت وجنتا الأميرة باحمرار النار.

- هذا شعور سيء. لقد أهنتها بأسئلتك. كان والداها فقيرين، ولم يستطيعا أن يستأجرا لها معلما، فعلمت نفسها، لأنها طيبة القلب. كان عليك أن تحبيها، وأنت تريدين أن تخاصميها. عليك أن تستحي! عليك أن تخجلي! إنها صغيرة يتيمة. ليس لها أحد. لم يبق لك إلا أن تفتخري أمامها بأنك أنت أميرة، وهي لا سأترككما معا. فكري في كل ما قلت لك، صححي غلطتك.

فكرت الأميرة يومين كاملين! وخلال يومين لم نسمع لا ضحكتها ولا صرخاتها. حين صحوت في عز الليل، سمعت أنها كانت، حتي في أحلامها، تواصل التفكير في مدام ليوتار. وقد أصبح جسمها نحيلا قليلا خلال هذين اليومين، وشحب وجهها الوضيء. وأخيرا، في اليوم الثالث، التقينا من جديد في الأسفل، داخل القاعات الكبيرة. كانت الأميرة عائدة من عند أمها، ولكن، لما لمحتني، توقفت وجلست جانبا، قريبا. وأنا، كنت مرتاعة، أتوقع ما سوف يكون، وأرتعش بكامل أعضائي.

وسألتْ أخيرا:

- نيتوتشكا، لماذا وُبخت بسببك؟

أجبت، مسارعة إلى تبرئة نفسي:

- ليس بسببي، يا كاتينكا.

- ولكن مدام ليوتار قالت إني أهنتك.

- لا، يا كاتينكا، كلا، لم تهينيني.

هزت الأميرة كتفيها دلالة على الذهول.

سألتْ بعد لحظة صمت:

- وإذن، لماذا تبكين دائما؟

أجبت من خلال دموعي:

- لن أبكي، إذا شئت.

هزت كتفيها من جديد.

- من قبل أيضا، كنت تبكين في أي وقت.

لم أجب.

سألت الأميرة فجأة بعد لحظة من الصمت:

- لماذا تعيشين عندنا؟

ألقيت عليها نظرة ذهول وكأن شيئا كان يخترق قلبي.

وأجبت أخيرا مستعيدة شجاعتي:

- لأنني يتيمة.

-كان لك أب وأم؟

- نعم.

- وماذا، ألم يكونا يحبانك؟

أجبت على مضض مضطرة قسرا:

- لا كانا يحبانني.

- كانا فقيرين؟

- نعم.

- لم يعلماك شيئا؟

- علماني القراءة.

- كانت لديك لعب؟

- لا.

- كانت لديك حلوى؟

- لا

- كم كانت عندكم من غرف؟

- غرفة واحدة.

- غرفة واحدة؟

- واحدة.

وكان لديكم خدم؟

- لا، لم يكن لنا خدم.

- ومن كان إذن يخدمكم؟

- كنت أذهب للتبضع وحدي.

كانت أسئلة الأميرة تمزق قلبي أكثر فأكثر. الذكريات، ووحدتي، ودهشة الأميرة- كل ذلك كان يثيرني، ويجرح قلبي الذي كان يقطر دما. كنت أرتجف بكامل جسمي وكانت الدموع تخنقني.

- وإذن، أنت سعيدة بالعيش عندنا؟

لزمت الصمت.

- كان لديك فستان جميل؟

- لا

- رديء؟

- نعم.

- رأيته، فستانك، عرضوه علي.

سألت، وأخذ جسمي كله يرتعش بنوع جديد من الشعور لم أعرفه حتى الآن، ونهضت من مكاني:

- لماذا تطرحين علي هذه الأسئلة؟

وتابعت، محمرة من الاستياء:

- لماذا تطرحين علي هذه الأسئلة؟ لماذا تسخرين مني؟

احمرت الأميرة بدورها، ونهضت أيضا، ولكنها كبحت انفعالها في لحظة.

أجابت:

- لا، لا أسخر منك. كنت أريد فقط أن أعرف هل صحيح، أن أمك وأباك كانا فقيرين.

قلت، وأخذت أبكي، ممزقة القلب:

- لماذا تطرحين علي أسئلة عن أبي وأمي؟ لماذا تطرحين علي أسئلة عنهما؟ ماذا فعلا لك، يا كاتيا؟

بقيت كاتيا مضطربة، ولم تعرف بماذا تجيب.

وفي هذه اللحظة، دخل الأمير.

سأل، بعدما رآني ورأى دموعي:

- ماذا حدث لك، يا نيتوتشكا؟ ما لك؟

وتابع بعد أن تطلع نحو كاتيا التي كانت محمرة كجمرة:

- عن ماذا كنتما تتحدثان؟ لماذا تخاصمتما؟ نيتوتشكا، لماذا تشاجرتما؟

ولكنني لم أستطع أن أجيب. أمسكت بيد الأمير وقبلتها دامعة العينين.

- كاتيا، لا تكذبي. ماذا جرى هنا؟

لم تكن كاتيا تعرف الكذب.

- قلت إنني رأيت الفستان الرديء الذي كان لديها حين كانت لا تزال تعيش مع أبيها وأمها.

- من أظهره لك؟ من تجرأ على أن يظهره لك؟

أجابت كاتيا بلهجة قاطعة:

- رأيته وحدي.

- طيب، حسنا! لن تشي بالآخرين، أنا أعرفك. وماذا أيضا؟

- وإذن، أخذت تبكي وقالت: لماذا أسخر من أبيها وأمها؟

- إذن، سخرت منهما؟

وحتى لو أن كاتيا لم تكن تسخر، فقد كانت لديها هذه النية، فهمتها على الفور. لم تتفوه بكلمة، وإذن، هي أيضا، كانت تقر بذنبها.

قال الأمير، مشيرا إلي:

- اذهبي حالا إليها واطلبي الصفح منها.

ظلت الأميرة ممتقعة شاحبة مثل منديل، جامدة في مكانها.

قال الأمير:

- وإذن؟

ولم تلبث كاتيا أن قالت، بصوت منخفض، ولهجة أكثر حزما:

- لا أريد.

- كاتيا!

صاحت فجأة، بارقة النظرات وهي تضرب بقدميها الأرض:

- لا، لا أريد، لا أريد! لا أريد أن أطلب العفو، بابا. لا أحبها. لا أريد أن أعيش معها... ليس ذنبي إذا كانت تبكي طوال النهار. لا أريد، لا أريد!

قال الأمير، وهو يمسكها من يدها، وقادها نحو مكتبه:

- تعالي معي. نيتوتشكا، اصعدي إلى غرفتك.

كنت أود أن أندفع نحو الأمير، كنت أريد أن أطلب منه العفو على كاتيا، ولكن الأمير كرر أمره بصوت صارم، وأنا، كان علي الصعود، جامدة من الخوف، كالميتة. ولما عدت إلى غرفتنا، انهرت على الأريكة، وأخفيت وجهي بين يدي. كنت أعد الدقائق، أنتظر كاتيا بنفاد صبر، كنت أود أن أركع عند قدميها. وأخيرا عادت، ودون أن تقول لي كلمة، مرت من أمامي، وجلست في زاوية. كانت عيناها حمراوين، ووجنتاها منتفختين من الدموع. كل عزيمتي اختفت. كنت أنظر إليها، خائفة، ومن شدة الخوف ، لم أجرؤ على الحركة.

كنت أتهم نفسي بكل قوتي، كنت أحاول أن أثبت لنفسي بكل ما أوتيت من قوة أنني كنت المذنبة في كل شيء. ألف مرة، كنت أريد أن أتقدم نحو كاتيا، وأحجم ألف مرة، وأنا لا أعرف كيف ستستقبلني. على هذا النحو مضى يوم، وتلاه يوم آخر.

في مساء اليوم التالي، أصبحت كاتيا أكثر مرحا وأخذت تدوّر دولابها عبر الغرف، لكنها لم تلبث أن تركت لعبتها وجلست مرة أخرى، وحدها، في زاوية. قبل النوم، التفتت فجأة نحوي، بل خطت خطوتين نحوي وفتحت شفتيها الصغيرتين لتقول لي شيئا، ولكنها توقفت، وتراجعت وذهبت لتنام.

مر يوم آخر بعد هذا اليوم، وفوجئت مدام ليوتار وبدأت أخيرا تسأل كاتيا: ماذا جرى لها؟ ألم تكن مريضة، فأصبحت فجأة

هادئة؟ كانت كاتيا تجيب بما لا أدري، أرادت أن تلعب الكرة المُرَيَّشة لكن، ما إن تولي مدام ليوتار حتى كانت كاتيا تحمر وتنفجر بالبكاء.

هرعت خارج الغرفة حتى لا أراها. وحُلّ كل شيء أخيرا: بعد ثلاثة أيام بالضبط من خصامنا، فجأة، عقب الغداء، دخلت إلى غرفتي واقتربت مني بخجل، وقالت:

- أمرني بابا بأن أطلب منك الصفح، فهل ستصفحين عني؟

أمسكت كاتيا من كلتا يديها وقلت مختنقة من التأثر:

- نعم! نعم!

- بابا أمرني بأن أقبّلك، فهل تريدين أن تقبّليني؟

وردا عليها، أخذت أقبّل يديها، وأغسلهما بدموعي. ولما ألقيت نظرة نحو كاتيا، رأيت فيها نوعا من الحركة الرائعة. كانت شفتاها تتلامسان لمسة خفيفة، وكان ذقنها مرتعشا، وكانت عيناها مبتلتين بالدمع، ولكنها، في لحظة، سيطرت على انفعالها، وفي ومضة، ارتسمت على وجهها ابتسامة.

قالت بصوت منخفض، كأنها كانت تفكر وحدها:

- سأمضي لأخبر بابا أنني قبلتك وأنني طلبت منك الصفح.

وأضافت بعد لحظة من الصمت:

- لم أره منذ ثلاثة أيام، لأنه منع علي الخروج لرؤيته من قبل.

وما إن نطقت بهذه الكلمات، حتى هبطت مشغولة البال وخجولة كما لو أنها لم تكن متأكدة بعد من استقبال أبيها.

ومع ذلك، بعد ساعة، سمعت أصوات صياح، وضجيج، وضحك، ونباح فالستاف، انقلب شيء وانكسر، بضعة كتب طارت فوق الأرض، وأخذ الدولاب يدوي ويقفز عبر كل الحجرات، باختصار، عرفت أن كاتيا تصالحت مع أبيها وأخذ قلبي يرتعش من الفرح.

ولكنها لم تأت لرؤيتي وكان واضحا أنها كانت تتحاشى الكلام معي. وفي المقابل، كان لي شرف أن أثير فضولها إلى أعلى درجة. كانت تجلس أمامي، لتراقبني كما يحلو لها، وفي كثير من الأحيان. كانت مراقباتها تصبح ساذجة أكثر فأكثر، باختصار، فإن الفتاة الصغيرة المدللة كثيرا، طاغية الأسرة التي كان يفسدها ويدللها كل من في المنزل مثل كنز، لم تستطع أن تفهم كيف كانت تصادفني في طريقها مرارا، عندما لم تكن تريد أن تلتقيني على الإطلاق.

إن والدها، الذي كانت تحبه كثيرا، هو من كان له التأثير الأكبر فيها. وكانت أمها تحبها إلى حد الجنون ولكنها كانت تظهر معها شدة رهيبة، ومنها استمدت كاتيا عنادها، وكبرياءها وصرامة طبعها ولكنها كانت تتحمل كل أهواء والدتها، وهي أهواء كانت تصل حتى إلى طغيان أخلاقي. كانت للأميرة مثل فكرة غريبة عما كان يمكن أن تكون عليه التربية، وتربية كاتيا كانت تناقضا غريبا من دلال دون فرامل مع صرامة لا رحمة فيها.

ما كان مباحا بالأمس، يرى فجأة، ودون أدنى سبب، محظورا في اليوم التالي، والشعور بالعدالة كان يعاني في نفس الطفلة... غير أن هذه القصة لم تأت بعد. سألاحظ فقط أن الطفلة كانت تستطيع

بالفعل أن تحدد علاقاتها نحو أمها وأبيها. ومع هذا الأخير، كانت كما هي، واضحة، صريحة، صادقة تماما.

ومع أمها، بالعكس، كانت كتومة، حذرة، وذات طاعة كاملة.

ولكن هذه الطاعة ليست ناجمة عن صدق واقتناع، بل من نظام إلزامي. سأشرح ذلك فيما بعد. ورغم ذلك، إكراما خاصة لعزيزتي كاتيا، سأقول إنها ما لبثت أن فهمت أمها وعندما خضعت لها، كان ذلك بعدما قدرت تماما هذا الحب اللانهائي الذي كانت تحمله لها، الحب الذي وصل في بعض الأحيان إلى حالة من الانجذاب المرضي- فأخذت الأميرة الصغيرة هذا الظرف الأخير بعين الاعتبار وبكل سخاء. ولكن هيهات! هذا التقدير لم يساعد فيما بعد إلا قليلا رأسها الصغير المتهور!

ولكن أنا، لم أكن أفهم تقريبا أي شيء مما كان يحدث لي. كل شيء في داخلي كان يضطرب بنوع من الشعور الجديد، المتعذر شرحه، ولن أبالغ إن قلت إنني كنت أتعذب، كنت أتمزق بهذا الشعور الجديد.

باختصار- وليغتفر لي قولي- كنت مغرمة ولهى بكاتيا. نعم، كان حبا، حبا حقيقيا، حبا مع دموع وأفراح، حبا مشبوبا.

ما الذي أثارني إذن فيها؟ لماذا ولد مثل هذا الحب؟ هذا الحب كان قد بدأ من نظرتي الأولى، حينما ذهلت كل مشاعري ذهولا عذبا بمرأى طفلة جميلة كملاك.

كل شيء كان رائعا فيها، وأي عيب من عيوبها لم يولد معها في نفس الوقت، كل شيء كان ملقحا وكل شيء كان يوجد في حالة صراع.

كنا نرى في كل مكان أصلا رائعا، كان يتخذ لفترة من الزمن شكلا كاذبا، ولكن كل شيء فيه، بدءا من هذا الصراع، كان ساطعا بأمل سعيد، كل شيء كان مبشرا بمستقبل مشرق.

أحبها الجميع، افتتن بها الجميع، وليس أنا فقط.

حين كنا، في بعض الأحيان، حوالي الساعة الثالثة، نخرج للنزهة، كان العابرون يتوقفون كالمذهولين لما كانوا يلقون عليها نظرة، وكثيرا ما كانت تتناهى صيحات من الذهول في أعقاب هذه الطفلة السعيدة.

كانت قد ولدت من أجل السعادة، كان يجب أن تولد من أجل السعادة، ذلك هو الانطباع الأول عند الالتقاء بها.

ربما، كان الحس الجمالي، الشعور الرفيع، هو الذي ذهل في داخلي أول مرة، هو الذي تكلم أولا، وصحا بالجمال، وذلك هو السبب في نشوء حبي.

إن عيب الأميرة الأساسي، أو بالأحرى، المبدأ الرئيسي في طبعها، الذي كان، متعذرا كبحه، يحاول أن يتجسد في شكلها الطبيعي، وكان يوجد، بالطبع، منحرفا، في حالة صراع، إنما هو الشعور بالكبرياء.

هذه الكبرياء كانت تظهر حتى في أبسط التفاصيل الصغيرة، وتبدو مثل غرور، إلى حد أن أي تناقض، على سبيل المثال، كيفما كان، لم يكن يضيرها، أو يغضبها، ولكنه كان يدهشها فقط. لم تستطع أن تتصور أن الأشياء يمكن أن تجري بخلاف ما تريد.

ولكن الشعور بالعدالة كان ينتصر دائما في قلبها.

بمجرد ما كانت تقتنع أنها ليست على صواب، كانت ترضى فورا بالحكم عليها بدون احتجاج ولا تردد.

وإذا لم تكن حتى الآن وفية لنفسها في علاقاتها معي، فإنني أفسر ذلك بنفور غير مفهوم كان يجب أن تشعر به نحوي، نفور عكر لفترة صلابة وانسجام كيانها كله، وما كان بإمكانها غير ذلك، كانت تتبع أهواءها بشغف كبير، وليس إلا المثال والتجربة وحدهما كانا قادرين على إعادتها إلى الطريق السليم. كانت نتائج مبادراتها رائعة وحقيقية، ولكنها كانت تحدث بعد انحرافات وأخطاء مستمرة.

وسرعان ما أشبعت كاتيا مراقباتها لي فقررت أخيرا أن تدعني وشأني. كانت تتصرف كما لو أنني لست في المنزل، لا توجه لي كلمة غير مجدية، حتى وإن كانت ضرورية تقريبا، كنت مبعدة من ألعابها، ولم أقص عنها عنوة، بل ببراعة كما لو كان ذلك من تلقاء نفسي.

كانت الدروس تواصل إيقاعها، وإذا كان يضرب بي المثل في القدرة على الفهم ورقة الطبع، فلم يعد يشرفني أن أجرح كبرياءها، الحساسة إلى أقصى حد، حتى أن عزة نفسها كان يمكن أن تجرح من قبل كلبنا البولدوغ، السير جون فالستاف. كان فالستاف متبلد الحس، بارد الدم، لكنه شرس كنمر حين كان يثار، شرير إلى حد رفض سلطة سيده.

سمة أخرى : لم يكن يحب أحدا على الإطلاق، إلا أن عدوه الأقوى والطبيعي جدا كانت بلا جدال هي الأميرة العجوز... ولكن هذه القصة لم يحن وقتها بعد.

كانت كاتيا، الرقيقة الحس، تحاول بكل الوسائل التغلب على عداء فالستاف، لم يكن يعجبها أن يكون هناك ولو حيوان واحد في المنزل، والوحيد الذي لا يعترف بسلطتها، وقوتها، ولا ينحني أمامها، ولا يحبها. فقررت الأميرة بالتالي الهجوم على فالستاف. كانت تريد أن تتحكم في الجميع وأن تسيطر على الجميع، فكيف استطاع فالستاف أن يفلت منها؟ ولكن البولدوغ العنيد لم يستسلم.

ذات يوم، بعد الغداء، كنا نحن الاثنتين في الأسفل، داخل قاعة كبرى، كان البولدوغ يقعي وسط الغرفة، مستمتعا في استرخاء براحة قيلولته.

وفي هذه اللحظة بالذات عنّ لكاتيا أن تخضعه لسلطتها. تركت لعبتها إذن، وأخذت تمشي على أصابع قدميها، وتداعب فالستاف وتلاطفه وتناديه بأعذب الأسماء وتدعوه وتستدرجه بإشارات ناعمة من يدها، وهي تقترب منه بحذر شديد.

ولكن فالستاف، من مسافة بعيدة، كشر عن أنيابه الرهيبة، فتوقفت كاتيا. كل ما كانت تريد أن تقترب من فالستاف وأن تداعبه، الأمر الذي لم يكن يسمح به لأي شخص سوى الأميرة، التي كانت المرشحة الأوفر حظا، وأن تجبره على اتباعها، وهو عمل بطولي صعب، محفوف بخطر جدي، لأن فالستاف ما كان ليتردد في عض يدها أو تمزيقها إذا رأى ذلك ضروريا. كان قويا كدب، وأنا، كنت أتابع، من بعيد، بقلق، وخوف، مناورات كاتيا. ولكن لم يكن سهلا إقناعها بتغيير رأيها منذ الوهلة الأولى، وحتى أنياب فالستاف، التي أظهرها لها بأقل احترام ممكن، لم تكن كافية لإقناعها بالعدول عن رأيها على الإطلاق.

ولما اقتنعت كاتيا بعدم إمكانية الاقتراب منه لأول وهلة، أخذت تدور حول عدوها مذهولة. لم يحرك ساكنا فالستاف. وقامت كاتيا بدورة ثانية أضيق بكثير، ثم دارت دورة ثالثة، ولكن عندما وصلت إلى مكان كان فالستاف يعتبره بمثابة الحد الأقصى الذي لا يجوز تجاوزه، كشر عن أنيابه لها مرة أخرى. ضربت كاتيا بقدمها الأرض، وابتعدت، مغتاظة، وجلست على الأريكة، مستغرقة في التفكير.

بعد عشر دقائق، ابتكرت محاولة جديدة، خرجت وعادت على الفور، حاملة مؤونة من بسكويت وكعك، باختصار، كانت قد غيرت الأسلحة.

ولكن فالستاف حافظ على برودة دمه، لأنه بدون شك أكل كثيرا بالفعل. لم يمنح قطعة الكعك التي ألقيت إليه حتى نظرة، وحالما وصلت الأميرة الصغيرة مرة أخرى إلى الدائرة المحظورة التي كان فالستاف يعتبرها حدوده، وجدت نفسها أمام معارضة أقوى من السابقة.

رفع فالستاف رأسه، أظهر أنيابه، زمجر قليلا، وقام بحركة طفيفة، كأنه كان يستعد للوثوب. فاحمرت الأميرة غيظا، رمت الكعك وجلست في مكانها من جديد.

بقيت في حالة اضطراب كامل. كانت قدمها الصغرى تربت على السجادة، ووجنتاها ملتهبتين، ودموع الغيظ تظهر فوق عينيها. حدث أن ألقت علي نظرة- فتصاعد كل دمها إلى محياها. وقفزت من مكانها بحزم، وبخطة ثابتة، توجهت مباشرة نحو الكلب الرهيب.

ربما كان تأثير الذهول قويا جدا في فالستاف. فقد ترك العدو يجتاز حدوده، وعلى بعد خطوتين استقبل الصغيرة المتهورة بزمجرة منذرة حقا.

توقفت كاتيا لحظة، ولكنها ما لبثت أن تقدمت بحزم إلى الأمام. كنت مذهولة من الرعب. كانت الأميرة الصغيرة جريئة كما لم أرها حتى الآن: كانت عيناها لامعتين ببريق النصر، والظفر. كان من الممكن أن يرسم ذلك لوحة رائعة.

تحملت بشجاعة النظرة المفزعة للبولدوغ المتميز غيظا ولم تتراجع خوفا أمام شدقه الرهيب. وهنا، انتصب. أطلق من صدره المشعر نوعا من الهدير المخيف، دقيقة أخرى وكان من الممكن أن يمزقها. ولكن كاتيا وضعت بفخر يدها الصغيرة فوق ظهره، وربتت عليه، ثلاث مرات متتابعة، بهيئة مظفرة. ظل البولدوغ مترددا لحظة، كانت هذه اللحظة هي الأكثر رعبا، ولكنه، فجأة، نهض من مكانه بتثاقل، وانسحب، آخذا في الاعتبار دون شك أنه لا داعي للتعامل مع أطفال، وخرج من الغرفة بكل هدوء.

وقفت كاتيا، الظافرة، في المكان الذي غزته، وألقت علي نظرة يتعذر تفسيرها، نظرة مشبعة، ورمادية بالنصر.

ومع ذلك، كان شحوب قاتل يغطي وجنتيها بالفعل.

كانت بالكاد قادرة على الوصول إلى الأريكة التي انهارت فوقها مغمى عليها تقريبا.

ولكن الانجذاب الذي شعرت به نحوها كان بلا حدود.

منذ اليوم الذي عانيت فيه من الخوف عليها، لم أعد قادرة

على التحكم في نفسي. ضجرت من القلق، كنت ألف مرة مستعدة لأن أرتمي على عنقها، ولكن الخوف كان يجمدني في مكاني.

أتذكر أنني كنت أحاول الهروب منها، لكي لا ترى انفعالي، ولكن عندما كانت تدخل فجأة إلى الغرفة التي كنت ألوذ بها، كنت أرتعش ويخفق قلبي بعنف وأصاب بالدوار.

أظن أن العفريتة الوقحة أدركت ذلك وأنها هي أيضا وجدت نفسها خلال يومين في حالة اضطراب. ومع ذلك، اعتادت بسرعة كبيرة على هذا النظام من الأشياء.

هكذا مضى شهر كامل، عانيت خلاله في الخفاء.

إن لمشاعري، إذا جاز لي القول، مرونة لا يمكن تفسيرها، فلدي طبيعة صبورة، إلى أعلى درجة، بحيث إن الانفجار، الذي هو المظهر العفوي للمشاعر، لا يحدث إلا في الحد الأقصى. يجب أن نعرف أننا، كاتيا وأنا، خلال هذه الفترة كلها لم نتبادل خمس كلمات، ولكنني لاحظت، رويدا رويدا، من علامات طفيفة، أن كل ذلك كان يجري معها، ليس لأنها نسيتني، أو أنني كنت غير مبالية بها، وإنما نتيجة نوع من الانحراف المقصود، كما لو أنها وعدت بأن تضع لي حدودا واضحة جدا. ولكنني أنا لم أعد أستطيع النوم ليلا وفي النهار لم أعد أستطيع إخفاء اضطرابي، حتى أمام مدام ليوتار.

وصل حبي لكاتيا حتى إلى ارتكاب حماقات. مرة، أخذت منها خفية منديلها، ومرة أخرى، الشريط الذي كانت تضفره في شعرها، وليالي كاملة، غمرتها بقبلاتي وغسلتهما بدموعي.

في البداية، كانت لامبالاة كاتيا تعذبني إلى حد إهانتي، ولكن في هذه اللحظة، كان كل شيء في داخلي مضطربا، ولم أعد أستطيع أنا نفسي أن أفهم مشاعري.

وهكذا، كانت إحساسات جديدة تطرد شيئا فشيئا الإحساسات القديمة، وفقدت ذكريات ماضي الحزين قوتها الأليمة، متحولة في داخلي إلى حياة جديدة.

أذكر، كنت أستيقظ في بعض الأحيان ليلا، وأنهض من سريري، وأمشي على رؤوس أصابع قدمي وأقترب من الأميرة الصغيرة.

كنت أقضي الساعات في تأمل نوم كاتيا على الضوء الخافت لسراجنا الليلي، وأحيانا، أجلس على حافة سريرها، وأتطلع نحو وجهها ويداعبني نفسها الدافئ. وبكل هدوء، مرتعشة خوفا، أقبل يديها، كتفيها، شعرها، قدمها، إذا خرجت قدمها من تحت الغطاء.

لاحظت شيئا فشيئا- لأنني لم أعد أحيد عنها بنظراتي منذ شهر كامل- أن كاتيا أصبحت أكثر فأكثر مشغولة البال، وفقدت طبعها العادل، وأحيانا، لمدة أيام كاملة، لم نكن نسمع أية ضوضاء، وفي أوقات أخرى، كان يتعالى صخب كما لم يسمع قط حتى الآن.

كانت قد أصبحت سريعة الغضب، عدوانية، كانت تحمر، وتغتاظ كثيرا، وحتى معي، كانت تصل إلى وحشيات صغرى: تارة، كانت فجأة ترفض أن تأكل بجانبي، أن تظل جالسة إلى جانبي، كأنها كانت تنفر مني، وتارة أخرى، فجأة، كانت تذهب

عند أمها وتبقى هناك طوال النهار، عالمة، ربما، أنني، بدونها، سأذوي من القلق، وطورا، كانت فجأة، تتطلع إلي طوال ساعات كاملة، بنظرات ثاقبة، بحيث لا أعرف أين أضع نفسي، من شدة هذا الارتباك القاتل: كنت أحمر، ويمتقع لوني، ورغم كل شيء، لم أكن أجرؤ على مغادرة الغرفة.

مرتين بالفعل، اشتكت كاتيا من الحمى، بينما لم يعرف عنها من قبل أي مرض. وأخيرا، ذات صباح، أعلن عن تدبير خاص: برغبة ملحة من كاتيا، ذهبت لتستقر في الأسفل، عند الأميرة أمها، التي كادت أن تموت خوفا عندما اشتكت كاتيا من الحمى.

يجب القول إن الأميرة الأم كانت غير راضية عني وعزت كل التغيير الذي لاحظته على كاتيا إلى تأثيري وكما قالت، إلى مزاجي القاتم، المؤثر في مزاج ابنتها. كانت ستفرق بيننا منذ فترة طويلة، ولكنها كانت تؤجل ذلك الفراق دائما، مع العلم أنه سيكون عليها أن تواجه مناقشة حادة وجادة مع الأمير، الذي كان، حتى لو سلم لها بكل شيء، يبدو عنيدا إلى أبعد حد. وهي كانت تعرف الأمير تماما.

تركني انتقال كاتيا مذهولة، وأمضيت أسبوعا كاملا في توتر أشد إيلاما. كنت أتعذب بالقلق، محطمة رأسي لفهم النفور الذي كانت كاتيا تشعر به نحوي.

كان الحزن يمزق نفسي والشعور بالعدل والغضب ينهض شيئا فشيئا في قلبي المهان.

وفجأة ولد في داخلي نوع من الفخر، وعندما كنا معا، كاتيا

وأنا، أثناء النزهة، كنت أنظر إليها نظرات مستقلة، ورصينة، ومختلفة عن النظرات السابقة، حتى أنها دهشت من ذلك. طبعا، هذا النوع من التغييرات لم يحدث لي إلا في أوقات متقطعة، ثم كان قلبي يحترق أكثر فأكثر، وأصبحت أيضا ضعيفة، وجلة أكثر من ذي قبل.

وأخيرا، ذات صباح، أمام ذهولي الكامل، وارتباكي التام، وابتهاجي الشديد، رجعت كاتيا إلى الطابق الأعلى. بدأت بالارتماء على عنق مدام ليوتار بضحكة مجنونة وأعلنت أنها ستستقر من جديد عندنا، ثم، أومأت برأسها لي أنا أيضا، وطلبت الإذن بأن لا يكون هناك درس في هذا الصباح، وأمضت النهار كله لهوا وعدوا.

لم أرها أبدا أكثر حيوية وبهجة حتى الآن. ومع ذلك، في المساء، أصبحت هادئة جدا، ومستغرقة في التفكير، ومن جديد تجهم وجهها الصغير الرائع. عندما جاءت الأميرة أمها لرؤيتها أثناء المساء، لاحظت أن كاتيا كانت تبذل جهودا استثنائية لتبدو فرحة. ولكن، حالما ذهبت أمها، عندما بقيت وحدها، انفجرت فجأة بالبكاء. كنت مذهولة. لاحظت كاتيا انتباهي فخرجت من الغرفة. باختصار، كانت تتهيأ فيها أزمة غير متوقعة. استشارت الأميرة الأم الأطباء، وكانت تستدعي كل يوم مدام ليوتار، لتلقي عليها أدق الأسئلة حول كاتيا، وصدر أمر بمراقبة كل حركاتها. أنا، وحدي، كنت أتوقع الحقيقة، وأخذ قلبي يخفق بعنف طافحا بالأمل.

باختصار، أوشكت قصتي الصغيرة على الختام.

في اليوم الثالث من عودة كاتيا إلى أعلى، لاحظت أنها قضت الصباح كله في التطلع إلي بعينيها الرائعتين، ونظراتها المديدة... مرارا وتكرارا، تقاطعت نظراتنا وفي كل مرة، كنا معا نحمر، ونخفض عينينا، كما لو كانت إحدانا تخجل من الأخرى. وأخيرا، انفجرت كاتيا بالضحك وابتعدت عني.

ولما حانت الساعة الثالثة، بدأوا يلبسوننا ثيابنا من أجل الخروج إلى النزهة. وفجأة دنت مني كاتيا وقالت لي:

- رباط حذائك محلول، دعيني أعقده لك.

أردت أن أنحني لأعقده بنفسي، وقد احمر وجهي مثل كرزة لأن كاتيا تحدثت معي أخيرا.

- دعيني أنا أربطه!

هكذا قالت بصوت نافد الصبر، وأخذت تضحك. وهنا، انحنت، وأمسكت بقدمي بشدة، ووضعتها فوق ركبتها وربطت حذائي. انقطع نفسي، ولم أعرف ماذا أفعل، من خوف مفاجئ لذيذ. وبعدما انتهت من ربط حذائي، نهضت وتفحصتني من أخمص قدمي إلى قمة رأسي. قالت وهي تلمس بأصبعها الجلد العاري من عنقي:

- وجيدك أيضا، مكشوف. انتظري، دعيني أربط لك هذا بنفسي.

لم أعاكسها. حلت منديل الرقبة ثم ربطته بطريقتها الخاصة.

قالت مفترة الثغر عن ابتسامة أكثر مكرا، ومرسلة وميضا من عينيها السوداوين والبليلتين:

- وإلا، فإنك يمكن أن تسعلي.

كنت في حالة غير طبيعية: لم أعد أعرف لا ما كان يعتمل في داخلي ولا ما كان يجري في نفس كاتيا. ولكن، حمداً لله، سرعان ما انتهت نزهتنا، وإلا، ما كان يمكن لي أن أتمالك نفسي: أخذت أقبلها ملء الشارع. وأثناء الصعود على الدرج، قبلتها على كتفها خلسة. لاحظت ذلك، وارتعشت، ولكنها لم تتفوه بكلمة.

في المساء، تحلت بثياب جميلة، ونزلت إلى الطابق السفلي. كان عند الأميرة ضيوف. ولكن، في تلك الليلة انقلب المنزل رأساً على عقب: أصيبت الأميرة بانهيار عصبي. فجنت أمها من الخوف عليها.

جاء الطبيب ولم يعرف ماذا يقول. وبطبيعة الحال، وضع كل شيء على حساب أمراض الأطفال، في سن كاتيا. ولكن أنا اعتقدت شيئاً آخر.

في الصباح التالي، عادت إلينا من جديد، مبتهجة، مفعمة صحة وعافية، ولكنها متقلبة الأهواء والأطوار وذات نزوات كما لم يعرف عنها حتى الآن.

أولاً، طوال الصباح رفضت أن تطيع مدام ليوتار. ثم، فجأة، أرادت الذهاب إلى الأميرة العجوز. على غير العادة، ظلت هذه الأخيرة، التي لم تكن تطيق ابنة أخيها الصغيرة، في نزاع مستمر معها ورفضت رؤيتها، وفي هذه المرة، لا أدري لماذا، قبلت استقبالها. في البداية، مر كل شيء على ما يرام، ومضت الساعة الأولى في وئام.

هذه المشاغبة كاتيا ارتأت أن تطلب العفو عن كل حماقاتها،

وعن نزقها، وعن صرخاتها، وعن كل ما كان يقلق راحة الأميرة العجوز. فصفحت عنها هذه الأخيرة رسميا والدموع تنسكب من عينيها. ولكن العفريتة كانت لها خطط طويلة المدى. خطر في بالها أن تحكي حماقات لم تكن حتى الآن إلا في طور مشاريع وأفكار. تظاهرت كاتيا بالوداعة، والصيام، والندم تماما، باختصار، كانت العجوز المنافقة في غاية الابتهاج وتداري كبرياءها بالانتصار القادم على كاتيا- الكنز، المعشوقة، في كل المنزل، التي كانت قادرة حتى على جعل أمها تنصاع لجميع نزواتها.

واعترفت العفريتة إذن، أولا، بأنها كانت تريد أن تلصق فوق فستان الأميرة بطاقة زيارة، ثم، أن تضع فالستاف تحت سريرها، ثم، أن تكسر لها نظارتيها، وأن تنقل كل كتبها وأن تعوضها بالروايات الفرنسية التي كانت لدى أمها، ثم، أن تبحث عن مفرقعات وتبعثرها على الأرض، ثم، أن تدس في جيبها لعبة ورق، إلخ، وهلم جرا.

باختصار، توالت الحماقات، بعضها أسوأ من بعض. احتدت المرأة العجوز، امتقع لونها، واحمرت غيظا، وفي آخر الأمر، لم تعد كاتيا تتمالك نفسها، فانفجرت بالضحك، وفرت من عند عمتها. وعلى الفور أرسلت المرأة العجوز في طلب الأميرة. وبدأت قصة كاملة. ظلت الأميرة، دامعة العينين، طوال ساعتين، تتوسل من قريبتها العجوز، أن تصفح عن كاتيا وأن تسمح لها بأن لا تعاقبها، أخذا بعين الاعتبار حقيقة أنها كانت لا تزال مريضة.

في البداية، لم ترد المرأة العجوز أن تسمع شيئا، وأعلنت أنها ستغادر المنزل منذ الغد، ولم تلن إلا حين تعهدت لها الأميرة بأن

تؤجل العقاب حتى شفاء ابنتها، وبعد ذلك يمكنها أن تشفي غلة الأميرة العجوز. ومع ذلك وبخت كاتيا توبيخا عنيفا جدا. وأخذت إلى الطابق السفلي، عند أمها.

ولكن الوقحة تمكنت من الهرب بعد الغداء. عندما نزلت، رأيتها بنفسي على السلم بالفعل. كانت تفتح الباب قليلا وتنادي فالستاف. فأدركت في لحظة أنها كانت تتصور انتقاما رهيبا.

وهنا كيف كان ذلك.

لم يكن للأميرة العجوز عدو أشرس من فالستاف. لم يكن لطيفا مع أي شخص، ولا يحب أحدا، ولكنه كان ممتلئا بالغطرسة، والزهو، ومنتفخا بالخيلاء إلى أبعد حد. لم يكن يحب أحدا، ولكن من الواضح أنه كان يطالب الجميع بالاحترام الواجب له. كان الجميع يشعرون نحوه باحترام ممزوج بخوف طبيعي. فجأة، منذ مجيء الأميرة العجوز، تغير كل شيء، تلقى فالستاف إهانة فظيعة، يعني أنه كان رسميا ممنوعا من الصعود إلى الطابق العلوي.

في البداية، تحت طائلة السخط، استشاط فالستاف غضبا، وطوال أسبوع كامل، كان يخدش الباب المؤدي إليه السلم، والمفضي من غرفة بالطابق السفلي إلى غرفة بالطابق العلوي، ولكنه سرعان ما خمن أسباب منفاه، ومنذ الأحد الأول، بينما كانت العجوز الصغيرة خارجة للذهاب إلى الكنيسة، هجم على البائسة المسكينة، صائحا نابحا عليها. لم تنقذ إلا بجهد جهيد من الانتقام الضاري للكلب المهان، لأنه كان مطرودا بأمر الأميرة العجوز، التي أعلنت أنها لم تكن تطيق رؤيته.

ومنذ ذلك اليوم، منع دخول فالستاف بصرامة شديدة، وكلما نزلت العجوز، كان يطرد إلى أقصى غرف الطابق الأرضي. وتكلف الخدم بتطبيق ذلك على نحو صارم ودقيق.

ولكن الحيوان الحقود وجد مع ذلك وسيلة للصعود إلى الطابق العلوي ثلاث مرات متوالية. وفور وصوله إلى هناك، كان ينطلق عبر صف كل الغرف، حتى غرفة نوم الأميرة العجوز الصغيرة. لا شيء يمكن أن يكبحه. لحسن الحظ، كانت غرفة العجوز مغلقة دائما بالمفتاح، وكان على فالستاف أن يكتفي بالوقوف أمام الباب وإطلاق عواء رهيب، حتى يسرع الخدم لطرده إلى الأسفل. أما العجوز الصغيرة، فكانت، أثناء زيارة البولدوغ الجموح، تصيح كأنه كان يلتهمها بالفعل، وفي كل مرة، كانت تسقط حقا مريضة من الرعب. وقد وجهت بالفعل عدة إنذارات إلى أم كاتيا، بل إنها ذات مرة، استشاطت غضبا، وقالت إما فالستاف أو هي، ولكن الأميرة رفضت أن تفارق فالستاف.

لم تكن الأميرة مسرفة في حبها، ولكنها كانت تحب، بعد أولادها، فالستاف أكثر من أي شيء في الدنيا.، وهذا هو السبب. ذات يوم، قبل ست سنين، عاد الأمير من النزهة حاملا معه جروا صغيرا، قذرا، ومريضا، وفي مظهر مثير للشفقة، إلا أنه كان على الأقل بولدوغا أصيلا.

كان الأمير قد أنقذه من الموت. ولكن لما كان سلوك هذا الوافد الجديد أكثر فظاظة وأقل أدبا، فقد أبعد، بأمر ملح من الأميرة، إلى الفناء الداخلي، حيث شد وثاقه. لم يعترض الأمير.

بعد سنتين، بينما كان كل أهل المنزل في البادية، سقط ساشا الصغير، شقيق كاتيا الأصغر، في نهر نيفا.

أطلقت الأميرة صرخة، وكانت حركتها الأولى أن ألقت بنفسها في الماء، لانتشال ابنها. فأنقذت بجهد جهيد من موت محقق. في حين أن التيار السريع جرف الطفل، وثيابه فقط هي التي حملته فوق سطح الماء.

وعلى عجل فصل قارب، ولكن إنقاذه كان من قبيل المعجزة. وفجأة، قفز في الماء بولدوغ ضخم، عملاق، وسبح نحو الطفل الذي كان يغرق، أمسكه بأسنانه ونجح في إخراجه إلى الشاطئ.

اندفعت الأميرة لاحتضان وتقبيل الكلب الملوث والمبتل. ولكن فالستاف، الذي كان لا يزال يحمل اسما مبتذلا وعلى أعلى درجة من العامية هو فريكس، لم يكن يتحمل المداعبات ورد على عناق وقبلات الأميرة بعضها من كتفها بكامل قوة فكيه. وكان عليها أن تعاني من هذه الإصابة طوال حياتها، ولكن امتنانها له كان بلا حدود.

كان فالستاف يستقبل في الشقق، نظف، غسل، وحلي عنقه بطوق فضي، رفيع الصنع. واستقر في الغرفة الخاصة بالأميرة، فوق فروة دب رائعة، وسرعان ما أصبحت الأميرة قادرة على مداعبته دونما خشية من عقاب سريع، وصاعق. ولما علمت أن المفضل لديها كان يسمى فريكس، ارتاعت، وبدأت على الفور تبحث له عن اسم آخر، قديم قدر الإمكان. ولكن أسماء مثل **هيكتور**[1]، أو

---

(1) **هيكتور**: بطل حرب طروادة، الأمير، القائد، ابن بريام ملك طروادة، قتله أخيل، في "إلياذة" هوميروس.

تسيربير[1]، وهلم جرا، كانت قد أصبحت مبتذلة جدا، كان يجب البحث عن اسم يليق بالمفضل في المنزل كله.

وفي آخر الأمر، اقترح الأمير، آخذا بعين الاعتبار الشراهة الهائلة لفريكس، أن يطلق على البولدوغ اسم فالستاف[2]

قوبل هذا الاسم بالترحاب وظل مرتبطا بالبولدوغ.

تصرف فالستاف بشكل جيد: كإنجليزي أصيل، كان صموتا، وعبوسا، لا يبادر أحدا بالهجوم، إلا أنه كان يطالب فقط بالمرور حوله على مسافة محترمة من فروته الدبية، وعلى العموم كان يحب أن يعامل بالاحترام الواجب لمكانته.

كان فالستاف يبدو أحيانا كأنه مهموم وكئيب، وفي هذه اللحظات، كان يتذكر بألم أن عدوته، عدوته العنيدة، التي سلبت منه حقوقه، لم تنل عقابها حتى الآن.

وعندئذ، بكل هدوء، كان يدنو من السلم المؤدي إلى أعلى، ولما كان يجد الباب مغلقا، كالعادة دائما، كان يتربص في مكان ما هناك غير بعيد، كان يختبئ في زاوية، وينتظر بمكر أن يخطئ أحد، فيترك الباب مفتوحا.

في بعض الأحيان، كان يمكن للحيوان الحقود أن ينتظر هكذا ثلاثة أيام كاملة.

---

(1) تسيربير أو سيربيروس في الأساطير اليونانية، كلب شرس مشوه له ثلاثة رؤوس، حارس مدخل العالم السفلي.
(2) فالستاف من بين أشهر شخصيات شكسبير في "هنري الرابع" و "دوقات وندسور المرحات" ثرثار، شره، سكير، في سخرياته حكم بليغة.

ولكن أعطيت أوامر صارمة لمراقبة الباب، ومنذ شهرين بالفعل لم يعد يظهر مرة أخرى في الأعلى.

نادت كاتيا وهي تفتح الباب، وتدعو بهدوء فالستاف ليتبعها على السلم:

- فالستاف! فالستاف!

وفي هذه اللحظة، أحس فالستاف بأن الباب سيفتح له فاستعد **لاتخاذ الخطوة الحاسمة**[1] ولكن نداء كاتيا بدا له مستبعد الوقوع جدا، حتى أنه لفترة من الوقت رفض أن يصدق أذنيه.

كان ماكرا مثل قط ولكي لا يظهر أنه لاحظ الخطأ المرتكب بفتح الباب، اقترب من النافذة، وضع على الحافة قائمتيه القويتين وأخذ يتفحص الدار المقابلة، باختصار، كان يتصرف مثل غريب في نزهة يتوقف لحظة لكي يتأمل الجمال المعماري لبناية مجاورة.

ولكنه كان خافق القلب بانتظار عذب. وما أشد دهشته، فرحته، رعشته من الفرح حين فتح الباب أمامه على مصراعيه، وأكثر من ذلك، عندما نودي، عندما دعي، عندما رجي للصعود وإشباع وإرواء انتقامه العادل والمشروع، هنا، والآن! ولذلك صاح

---

(1) اتخاذ الخطوة الحاسمة: حرفيا عبور نهر روبيكون rubicon _الذي كان واقعا في شمال إيطاليا، عبره يوليوس قيصر بجحافل جيوشه عام 49 قبل الميلاد لغزو بلاد الغال. كان محظورا على قيصر وغيره من الحكام الرومانيين عبور الحدود بين إيطاليا الرومانية وبلاد الغال الجنوبية، وعندما أصدر مجلس الشيوخ أوامره له بالتنحي عن القيادة خوفا من قوته، رفض وقاد جنوده وعبر نهر روبيكون على الحدود لتبدأ حرب أهلية، وزعامته لروما. ومن ثم بات عبور نهر روبيكون تعبيرا سياسيا ذائع الصيت يعني قرارا حاسما وخطيرا لا عدول عنه ولا رجعة فيه أو وصولا إلى نقطة اللاعودة..

نابحا فرحا، وكشر عن أنيابه، واندفع كالسهم نحو الأعلى، مرعبا ومبتهجا بالنصر.

كان اندفاعه عنيفا جدا بحيث إن الكرسي الذي صادفه في طريقه ودفعه بضربة من قائمته، قد وقع ثانية على مسافة مترين من هناك، بعد أن دار حول نفسه.

انطلق فالستاف مسرعا مثل كرة منطلقة من مدفع.

أطلقت مدام ليوتار صرخة رعب، ولكن فالستاف كان قد وصل بالفعل إلى بابه الممنوع عليه، وأخذ يضربه بقائمتيه الأماميتين، ولكنه لم يستطع أن يفتحه، وبدأ يعوي كالتائه. وردا على ذلك انفجرت صرخات رهيبة من العانس العجوز. ولكن جحافل الأعداء هرعت بالفعل من جميع الجهات، كل المنزل انتقل إلى الطابق العلوي، وفالستاف، فالستاف الشرس، ألقيت بمهارة كمامة حول فكيه، وكتفت قوائمه الأربع، ورجع من ميدان المعركة خائبا، ومسحوبا بحبل إلى الطابق السفلي.

واستدعيت الأميرة الصغيرة.

في هذه المرة، لم تعد الأميرة مستعدة لتغفر أو تعفو، ولكن أن تعاقب من؟ كانت قد خمنت من الوهلة الأولى، إلى الثانية، فوقعت عيناها على كاتيا... نعم: كانت كاتيا هنا، شاحبة تماما، ومرتعشة خوفا.

في هذه اللحظة فقط، أدركت، الصغيرة المسكينة، عواقب حماقتها. كان يمكن للشبهة أن تلقى على الخدم، الأبرياء كليا، وكانت كاتيا مستعدة بالفعل لأن تقول الحقيقة كلها.

سألت الأميرة بلهجة صارمة:

- أنت المذنبة؟

رأيتُ الشحوب القاتل يعلو محيا كاتيا، وتقدمت خطوة إلى الأمام، وأعلنت بلهجة قاطعة:

- - أنا التي أدخلتُ فالستاف...

وأضفتُ، لأن شجاعتي تلاشت تحت النظرة المنذرة للأميرة:

- دون أن أتعمد ذلك.

قالت الأميرة وخرجت من الغرفة:

- مدام ليوتار، عاقبيها بطريقة مثالية !

ألقيت نظرة نحو كاتيا: كانت كأنها متفاجئة، ظلت ذراعاها متدليتين، وكان وجهها الصغير الشاحب ينظر نحو الأرض.

كان العقاب الوحيد الجاري على أطفال الأمير هو أن يحبسوا في غرفة فارغة.

إن الحبس ساعتين في غرفة فارغة ليس شيئا.

ولكن حين كان الطفل يحجز فيه عنوة، رغم أنفه، ويقال له إنه محروم من الحرية، فإن العقاب كان مؤثرا جدا.

على العموم، كان احتجاز كاتيا أو أخيها لمدة ساعتين.

أما أنا، فقد حبست هناك لمدة أربع ساعات، مع الأخذ بعين الاعتبار كل بشاعة الجرم.

دخلت إلى زنزانتي، مرتعشة تقريبا من الفرح.

كنت أفكر في كاتيا. كنت أعرف أنني انتصرت. ومع ذلك، بدلا من أربع ساعات، كان علي أن أبقى هناك حتى الساعة الرابعة من الصباح. وهكذا حدث ذلك.

بعد ساعتين من حبسي، علمت مدام ليوتار أن ابنتها وصلت من موسكو، وأنها مرضت فجأة، وتريد أن تراها. ذهبت مدام ليوتار ونسيتني. ولاشك أن الخادمة التي كانت مكلفة بنا افترضت أنهم أطلقوا سراحي.

وكانت كاتيا قد دعيت للنزول إلى الطابق السفلي وكان عليها أن تبقى مع أمها حتى الساعة الحادية عشرة من المساء. وعندما رجعت، دهشت حين لم ترني في السرير.

نزعت الخادمة عنها ثيابها، ولكن الأميرة الصغيرة كانت لها أسبابها إذا كانت لم تسأل عني، ونامت وهي تنتظرني، متأكدة أنني كنت محبوسة لمدة أربع ساعات ومفترضة أن مربيتنا ستعيدني من جديد.

ولكن ناستيا نسيتني تماما، كما كنت أخلع دائما ملابسي وحدي. هكذا كان علي قضاء الليل رهن الاعتقال.

في الساعة الرابعة من الصباح، سمعت الباب يطرق ويفتح عنوة. كنت نائمة، ممددة، كيفما اتفق، على الأرض، استيقظت وأخذت أصرخ من الخوف، ولكنني ميزت فورا صوت كاتيا مدويا أقوى من الأصوات الأخرى، ثم صوت مدام ليوتار، ثم الصوت، المرتاع، لناستيا، ثم صوت الخادمة.

وأخيرا فتح الباب واحتضنتني مدام ليوتار، دامعة العينين، وطالبة مني الصفح لأنها نسيتني. وعانقتها وأنا أبكي.

كنت أرتعد بردا، وكانت عظامي كلها تؤلمني لأنني بقيت ملقاة على الأرض العارية.

بحثت بعيني عن كاتيا، ولكنها كانت قد ركضت إلى غرفتنا، وارتمت على السرير، وحين دخلت، كانت نائمة بالفعل، أو متظاهرة بالنوم.

أثناء انتظاري، في المساء السابق، نامت دون أن تدرك ذلك واستيقظت في الساعة الرابعة من الصباح.

وعندما استيقظت أثارت ضجة صاخبة تماما، جلبة كاملة، نادت وأيقظت مدام ليوتار التي كانت قد عادت، والمربية، والخدم جميعا، وحررتني.

في الصباح، علم المنزل كله بمغامرتي، حتى الأميرة قالت إن عقوبتي كانت قاسية جدا.

أما الأمير، فقد رأيته في ذلك اليوم، لأول مرة، شديد الغضب. دخل إلى الطابق العلوي، في الساعة العاشرة من الصباح، في غاية الاضطراب.

بدأ كلامه، قائلا لمدام ليوتار:

- انظري، ماذا تفعلين؟ ماذا فعلت لهذه الطفلة المسكينة؟ هذه همجية، همجية خالصة، هذه تقاليد سكيثية[1]!

---

(1) سكيثيا، أو سقيثيا، أو سيثيا، منطقة سكنها السكيثيون القدماء من القرن 18 قبل الميلاد، شعب بدوي متوحش، مثال للهمجية، كان موطنهم جنوبي روسيا، شمال البحر الأسود وبحر قزوين، كانت لهم عادات غريبة: لا يغتسلون بالماء أبدا، يشربون دم الضحية الأولى في المعركة، يستعملون فروة رؤوس الأعداء مناديل، وجماجمهم كؤوسا، يعبدون السيف، ولا عمل لهم غير الحرب، يغيرون على البلاد كالجراد، كانت كلمة سكيثي تدل على أسوأ الشعوب الهمجية..

طفلة صغيرة مريضة، فتاة صغيرة حالمة، خائفة، مستغرقة دائما في أحلامها، تسجن في غرفة مظلمة، ليلة كاملة!

هذا يعني قتلها! إنك لا تعرفين قصتها إذن؟ هذا شيء همجي، لا إنساني، أقول لك هذا، يا سيدتي! وما هذا العقاب؟ من الذي ابتكره، من الذي استطاع ابتداع مثل هذا العقاب؟

مسكينة مدام ليوتار، أخذت، دامعة العينين، ومرتبكة، تشرح كل القضية، قائلة إنها نسيتني، وأن ابنتها جاءت لرؤيتها، ولكن هذه العقوبة، في حد ذاتها، كانت عقوبة طيبة، وأن جان جاك روسو نفسه قال شيئا من هذا القبيل.

- جان جاك روسو، يا سيدتي! ولكن جان جاك روسو لا يمكنه أن يقول ذلك: جان جاك روسو ليس سلطة. جان جاك روسو لا يجرؤ على أن يتحدث عن التربية، لا يحق له أن يتكلم على ذلك. جان جاك روسو تخلى عن أولاده، يا سيدتي! جان جاك روسو كان رجلا سيئا، يا سيدتي!

- جان جاك روسو! جان جاك روسو، رجل سيء! أيها الأمير! أيها الأمير! ماذا تقول؟

التهب وجه مدام ليوتار تماما.

مدام ليوتار كانت امرأة رائعة، وأبرز ما يميزها هو أنها لم تكن تغضب، ولكن أن يمس بسوء أحد من المفضلين لديها، أن يعكر صفو الصورة الكلاسيكية لكورني، وراسين، أن يهان فولتير، أن يوصف جان جاك روسو بالرجل السيئ أن يوصم بالهمجي - يا إلهي! انبجست الدموع من عيني مدام ليوتار، ارتعدت العجوز الصغيرة من الانفعال.

وتمتمت أخيرا، مضطربة العاطفة:

- نسيت نفسك، أيها الأمير!

استدرك الأمير فورا وطلب المغفرة، ثم اقترب مني، وقبلني بعاطفة عميقة، ورسم علي إشارة الصليب وغادر الغرفة.

قالت مدام ليوتار، متأثرة هي بدورها:

- **يا للأمير المسكين[1]!**

وجلسنا أمام مائدة الدراسة.

ولكن الأميرة الصغيرة ظلت تدرس وهي شاردة الذهن كثيرا. وقبل الذهاب إلى الغداء، اقتربت مني، مغتاظة جدا، والضحكة تعلو شفتيها، وتوقفت أمامي مباشرة، أمسكتني من كتفي، وقالت لي على عجل، كأنها كانت خجلة قليلا:

- ماذا إذن؟ مكثت بالأمس طويلا من أجلي؟ بعد الغداء، هيا نلعب في القاعة.

مر أمامنا شخص ما، وفي لمح البصر، أعرضت عني الأميرة الصغيرة.

بعد الغداء، في غبش المساء، نزلنا معا إلى القاعة الكبيرة، متماسكتين يدا في يد، كانت الأميرة الصغيرة مضطربة جدا، وتتنفس الصعداء. وأنا، كنت طافحة فرحة وسعادة لم أعرفهما حتى الآن.

---

(1) يا للأمير المسكين! بالفرنسية في النص: ! pauvre prince وبالروسية بيدني كنياز! Бедный князь.

سألتني:

- تريدين اللعب بالكرة؟ قفي هناك!

أوقفتني في زاوية داخل القاعة، ولكنها هي نفسها، بدلا من أن تتنحى وتقذف إلي بالكرة، توقفت على بعد ثلاث خطوات مني، نظرت إلي، احمرت، وتهاوت على الأريكة، وهي تخفي وجهها بين يديها. قمت بحركة نحوها، فظنت أنني كنت أريد الذهاب.

قالت لي:

- لا تذهبي، يا نيتوتشكا، ابقي معي قليلا، سيمر هذا حالا.

ولكنها، في لمح البصر، قفزت من مكانها وارتمت على عنقي، محمرة، ودامعة العينين. كانت وجنتاها مبتلتين، وشفتاها منتفختين، مثل كرزتين صغيرتين، وجدائلها في حالة فوضى. كانت تقبلني كالمجنونة، كانت تقبل وجهي، عيني، شفتي، عنقي، يدي، كانت تجهش بالبكاء كما في نوبة عصبية، كنت أضمها بين ذراعي بكل ما أملك من قوة، وكنا في عناق لذيذ، سعيد، كالأصدقاء، كالعشاق، الذين التقوا بعد فراق طويل. كان قلب كاتيا يخفق بقوة بحيث كنت أسمع دقاته.

ولكننا سمعنا نداء في الغرفة المجاورة. كانوا يدعون كاتيا لتمضي إلى الأميرة.

-آه، نيتوتشكا! طيب، إلى المساء، هذه الليلة! اطلعي، الآن، انتظريني!

قبلتني قبلة أخيرة، قبلة عذبة، صامتة، قوية، وأسرعت لتلبية

نداء ناستيا. وأنا، ركضت إلى أعلى، كأنني بعثت، ارتميت على الأريكة، أخفيت وجهي في وسادة، وأخذت أبكي من الانتشاء. كان قلبي يدق بسرعة، بعنف، كأنه كان يريد أن يقفز خارج صدري. لا أتذكر كيف استطعت الصبر حتى الليل. دقت الساعة الحادية عشرة أخيرا، واستلقيت على السرير. لم ترجع كاتيا إلا في منتصف الليل، ابتسمت لي من بعيد، ولكنها لم تقل كلمة. وبدأت ناستيا تخلع عنها ثيابها، وكانت كأنها تتعمد أن تكون بطيئة.

كانت كاتيا تتمتم قائلة لها:

- أسرعي، أسرعي، يا ناستيا!

سألت ناستيا:

- ما لقلبك، يا أميرتي، يدق بعنف، ركضت على السلم دون شك؟

- آه، يا إلهي، يا ناستيا! كم أنت مزعجة! هيا، أسرعي، أسرعي!

وضربت الأميرة الأرض بقدمها من الغيظ.

قالت ناستيا بعد أن طبعت قبلة على قدم الأميرة التي خلعت لها حذاءها:

- آه! يا للقلب الصغير!

وأنهت عملها أخيرا، وآوت الأميرة إلى فراشها، وخرجت ناستيا من الغرفة. وفي لمح البصر، قفزت كاتيا من السرير واندفعت نحوي. أطلقت صرخة وأنا أ رحب بها.

وأخذت تقول لي وهي تنهضني:

- تعالي إلي، نامي معي!

وبعد لحظة، وجدتني في سريرها، تعانقنا، وضمت إحدانا الأخرى بلهفة. كانت الأميرة تخنقني بالقبلات.

قالت لي، محمرة، مثل زهرة الفاوانيا:

- أنا، أتذكر. كيف كنت تقبلينني أثناء الليل!

كنت أجهش بالبكاء.

همست لي كاتيا من خلال الدموع:

- نيتوتشكا! ملاكي، كان هذا منذ مدة طويلة جدا، ولكنني أحببتك منذ مدة طويلة جدا! هل تعرفين منذ متى؟

- منذ متى؟

- منذ أن أمرني أبي بأن أطلب منك الصفح، وحين كنت تدافعين عن أبيك، يا نيتوتشكا... يا صغيرتي ال-يتي-مة!

هكذا قالت وهي تمد كلمة اليتيمة وتغمرني بالقبلات. كانت تبكي وتضحك في الآن نفسه.

- آه، كاتيا!

- نعم، ماذا؟ نعم، ماذا؟

- لماذا، خلال مدة طويلة... ولكنها مدة طويلة جدا... -ولم أستطع أن أكمل جملتي. وتعانقنا وبقينا متعانقتين حوالي ثلاث دقائق، دون أن نقول شيئا.

سألتني الأميرة:

- اسمعي، أنت، كيف كان رأيك في؟

- آه، كم من أشياء فكرت فيها، يا كاتيا! كنت أفكر في كل وقت، كنت أفكر ليلا ونهارا.

- في الليل أيضا، كنت تتكلمين عني، سمعت ذلك.

-حقا؟

-وكنت تبكين غالبا.

- أرأيت! وأنت، لماذا كنت فخورة جدا؟

- ولكنني كنت حمقاء، يا نيتوتشكا. كان يحدث لي هذا، هكذا، ويزول. كنت مستاءة منك دوما.

- لماذا؟

- لأنني، أنا نفسي، كنت شريرة. أولا، لأنك أفضل مني، ثم، لأن أبي يحبك أكثر. ولكن بابا، هه، بابا طيب، يا نيتوتشكا! أليس كذلك؟

أجبتها والدموع تهمي من عيني، وأنا أفكر في الأمير:

-آه، نعم!

قالت كاتيا بجدية:

-إنه لطيف، ولكن ماذا أفعل معه؟ إنه دائما هكذا... طيب، وبعدئذ، أخذت أطلب منك المعذرة، وكدت أن أجهش بالبكاء، ولذلك، لا أزال مغتاظة منك أيضا...

- وأنا، لاحظت ذلك، لاحظته، كنت تودين أن تبكي.

صاحت كاتيا، وهي تغلق لي فمي بيدها:

- لا، اسكتي، يا صغيرتي الحمقاء، يا لك من بكاءة! اسمعي، كنت أود كثيرا أن أحبك، ثم أردت أن أكرهك، كنت أكرهك كثيرا، كم كنت أكرهك!...

- ولكن لماذا؟

- باه، كم كنت أكرهك! لا أدري لماذا! ولكنني بعد ذلك، أدركت أنك كنت غير قادرة على العيش بدوني، وقلت في نفسي: هيا، باه، سوف أعذبها، هذه الرديئة!

- آه، كاتيا!

قالت كاتيا وهي تقبل يدي:

- يا عزيزتي! طيب، وبعدئذ، لم أعد أكلمك، لم أرد أن أكلمك إطلاقا. وهل تتذكرين كيف داعبت فالستاف؟

- آه، نعم، كم كنت شجاعة!

قالت الأميرة ممدودة الصوت:

- لا، كم كنت مذ-عو-رة! تعرفين، لماذا فعلت ذلك؟

-لماذا؟

- لأنك كنت تشاهدين. عندما رأيت أنك كنت تشاهدين... آه! في الحرب كما في الحرب، وذهبت إلى هناك. أفزعتك هه؟ خفت علي؟

- خوفا رهيبا!

-لاحظت ذلك. أوه، كم فرحت حين ذهب فالستاف مرة أخرى! يا إلهي، كم فزعت، بعد ذلك، حينما ذهب... هذا ال-و-حش !

انفجرت الأميرة بالضحك الهستيري، ثم، فجأة، رفعت رأسها المضطرم، وأخذت تنظر إلي. وعلى هدبيها الطويلين كانت تضطرب دمعتان صغيرتان مثل درتين صغيرتين.

- ولكن ماذا فيك، لكي أحبك حبا شديدا جدا، إنك شاحبة تماما، وشقراء تماما، وبكاءة دائما، وزرقاء العينين، يا صغيرتي ال-يتي-مة!!

وانحنت كاتيا وأخذت تقبلني من جديد بلا انقطاع. وسقطت إحدى دمعاتها على وجنتي. كانت في غاية التأثر العميق.

- وكيف أحببتك، هه!- وكنت أقول في نفسي دائما، لا، لا! لن أقول لها! وكم كنت عنيدة! كم كنت خائفة، وخجولة أمامك! وانظري، كم نحن على ما يرام، الآن!

قلت لها في نشوة فرحتي:

- كاتيا ! يؤلمني هذا ! يوجع قلبي !

-نعم، يا نيتوتشكا! اسمعي أيضا... نعم، اسمعي، من الذي سماك نيتوتشكا[1]؟

- ماما.

---

(1) نيتوتشكا: اسم من ابتداع أمها كما قالت هنا وفي الفصل الثاني (ص 53) وهو إحدى صيغ التصغير من اسمها: أنّا، الذي هو اسم علم آرامي وعبري توراتي يعني النعمة والله تحنن، ينطق بالعبري حنان - تسكين الحاء - وله صيغ لغوية كثيرة منها أنّيتا، وحنة وحنا، إلخ.

- ستقولين لي كل شيء عن أمك؟

أجبت بحماس:

- كل شيء، كل شيء.

- وماذا فعلت بمنديلي، مع الدانتيلا؟ والشريط، لماذا أخذتهما؟ آه، الوقحة! أعرف كل شيء، أنا.

أخذت أضحك واحمر وجهي حتى اغرورقت عيناي بالدموع.

- لا، قلت في نفسي: سأجعلها تتعذب، فلتنتظر. ومرات أخرى، كنت أقول في نفسي: ولكنني لا أحبها إطلاقا، لا أطيقها. وأنت دائما وديعة، هكذا، كحمل! وكم كنت خائفة من أن تفكري أنني غبية! أنت ذكية، يا نيتوتشكا، أنت ذكية، أليس كذلك، هه؟

أجبت، متكدرة تقريبا:

- ولكن كفى، يا كاتيا!

أجابت كاتيا بلهجة حازمة وجادة:

-لا، أنت ذكية، أعرف هذا. ولكنني ذات صباح، نهضت، وأحببتك بقوة، كان شيئا رهيبا! حلمت بك طوال الليل. وقلت في نفسي، سأمضي إلى أمي، وأبقى عندها. لا أريد أن أحبها، لا أريد! وبعد ذلك، في الليلة التالية، نمت وأنا أقول: ليتها تأتي، كالليلة الماضية، وجئت! آه، كم كنت أتظاهر بالنوم... آه، كم كنا صفيقتين، نحن الاثنتين معا، يا نيتوتشكا!

- ولكن، لماذا رفضت، هكذا، أن تحبيني؟

- هكذا... ولكن ماذا أقول؟ أحببتك دائما! كنت أقول لنفسي،

سأقبلها، يوما، أو سأقرصها، كاملة، حتى الموت. وهذا هو، يا صغيرتي السخيفة.

وقرصتني الأميرة.

- وتتذكرين حين ربطت لك حذاءك؟

- أتذكر ذلك.

- كنت مسرورة، هه؟ نظرت إليك وقلت في نفسي: كم هي جميلة، سأربط لها حذاءها، وأرى كيف ستفكر! كنت أشعر أنني بحالة جيدة جدا! أتدرين، حقا، كنت أود أن أقبلك... وبعد ذلك، كان شيئا مضحكا، مضحكا جدا! طوال الطريق، أثناء النزهة، كنت أريد أن أنفجر بالضحك. كنت أتطلع إليك، ولم أعد أستطيع ذلك، كنت مضحكة كثيرا. وكم كنت مسرورة، عندما ذهبت إلى الزنزانة بدلا مني.

كانت الغرفة الفارغة تسمى "زنزانة"

- وشعرت بالخوف؟

-آه! نعم، خفت بشكل فظيع.

- ولم أكن أنا مسرورة فقط لأنك أدنت نفسك من أجلي بل لأنك سجنت أيضا عوضا عني! كنت أقول في نفسي: إنها تبكي، الآن، وأنا، كم أحبها! غدا، سأمضي لأقبلها بحرارة، أقبلها بكل ما أوتيت من قوة!... ولم أشفق عليك، أقسم لك، لم أشفق عليك إطلاقا، حتى ولو بكيت قليلا.

- وأنا، لم أبك على الإطلاق، عمدا، كنت مسرورة جدا!

صاحت الأميرة وهي تلحس جلدي بكلتا شفتيها الصغيرتين:

- لم تبك؟ أوه الخبيثة!

- كاتيا، كاتيا! يا إلهي، ما أجملك!

- صحيح، هه؟ حسنا، والآن، افعلي بي كل ما تشائين! عذبيني، اقرصيني! من فضلك، اقرصيني. هيا يا صغيرتي، اقرصيني!

- يا لك من مضحكة! وماذا بعد ذلك أيضا؟

- وبعد ذلك أيضا، قبليني.

وتبادلنا القبلات، وبكينا، وضحكنا، كانت شفاهنا منتفخة، من كثرة التقبيل.

- نيتوتشكا! أولا، ستأتين دوما، لتنامي معي. هل تحبين أن نتبادل القبل؟ ستتبادل القبلات دائما. وبعد ذلك، لا أحب أن أراك كئيبة من جديد. لماذا تظهرين كئيبة جدا؟ ستحكين لي، أليس كذلك؟

- سأحكي لك كل شيء. ولكنني الآن لست كئيبة على الإطلاق، أنا في غاية الفرح!

- لا، وإذن، أريد أن تكون وجنتاك متوردتين، مثل وجنتي! آه، هلا يأتي الغد بسرعة! أترغبين في النوم، يا نيتوتشكا؟

- كلا.

- طيب، وإذن، لنتكلم.

وتحدثنا أيضا لمدة ساعتين. يعلم الله ما لم نتحدث عنه.

أولا، عرضت علي الأميرة مشاريعها للمستقبل والوضع الحالي. وهنا علمت أنها كانت تحب أباها أكثر من أي شخص آخر في العالم، أكثر مني تقريبا. وبعد ذلك، قررنا نحن الاثنتين معا أن مدام ليوتار كانت سيدة رائعة وليس صحيحا أنها كانت قاسية. ثم، ابتكرنا ما

سوف نعمل غدا، وبعد غد، ووضعنا خطة حياة لما يقرب من عشرين عاما تقريبا. كانت فكرة كاتيا أننا سوف نعيش على الشكل التالي: ذات يوم، ستعطيني، هي، أوامر، وأنا، سأطيع فورا، وفي اليوم التالي، سيكون العكس،- أنا، أعطي الأوامر، وهي،- تطيع بدون تردد، وبعد ذلك، سوف يكون علينا معا أن نأمر ونطيع بشكل مشترك، على حد سواء، وإذا رفضت إحدانا أن تطيع، فسوف نتشاجر، هكذا، ظاهريا، وبعدئذ، بطريقة أو بأخرى، سوف نتصالح.

باختصار، كانت تنتظرنا سعادة لا نهائية.

وأخيرا، تعبنا من الكلام، وأخذ النوم يرنق عيني. سخرت مني كاتيا، قائلة لي بأنني نؤوم، وهي التي نامت قبلي.

في الصباح، صحونا معا، وتبادلنا قبلة خاطفة، لأن هناك أحدا دخل إلى غرفتنا، وكان لدي الوقت الكافي للركض حتى سريري.

طوال اليوم، لم نعرف ماذا يجب أن تفعل إحدانا بالأخرى من فرط سعادتنا. لم نكف عن الاختباء، والهروب من الجميع، خائفتين أكثر من أي شيء آخر من نظرات الآخرين.

وأخيرا، أخذت أحكي قصتي. كانت كاتيا متأثرة جدا بحكايتي إلى حد البكاء.

- الشريرة، آه، يا لك من شريرة! لماذا لم تقولي لي من قبل؟ كان يمكنني أن أحبك حبا جما، بل إلى حد بعيد! وكانوا يؤلمونك، أطفال الشوارع، حين كانوا يضربونك؟

- نعم، كنت أخاف منهم كثيرا!

- أوه، يا للأوغاد! أتدرين؛ يا نيتوتشكا، رأيت، ذات يوم، كيف كان طفل يضرب آخر في الشارع. غدا، سآخذ خفية سوط

فالستاف، وإذا التقيت واحدا، سوف أضربه، ضربة لن ينساها!

كانت عيناها تسطعان سخطا.

كان يستولي علينا الخوف كلما دخل علينا أحد. كنا نخاف أن يباغتنا أحد ونحن نتبادل القبلات. لأننا تباوسنا، في ذلك النهار، مائة مرة، على الأقل. هكذا مر ذلك اليوم، واليوم التالي. كنت أخشى أن أموت من النشوة، كنت أختنق من السعادة. غير أن سعادتنا لم يكتب لها أن تستمر طويلا.

كانت مدام ليوتار مكلفة بنقل كل حركات كاتيا. لقد راقبتنا خلال هذه الأيام الثلاثة كلها، وأثناء هذه الأيام الثلاثة كانت لديها كثير من الأشياء لتحكيها.

وأخيرا، ذهبت إلى أم كاتيا، وأخبرتها بما لاحظت- كنا نحن الاثنتين معا في حالة غير طبيعية، لم نفترق منذ ثلاثة أيام، لم نكف عن تبادل القبل، بكينا، ضحكنا كمجنونتين،- وكمجنونتين لم نكف عن الثرثرة، الأمر الذي لم يحدث لنا أبدا من قبل، وهي، لم تكن تعرف أنها يمكن أن تكون سببا في ذلك، لكن كان لديها انطباع بأن الأميرة الصغيرة كانت في نوع من الأزمة المرضية، وفي آخر الأمر، بدا لها أن من الخير لنا أن نرى بعضنا أقل قليلا.

أجابت الأميرة:

- هذا ما كنت أقول، منذ مدة طويلة، كنت أعرف جيدا أن هذه اليتيمة الغريبة سوف تزعجنا. ما حكي لي عنها، وعن حياتها السابقة- أمر فظيع، ومريع تماما. إن لها تأثيرا واضحا على كاتيا. تقولين إن كاتيا تحبها كثيرا؟

- إلى حد الجنون.

احمرت الأميرة غيظا. كانت بالفعل غيورة مني على ابنتها.

قالت:

- ليس شيئا طبيعيا. كانتا من قبل غريبتين إحداهما عن الأخرى، وأعترف أنني لم أكن غاضبة من ذلك. هذه اليتيمة ربما صغيرة جدا، ولكنني لا أستطيع الإجابة عن أي شيء. هل تفهمينني؟ لقد رضعت تربيتها وعاداتها من حليب أمها. لا أفهم ماذا وجد فيها الأمير. اقترحت عليه مائة مرة أن يضعها في دير.

أرادت مدام ليوتار أن تدافع عني، ولكن الأميرة كانت بالفعل قد اتخذت قرار فراقنا. وعلى الفور استدعيت كاتيا وفي الأسفل، أبلغت أنها لن تراني حتى يوم الأحد التالي، أي خلال أسبوع.

علمت ذلك بالفعل في وقت متأخر من المساء، وذهلتِ من الرعب، فكرت في كاتيا وبدا لي أنها لن تطيق فراقنا. كنت في حالة انتشاء، وتحت تأثير القلق، والشقاء، وأثناء الليل، مرضت من جديد، وفي الصباح، جاء الأمير لرؤيتي وهمس لي بالحفاظ على الأمل.

فعل الأمير كل ما في وسعه، ولكن كان كل شيء دون جدوى: فلم تتزحزح الأميرة عن رأيها. وشيئا فشيئا، بدأ يستولي علي الشعور باليأس، من فرط ما كنت تعيسة.

في صباح اليوم الثالث، حملت ناستيا بطاقة من كاتيا. كتبت كاتيا بقلم الرصاص، بخط غير مقروء، الكلمات التالية:

«- أحبك كثيرا. أنا مع أمي وأتساءل دائما كيف أستطيع الهروب إليك. ولكنني سأهرب- قلت هذا، وإذن، لا تبكي. اكتبي

لي كيف تحبينني. قبلتك طول الليل في الحلم، عانيت بشكل رهيب، يا نيتوتشكا. سأرسل لك الحلوى. وداعا."

أجبتها بنفس اللهجة.

بكيت طوال النهار، وأنا أقرأ بطاقة كاتيا. أزعجتني مدام ليوتار بمداعباتها. في المساء، علمت أنها ذهبت إلى الأمير وقالت له إنني سأمرض من جديد مرة ثالثة، إذا لم أر كاتيا، وإنها آسفة كثيرا على الحديث مع الأميرة عن ذلك.

ألححت على ناستيا في السؤال: كيف حال كاتيا؟ فأجابتني بأن كاتيا لا تبكي، ولكنها شاحبة بشكل رهيب.

في الصباح، همست لي ناستيا:

- اذهبي إلى مكتب صاحب السعادة. انزلي من السلم الموجود على اليمين.

كان لدي شعور بالسعادة. أسرعت إلى الأسفل، لاهثة من الانتظار وفتحت باب مكتب الأمير. لم تكن هناك. وفجأة، احتضنتني كاتيا من الخلف وقبلتني بحرارة، وهي تضحك وتبكي... وفي لمح البصر، انتزعت نفسها من بين ذراعي، وتسلقت ظهر أبيها، وقفزت على كتفيه كسنجاب، ولكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها، فقفزت إلى الأسفل حتى هوت على الأريكة. وتابعها الأمير خلال سقوطها. كانت الأميرة الصغيرة تبكي من الانفعال.

- بابا، كم أنت لطيف، يا بابا!

-يا لك إذن من مشاغبة! ماذا جرى لك؟ ما هذه الصداقة؟ ما هذا الحب؟

- اسكت، يا بابا، أنت لا تفهم شيئا من شؤوننا.

ومن جديد، ارتمت كل منا في أحضان الأخرى.

وبدأت عندئذ أنظر إليها عن كثب: أصبحت هزيلة قليلا خلال هذه الأيام الثلاثة. وفقدت وجنتاها حمرتهما، وكسا وجهها الشحوب. فأخذت أبكي من الألم.

كانت ناستيا هي التي طرقت الباب. وتلك إشارة إلى طلب استدعاء كاتيا. أصبحت كاتيا شاحبة كميتة.

قال الأمير:

- يكفي، يا بُنيَتَيَّ. سنلتقي كل يوم. إلى اللقاء، بارك الله فيكما!

كان متأثرا وهو ينظر إلينا، ولكن الأمير أساء التقدير. ففي ذلك المساء نفسه، ورد خبر من موسكو بأن ساشا الصغير أصيب فجأة بمرض خطير وأنه كان تقريبا في النزع الأخير. قررت الأميرة الذهاب في اليوم التالي. حدث هذا بسرعة فائقة بحيث لم أعلم شيئا حتى لحظة وداع كاتيا. هذا الوداع، كان الأمير هو الذي أصر عليه، ولم تقبله الأميرة إلا بصعوبة. كانت عربة السفر تنتظر بالفعل أمام شرفة المدخل. صاحت كاتيا، وهي تنظر إلي، وسقطت مغمى عليها. سارعت لاحتضانها وتقبيلها. وأخذت الأميرة توقظها. استعادت وعيها أخيرا وعانقتني وقبلتني من جديد.

قالت لي، وأخذت تضحك، وعلى وجهها انفعال لا يوصف:

- وداعا، نيتوتشكا! لا تنظري إلي هكذا، لا بأس علي، لست مريضة، سأعود بعد شهر. وعندئذ، لن نفترق.

قالت الأميرة، بصوت هادئ:

- كفى، لنذهب!

ولكن كاتيا عادت مرة أخرى. وعانقتني بطريقة محمومة متشنجة.

أخذت وقتها الكافي لتهمس في أذني، وهي تضمني بين ذراعيها:

- يا حياتي! إلى اللقاء!

وتبادلنا القبل مرة أخيرة، واختفت الأميرة، مدة طويلة، مدة طويلة جدا. واستغرق الفراق ثماني سنوات قبل أن نجتمع من جديد!

تعمدت أن أحكي بكثير من التفصيل هذه الحلقة من طفولتي، والظهور الأول لكاتيا في حياتي. ولكن قصتينا غير منفصلتين. روايتها هي روايتي. كأنه كان مكتوبا علي أن ألتقيها، وكأنما كان مقدرا لها أن تجدني. ثم إنني لم أستطع أن أقاوم متعة الرجوع مرة أخرى إلى ذكريات طفولتي. والآن، ستمضي قصتي بشكل أسرع. فقد سقطت حياتي فجأة في نوع من الهدوء، وكنت كأنني أستيقظ مرة أخرى عندما كان عمري ستة عشر عاما...

ولكن- هذه بضع كلمات حول ما حدث لي عند ذهاب عائلة الأمير إلى موسكو.

بقينا مع مدام ليوتار.

وبعد أسبوعين، جاء رسول وأخبرنا بأن الرجوع إلى بطرسبورغ قد أرجئ إلى أجل غير مسمى.

ولما كانت مدام ليوتار، لأسباب عائلية، لا تستطيع الإقامة في موسكو، فإن خدماتها انتهت في منزل الأمير، ولكنها بقيت في نفس

العائلة، وانتقلت إلى بيت ألكساندرا ميخايلوفنا، البنت البكر للأميرة.

لم أقل شيئا حتى الآن عن ألكساندرا ميخايلوفنا، ولم يسبق لي أن رأيتها إلا مرة واحدة. كانت ابنة الأميرة من زواجها الأول. إن أصول وعائلة الأميرة لم تكن ذات نبل عظيم جدا، فقد كان زوجها الأول أحد المزارعين.

وعندما تزوجت الأميرة مرة أخرى، لم تعرف تماما ماذا تفعل بابنتها البكر. ولم تستطع أن تتوقع لها زوجا لامعا كثيرا. فقد كان المهر الذي يعطى من أجلها متواضعا جدا، وأخيرا، بعد أربع سنوات، نجحوا في تزويجها برجل غني ورفيع المقام. كانت ألكسندرا ميخايلوفنا قد دخلت في مجتمع آخر، ورأت حولها أناسا آخرين.

كانت الأميرة تزورها مرتين في السنة، وكان الأمير، زوج أمها، يذهب ليراها كل أسبوع، مع كاتيا.

غير أن الأميرة، في هذه الأيام الأخيرة، لم تحب أن تذهب كاتيا لرؤية أختها، وكان الأمير يقودها سرا.

كانت كاتيا تحب أختها كثيرا.

ولكن طباع الأختين كانت مختلفة كليا.

كانت ألكسندرا ميخايلوفنا امرأة في الثانية والعشرين ربيعا، لطيفة، حنونا، محبة، وكانت كأن لديها نوعا من الحزن الدفين، ونوعا من الألم الذي يلقي بظلاله الكالحة على قسماتها الرائعة. هذه الجدية، والقتامة، كانت كأنها لا تتلاءم مع البريق الملائكي لقسماتها، كالحداد بالنسبة لطفل. لا يمكن النظر إليها دون الشعور نحوها بعطف عميق.

كانت تبدو شاحبة، وكانت، كما يقال، عرضة لمرض السل، عندما رأيتها لأول مرة. كانت تعيش حياة منعزلة، ولا تحب اجتماعات في منزلها، ولا خرجات إلى عالم الناس، كالراهبة. لم يكن لها أطفال. أتذكر، عندما قدمت إلى منزل مدام ليوتار، اقتربت مني، وقبلتني، بعاطفة كبيرة.

كان واقفا إلى جانبها ويرافقها رجل نحيل متقدم في السن. كان هو عازف الكمان ب. اغرورقت عيناه بالدموع لما رآني. احتضنتني ألكسندرا ميخايلوفنا بين ذراعيها وسألتني إن كنت أريد أن أعيش عندها وأن أكون ابنتها. نظرت إلى وجهها، وعرفت فيها أخت عزيزتي كاتيا، وعانقتها، طافحة القلب بألم عميق، كأن أحدا، كان يناديني، مرة أخرى، باسم: "اليتيمة"! وعندئذ أظهرت لي رسالة من الأمير. كانت فيها بضع كلمات عني، قرأتها وأنا أنتحب. باركني الأمير وتمنى لي حياة سعيدة، وطلب مني أن أحب ابنته الأخرى. كاتيا أيضا كتبت لي بضع كلمات. ذكرت أنها الآن لن تفارق أمها أبدا!

وإذا بي، في ذلك المساء نفسه، أدخل إلى عائلة أخرى، ودار أخرى، عند أناس جدد، بعد أن انفصل قلبي مرة أخرى عن كل ما كان حبيبا لدي، وما صار قريبا إلي. وصلت مستنفدة، وممزقة من الألم النفسي...

وهنا تبدأ قصة جديدة.

الفصل السادس

مرت حياتي الجديدة هانئة جدا، وهادئة تماما، كما لو أنني كنت أعيش بين نساك... أقمت عند أولياء أمري أكثر من ثماني سنوات، ولا أتذكر، طوال هذا الوقت، ما عدا بعض الاستثناءات النادرة، أن هناك سهرة في المنزل، أو حفلة عشاء أو حتى اجتماعا عائليا، مع أصدقاء أو معارف. لم نكن نرى أحدا، باستثناء شخصين أو ثلاثة أشخاص، من العابرين على فترات، والموسيقي ب. صديق المنزل، وأولئك الذين كانوا يزورون زوج ألكسندرا ميخايلوفنا، من أجل أعمال تجارية دائما تقريبا. كان زوج ألكسندرا ميخايلوفنا منصرفا باستمرار إلى أعماله وخدماته ولا يستطيع أن يأخذ إلا نادرا جدا قليلا من وقت الفراغ، الذي كان يقسمه مناصفة بين الأسرة والحياة الاجتماعية.

إن العلاقات العليا، التي كان من المستحيل عليه أن يهملها، كثيرا ما كانت تضطره إلى تذكر الحياة الدنيا. كانت الشائعات تتحدث عن طموحه وحب الذات اللامحدود لديه، ولكن بما أنه كان يتمتع بسمعة رجل أعمال جاد، وموثوق به، ويحتل مكانا بارزا جدا، ويبدو أن الحظ والنجاح كانا يبتسمان له، فإن الإشاعة لم تلطخ قط التعاطف الذي كان يحظى به.

وأكثر من ذلك، أيضا. كان الناس جميعا يشعرون نحوه دائما بتعاطف خاص، بينما كانت زوجته، بالعكس، محرومة منه تماما.

كانت ألكسندرا ميخايلوفنا تعيش في وحدة تامة، ولكن كان يبدو كأنها سعيدة بذلك. كانت طبيعتها الوديعة كأنما خلقت لحياة العزلة.

تعلقت بي بكل روحها، وأحبتني كابنتها، وأنا، لما كانت دموعي بعد ساخنة في عيني من جراء فصلي عن كاتيا وكان قلبي لا يزال يتألم من فراقها، فقد اندفعت بشغف نحو الأحضان الأمومية للمحسنة إلي. ومنذ ذلك اليوم، لم تفتر أبدا حرارة الحب الذي كنت أكنه لها.

كانت بالنسبة إلي أما، وأختا، وصديقة، وقد عوضت لي كل شيء في الدنيا، ورعت شبابي.

وفضلا عن ذلك، تعلمت بسرعة كبيرة أن ألاحظ بالغريزة، والحدس، أن مصيرها كان بعيدا عن أن يكون سعيدا جدا، كما كان يمكن الحكم عليه من النظرة الأولى إلى حياتها التي كانت تبدو هادئة تماما، وإلى الحرية الظاهرية، والابتسامة الواضحة والهادئة والمشرقة غالبا على وجهها، ولذلك كان كل يوم من تطوري يشرح لي شيئا في مصير المحسنة إلي، شيئا كان قلبي قد بدأ يخمنه، بألم وببطء، وجنبا إلى جنب مع هذا الوعي المؤلم، نما تعلقي بها واشتد على نحو متزايد.

كانت ضعيفة وخجولة الطبع. وعند التطلع إلى قسمات وجهها المشرقة، والهادئة، لا يمكن لأحد أن يفترض من أول نظرة أن قلقا ما كان يستطيع أن يعكر صفو نفسها العادلة.

كان من المستحيل أن يتخيل المرء أنها قادرة على أن لا تحب أي شخص، فالشفقة كانت تتغلب دائما في روحها حتى على النفور نفسه، - ومع ذلك، لم تكن مرتبطة إلا بعلاقة صداقة نادرة، وكانت تعيش في عزلة تامة...

كانت عاطفية، وحساسة، بطبيعتها، ولكنها، في الوقت نفسه، كانت كأنها تخاف من أحاسيسها، كما لو كانت، في كل لحظة، تحرس قلبها، وتمنعه من الخفقان بشدة، حتى في أحلامها. أحيانا، فجأة، وفي أصفى اللحظات، كنت ألاحظ الدموع في عينيها: كما لو انبثقت في روحها فجأة أية ذكرى مؤلمة ومزقت ضميرها بقسوة، كأن هناك شيئا كان يحدق بسعادتها ويعكرها بحنق.

كان يبدو كأنها كلما ازدادت سعادة، كلما كانت اللحظة من حياتها تزداد صفاء وهناء، كلما كان الألم يزداد اقترابا منها، وكلما كان يشتد احتمال الحزن المداهم، والدموع: كانت كما لو أن أزمة ألمت بها.

لا أتذكر شهرا واحدا من الراحة والهدوء في كل هذه الثماني سنوات.

من الواضح أن زوجها كان يحبها كثيرا، وهي، كانت ولهى به. ولكن، من النظرة الأولى، كان كأن هناك شيئا ما مسكوتا عنه بينهما. كان كأن هناك سرا في مصيرها، هذا، على الأقل، ما أخذ يراودني الشك فيه منذ اللحظة الأولى...

منذ البداية، اترك لدي زوج ألكسندرا ميخايلوفنا انطباعا قاتما جدا. نشأ هذا الانطباع في طفولتي، ولم يتلاش أبدا.

في المظهر، كان رجلا طويلا، نحيلا، وكان يبدو كأنه يحاول إخفاء عينيه تحت نظارتيه الخضراوين الواسعتين. كان منطويا على نفسه قليلا، جافا، وحتى وجها لوجه مع زوجته، كأنه لم يكن يجد مواضيع للحديث.

من الواضح أنه كان يشعر بالملل من الناس. أنا، لم يعرني أي انتباه، ومع ذلك، كلما وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة في صالون ألكسندرا ميخايلوفنا لتناول الشاي، كنت أشعر حقا أنني غير مرتاحة في حضرته.

كنت أختلس النظرات إلى ألكسندرا ميخايلوفنا وألاحظ بقلق أنها هي أيضا، كانت كأنها ترتعد أمامه، كما لو كانت تفكر في أدنى حركاته، ويشحب لونها كلما لاحظت أن زوجها صار بصفة خاصة صعبا وكتوما، أو أنها كانت فجأة تحمر كليا، كما لو كانت تنتظر أو كأنها كانت تخمن إشارة محددة في كلمات زوجها.

كنت أشعر أنه كان من الصعب عليها أن تكون معه، إلا أنها، دون شك، لم تكن تستطيع العيش لحظة بدونه.

كان يدهشني هذا الاهتمام غير العادي الذي كانت توليه له، ولكل كلمة أو حركة تصدر عنه، كأنها كانت تسعى، بكل ما أوتيت من قوة، إلى أن ترضيه، لا أدري كيف، وكما لو كانت تشعر أنها غير قادرة على تحقيق هذه الرغبة.

كأنها كانت تتوسل رضاه: أية بسمة مرتسمة على وجهه، ربع كلمة لطيفة- وإذا بها تغدو حالا سعيدة، تماما كاللحظات الأولى من حب لا يزال خجولا، وبلا أمل.

كانت تهتم بزوجها كالاهتمام برجل مصاب بداء خطير.

حين كان يعود إلى مكتبه، بعد أن يشدّ على يد ألكسندرا ميخايلوفنا، التي كان ينظر إليها، حسب انطباعي، على الأقل، بنوع من الشفقة، التي ما كان يمكن إلا أن تؤلمها، وعندئذ كانت تتغير كليا. كانت حركاتها، وأحاديثها تصبح فورا أكثر انشراحا وانطلاقا.

ولكن بعض الاضطراب الغريب كان يبدو عليها لفترة طويلة بعد انسحاب زوجها، وعلى الفور كانت تعيد التفكير في كل كلمة قالها، كما لو كانت تزن كل كلمة فاه بها. وفجأة، كانت تسألني: أهذا ما سمعت. هكذا، بالضبط، عبّر؟ كأنها كانت تبحث عن أي معنى آخر في ما قال، ولم تكن تستعيد نشاطها تماما ربما إلا بعد ساعة كاملة، كما لو كانت مقتنعة بأنه كان راضيا عنها تماما، وبأنها كانت مخطئة في قلقها.

وفجأة، كانت تصبح طيبة، فرحة، وسعيدة، وتقبّلني، وتضحك معي، أو تأتي إلى البيانو، وترتجل لحنا، لمدة ساعتين كاملتين.

ولكن فرحها غالبا ما كان ينقطع فجأة: كانت تنفجر بالبكاء، وعندما كنت أنظر إليها، بكامل القلق، والاضطراب، والرعب، كانت تقبّلني على الفور، وهي تهمس في أذني، كما لو كانت تخشى أن يسمعونا، قائلة إن الدموع، من هذا القبيل، لا شيء على الإطلاق، وإنها سعيدة جدا، ولا ينبغي لي أن أتألم.

في بعض الأحيان، أثناء غياب زوجها، كانت تقلق فجأة، وتسأل عن أخباره، وتصبح مشغولة البال: كانت ترسل بعض الأشخاص لمعرفة ماذا كان يفعل، كانت تسأل خادمتها لماذا أسرج

الخيول، وإلى أين كان يريد الذهاب، وأليس مريضا، وهل كان بشوشا أو كئيبا، وماذا قال وهلم جرا.

أما أعماله ومشاغله فلم تكن تجرؤ حتى على التطرق إليها معه. وعندما كان ينصحها بشيء، أو يطلب منها أمرا، كانت تصغي إليه بخضوع تام، وبخوف شديد، حتى ليمكن للمرء أن يتصور أنها كانت أمة عنده.

كانت تفرح حين يجاملها على هذا الشيء أو ذاك، على موضوع، على كتاب، وعلى عمل قامت به. يبدو كأن ذلك كان يدغدغ كبرياءها، وعلى الفور كانت تغدو سعيدة.

ولكن لا تخوم لأفراحها حين كان يخطر على بال زوجها بالمصادفة "كان ذلك يحدث نادرا جدا" أن يداعب طفليه. وفي هذه اللحظة، كان يشرق وجهها، ويتألق بالسعادة، وخلال هذه الدقائق، كان يحدث حتى أن تنغمس جدا في فرحتها أمام زوجها.

كانت تستطيع، على سبيل المثال، أن تمضي بعيدا في جرأتها، بحيث كانت، فجأة، من تلقاء نفسها، دون أن يطلب منها شيئا، أن تقترح عليه، طبعا، بصوت خجول، وهي ترتجف كليا، إما أن يسمع موسيقى جديدة توصلت بها، وإما أن يقول لها رأيه في هذا الكتاب أو ذاك، أو حتى أن يسمح لها بقراءة صفحة أو صفحتين لهذا الكاتب أو ذاك، الذي ترك لديها انطباعا خاصا في ذلك اليوم.

في بعض الأحيان، كان زوجها يستجيب لكل رغباتها بعطف ويمنحها حتى ابتسامة متسامحة، كما يبتسم لطفل صغير مدلل لا

يمكن أن ترفض له نزوة غريبة، خوفا عليه من الحزن وتعكير براءته قبل الأوان وبعنف زائد عن الحد. ولكن، لا أدري لماذا، استأت أنا عميقا بهذه الابتسامة، وهذا التسامح المتعالي، وهذا التفاوت بينهما، فلزمت الصمت، وتمالكت نفسي، واكتفيت بمراقبة ما كان يجري بفضول طفولي، ولكن أيضا بفكر حاد وصارم قبل الأوان.

ومرة أخرى، لاحظت، كما لو أنه فجأة، ثاب إلى رشده، رغما عنه، كما لو أنه صحا، كما لو أنه فجأة، مكرها، وعلى مضض، تذكر شيئا ما مؤلما، رهيبا، لا مفر منه، وفي لحظة، تلاشت ابتسامة التسامح من وجهه وحدق فجأة في زوجته المذهولة بتلك الشفقة التي ارتعدت منها ولو أن هذه الشفقة كانت موجهة إلي، كما أتصورها الآن، لارتعبت منها رعبا شديدا. وفي اللحظة ذاتها اختفت الفرحة من وجه ألكسندرا ميخايلوفنا. وتوقفت الموسيقى أو القراءة، وامتقع لونها ولكنها تمالكت نفسها وسكتت. جاءت لحظة غير سارة، لحظة كئيبة، كانت أحيانا تستمر طويلا.

وأخيرا، وضع زوجها حدا لها. نهض من مكانه، كأنه كان يبذل جهدا رهيبا ليكبح في نفسه الغيظ والانفعال، وبعد أن ذرع الغرفة جيئة وذهابا، في صمت كئيب، شدّ على يد زوجته، وتنفس بعمق، وبارتباك واضح، قائلا كلمات متقطعة، تنمّ عن الرغبة في مواساتها، خرج من الغرفة، بينما انهمرت دموع ألكسندرا ميخايلوفنا، أو استغرقت في حزن رهيب، طويل. في بعض الأحيان، كان يباركها، ويعمدها بعلامة الصليب، كطفلة، وهو يودعها في المساء، وكانت تتلقى هذه البركة بدموع الامتنان والإجلال.

ولكنني لا أستطيع أن أنسى بعض الأمسيات في منزلنا "اثنتين أو ثلاثا، على الأكثر، في غضون ثماني سنوات" عندما كان يبدو كأن ألكسندرا ميخايلوفنا كانت تتغير كليا.

كان ينعكس على وجهها الهادئ عادة نوع من الغضب، نوع من الاستياء، ويمحو هذا الهوان أمام زوجها وتبجيله الدائم.

في بعض الأحيان كانت العاصفة على وشك أن تهبّ، وكان زوجها يصبح هادئا، صعبا، وقليل الكلام أكثر من المعتاد.

وأخيرا، كان يبدو كأن قلب البائسة المريض لم يعد يستطيع احتمالا.

بدأت، بصوت يرتعش من الانفعال، حديثا كان أولا لاهثا، بلا رابط، مليئا بشتى التلميحات والكثير من الكلام المرير المسكوت عنه، ثم، كأنها لم تعد تطيق قلقها، انفجرت فجأة بالبكاء، والنحيب، وأعقب ذلك انفجار من السخط ، واللوم، والشكوى، واليأس،- كما لو كانت في حالة هستيرية.

وهنا، كان ينبغي أن يُرى بأي صبر تحمّل زوجها هذه الأزمة العصبية، وبأيّ عطف أقنعها بأن تهدّئ روعها، كان يقبّل يديها، بل أخذ في النهاية حتى يبكي معها، وعندئذ، بدا فجأة كأنها ثابت إلى رشدها، وكما لو أن ضميرها أخذ يصرخ فيها ويقنعها بأنها ارتكبت جريمة.

أثارها بكاء زوجها، وبعد أن هزّت ذراعيها، في يأس، ويتنهدات متشنجة، طلبت منه المغفرة، جاثية عند قدميه، وتلقت المغفرة فورا.

ولكن تأنيب وتعذيب ضميرها استمر طويلا، مع الدموع، وتوسلات الغفران، وازدادت خجلا، واضطرابا أمامه، طوال شهور عديدة.

لم أفهم شيئا من كل هذا اللوم والاستياء، إذ كانوا دائما يخرجونني من الغرفة، في تلك اللحظات، وبطريقة دائما خرقاء.

ولكنهم لم يتمكنوا من الاختباء تماما. كنت أراقب، وألاحظ، وأخمن، ومنذ البداية، تسلّل شكّ قاتم إلى نفسي، إن ما كان هناك نوعا من السر في كل ذلك، هو أنه لم يكن مجانا أن زوجها كان منغلقا جدا، لم يكن بلا ثمن أنه كان يظهر هذا النوع من العطف المشكوك فيه نحو زوجته المريضة والبائسة، لم يكن من أجل لاشي، هذا التهيب المستمر، وهذا الارتجاف أمامه، وهذا الحب المهان، الغريب، الذي لم تكن تجرؤ حتى على أن تبوح به أمام زوجها، وهذا الاحمرار وهذا الشحوب المفاجئان على وجهها في حضرة زوجها.

ولكن مشاهد من هذا النوع مع زوجها كانت نادرة إلى أقصى الحدود، لأن حياتنا كانت رتيبة جدا، وأنني كنت أراقبها عن كثب، بقدر ما كنت أتطور وأنمو بسرعة كبيرة، ولكن أحاسيس جديدة كثيرة كانت تستيقظ في نفسي، رغم أنني كنت دون وعي أتسلى بملاحظاتي.

وانتهيت أخيرا إلى الاعتياد على هذا النوع من الحياة وهذه التقاليد، وعلى طباع هؤلاء الناس الذين كانوا يحيطون بي. كان من المستحيل علي طبعا أن لا أفكر أحيانا وأنا أنظر إلى ألكسندرا ميخايلوفنا، ولكن أفكاري لم تفض إلى أي شيء.

أحببتها كثيرا، واحترمت قلقها، ولذلك كنت أخاف أن أجرح قلبها العاطفي بفضولي. كانت تفهمني، ومرات عديدة كانت مستعدة لتشكرني على تعلقي بها! في بعض الأحيان، حين تلاحظ قلقي، كانت تبتسم غالبا من خلال الدموع، وتسخر هي نفسها من هذه الدموع المتكررة، وفي أحيان أخرى، كانت فجأة تحكي لي أنها كانت سعيدة جدا، سعيدة للغاية، أن الناس جميعا كانوا لطفاء معها، أن جميع الناس الذين عرفتهم كانوا دائما يحبونها كثيرا، أنها كانت قلقة جدا لأن بيوتر ألكسندروفيتش كان مهموما دائما بسببها، ومن أجل راحة بالها، بينما هي بالعكس، كانت سعيدة جدا، بل في منتهى السعادة!... وهنا، عانقتني بشعور عميق جدا، وأشرق وجهها بذلك الحب الذي جعل قلبي، إذا جاز القول، يعاني من الإشفاق عليها.

أبدا لن تنمحي ملامح وجهها من ذاكرتي. كانت قسماتها متناسقة، ويبدو أن الهزال والشحوب كانا يضفيان على جمالها مزيدا من السناء والبهاء.

كان شعرها الأسود، الكثيف، المرجل والمسدل على رقبتها، يرسل ظلا شديدا وحادا على تخوم وجنتيها، ولكن ما كان فاتنا ومذهلا بالخصوص، وعلى النقيض من ذلك، هو الحب الذي كان مشعا من نظرتها الحنون، وعينيها الزرقاوين الواسعتين الطفوليتين والصافيتين، ومن بسمتها الخجولة، ومن كل هذا الوجه الوديع والشاحب الذي كان ينعكس عليه في بعض الأحيان الكثير من السذاجة، والفتور، كأنه بلا حماية، كأنه خائف من كل إحساس، ومن كل ميل للقلب، ومن لحظات الفرح والحزن الهادئ المتكرر.

ولكن، في لحظة أخرى سعيدة، لا يشوبها قلق، كنت ترى في هذه النظرة الثاقبة، والنافذة إلى قلبك، الكثير من البريق، والكثير من النور، المشع كضياء النهار، والكثير من الصفاء الناصع جدا، وكانت عيناها الزرقاوان، اللازورديتان، تشرقان بحب، وتنظران برقة، وينعكس فيهما دائما شعور عميق التعاطف نحو كل ما كان نبيلا، وكل ما كان ينشد الحب، ويدعو للرحمة، فكانت الروح تخضع لها كليا، وتندفع نحوها لا إراديا، ويبدو كأنها كانت تستمد منها هذا البريق، وهذا السلام الروحي، والمصالحة، والحب.

وهكذا، في أوقات أخرى، عندما نتطلع إلى السماء الزرقاء، نشعر أننا على استعداد لقضاء ساعات كاملة في هذا التأمل اللذيذ والسعيد، ونحس بأن الروح تغدو، في هذه اللحظة، أكثر حرية وسكينة، تماما كما لو كانت تنعكس عليها، مثلما تنعكس على صفحة المياه الهادئة، القبة السماوية العظيمة.

ولكن عندما- كثيرا ما يحدث هذا- كان يتورد وجهها، ويهتز صدرها من الانفعال، كانت عيناها عندئذ تلتمعان كالبرق، كأنهما كانتا تقدحان شررا، وكما لو أن روحها، المحافظة بطهارة على صفاء لهب الجمال، الذي كان يبعث فيها الحياة الآن، كانت تنتقل كلها إلى مقلتيها. وفي هذه اللحظات، كانت كالملهمة.

خلال هذه النوبات غير المتوقعة من الهيجان، وهذه التحولات من مزاج هادئ، وخجول، إلى حيوية عالية، ومستنيرة، إلى حماس نقي، وصارم، كان هناك الكثير من السذاجة، والكثير من التسرع الصبياني، والكثير من الإيمان الطفولي، بحيث يبدو أن فنانا، كان يمكن أن يقدم نصف حياته ليلاحظ هذه اللحظة من

الفرح المشرق وينقل هذا الوجه الملهم إلى قماشة لوحته.

منذ اليوم الأول لوصولي إلى هذا المنزل، رأيت أنها كانت حتى سعيدة بحضوري في عزلتها. لم يكن لها يومئذ غير طفل واحد، ولم تصبح أما إلا منذ عام. ولكنني كنت ابنتها تماما، ولم تجعل أي فرق بيني وبين طفليها. بأي حماس تولت تعليمي! اندفعت بقوة، في البداية، حتى أن مدام ليوتار لم تستطع كبح ابتسامتها، وهي تنظر إليها.

في الواقع، كان الأمر كما لو أننا بدأنا كل شيء دفعة واحدة، بحيث إننا وجدنا حتى مشكلة في التفاهم. مثلا، بدأت تعطيني دروسا وحدها، دفعة واحدة، وحول أشياء كثيرة، ولكن كثيرا من الأمور بحيث أدى ذلك من جانبها إلى المزيد من الحمى، والمزيد من الحماس، والمزيد من نفاذ الصبر الجميل العاشق المحب أكثر مما أدى إلى فائدة حقيقية بالنسبة إلي.

في البداية، حزنتْ من عدم قدرتها، ومع ذلك، بعدما انفجرت بالضحك، بدأنا من جديد، حتى وإن كانت ألكسندرا ميخايلوفنا، رغم فشلها الأول، قد أعلنت بجرأة معارضتها لنظام مدام ليوتار. كانتا تتجادلان وهما تضحكان، ولكن معلمتي الجديدة أعلنت بشكل قاطع أنها ضد فكرة النظام، مؤكدة أننا، هي وأنا، سوف نتلمس طريقنا في المسار الصحيح، وأنه لا ينبغي حشو دماغي بمعارف غير مجدية، وأن النجاح كله يتوقف على تنمية قدراتي وإيقاظ نيتي الحسنة، وكانت على حق، لأنها أحرزت نجاحا كاملا. أولا، ومنذ البداية، اختفى تماما دور التلميذ والمعلمة. كنا ندرس مثل صديقتين، وفي بعض الأحيان، كان يحدث أن أبدو

كأنني أنا التي أعلم هذا الشيء أو ذاك لألكسندرا ميخايلوفنا، دون أن تدرك الخدعة.

لذلك، غالبا ما كانت تنشأ بيننا مناقشات مثيرة، فكنت أغتاظ بكل ما أوتيت من قوة لمحاولة إثبات الشيء كما كنت أفهمه، وبصورة تدريجية، وضعتني ألكسندرا ميخايلوفنا على الطريق الصحيح. ومع ذلك، في نهاية المطاف، عندما وصلنا إلى الحقيقة، خمنت فجأة، وكشفت عن خدعة ألكسندرا ميخايلوفنا، ولما أدركت كل الجهود التي بذلتها من أجلي، وأحيانا، لساعات كاملة، صرت أرتمي على رقبتها بقوة بعد كل درس. أدهشتها حساسيتي وأثرت فيها حتى الحيرة والذهول.

كانت قد بدأت تسألني بحب استطلاع وفضول عن ماضي، راغبة في معرفته مني، وفي كل مرة، بعد حكاياتي، كانت تعاملني بمزيد من الرقة والحنان والجدية، الجدية لأنني بطفولتي البائسة، أَثرت فيها شفقة ممزوجة بالاحترام.

بعد اعترافي، انخرطنا عموما في أحاديث طويلة كانت خلالها هي التي تشرح لي ماضي، بحيث كنت كأنني أعيشه من جديد فعلا، وأتعلم كثيرا من الأشياء الجديدة.

كانت مدام ليوتار ترى غالبا هذه الأحاديث خطيرة جدا، واعتبرتها في غير محلها تماما، عندما رأت دموعي اللاإرادية. أما أنا، فكنت على العكس تماما، لأنني بعد هذه الدروس، أصبحت سهلة ووديعة، كما لو لم يكن هناك شيء بئيس في حياتي. وفضلا عن ذلك، كنت ممتنة جدا لألكسندرا ميخايلوفنا، لأنها كانت في كل يوم تجعلني أحبها أكثر فأكثر.

ولم تستطع مدام ليوتار أن تفهم أنه على هذا النحو، كان، شيئا فشيئا، يستوي ويأتي منسجما تماما، كل ما كان، من قبل، يصعد من روحي بطريقة فوضوية، عاصفة، ومبكرة، ولم تدرك إلى ماذا وصل قلبي الطفولي، الذي كان، طافحا بألم مبرح، يتصلب في مثل هذا الظلم، شاكيا باكيا من هذا الألم، دون فهم من أين تأتي الضربات.

في بداية يومنا، كنا نجتمع في حجرة نوم طفلها، أيقظناه، نظفناه، ألبسناه ثيابه، أطعمناه، سليناه، وعلمناه الكلام. وأخيرا، تركنا الطفل وانهمكنا في العمل.

تعلمنا أشياء كثيرة، ولكن يعلم الله أي علم.

كان هناك كل شيء، وفي نفس الوقت، ليس هناك شيء محدد. قرأنا معا، تبادلنا الآراء، تركنا الكتاب جانبا واستمعنا للموسيقى، وانقضت ساعات كاملة دون أن ننتبه إليها.

في المساء، كان يأتي عادة السيد ب. الذي كان صديقا لألكسندرا ميخايلوفنا، وكنا نستقبل أيضا مدام ليوتار.

وكثيرا ما كانت تجري مناقشة حادة عن الفن، والحياة (التي كنا، في دائرتنا، لا نعرفها إلا عن طريق القيل والقال) وعن الواقع والمثل، والماضي والمستقبل، وكان يحدث غالبا أن نظل هكذا نتحدث حتى ما بعد منتصف الليل. أنا، كنت أصغي بشغف، كنت أهيم مع الآخرين، كنت أضحك أو أحزن. وخلال هذه الأحاديث علمت بتفصيل كل ما كان يتعلق بأبي وأمي وطفولتي الأولى.

وفي الوقت نفسه، كنت أشبّ عن الطوق. استأجروا لي معلمين، ما كنت، بدون ألكسندرا ميخايلوفنا، لأتعلم منهم شيئا. مع معلم

الجغرافيا، كنت أعمي عيني فقط بالبحث عن مدن وأنهار. مع ألكسندرا ميخايلوفنا، انطلقنا في مثل هذه الرحلات، زرنا مثل هذه المدن، رأينا أشياء كثيرة عجيبة، أمضينا ساعات كثيرة، مثيرة، رائعة، وكانت حماستنا قوية جدا، بحيث إن الكتب التي قرأتها أصبحت، أخيرا، غير كافية: فاضطررنا إلى تناول كتب جديدة.

وسرعان ما استطعت أنا نفسي أن أظهر لمدرسي الجغرافيا كل ما يشاء، ولو أنه، هنا أيضا، يجب إنصافه، فقد ظل حتى النهاية متفوقا علي بمعرفته الكاملة والتامة لخطوط طول وعرض أي مدينة، فضلا عن عدد سكانها.

مدرس التاريخ أيضا كان يتقاضى أجره بانتظام تام، ولكن، حالما كان يمضي، كنا ألكسندرا وأنا ندرس التاريخ على طريقتنا الخاصة: كنا نتناول كتبا ونستغرق في القراءة أحيانا حتى وقت متأخر من الليل، أو بالأحرى، ألكسندرا ميخايلوفنا هي القارئة، لأنها هي التي كانت تسهر على الرقابة.

لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذه البهجة إلا أثناء هذه القراءات. كنا في غاية الحيوية كأننا نحن أيضا من الأبطال.

طبعا، كنا نقرأ ما بين السطور أكثر مما نقرأ السطور، ومن ناحية أخرى، كانت ألكسندرا ميخايلوفنا، تجيد الحكي، لذلك، كان كل ما نقرأ يبدو كأنه جرى أمام عينيها. ولا يهم، إذا كان ذلك ربما مضحكا، وإذا اشتد حماسنا، وبقينا هناك إلى ما بعد منتصف الليل، أنا - الطفلة، وهي - ذات القلب الجريح، الذي كان يتحمل الحياة بصورة مؤلمة للغاية! كنت أعرف أنها كما يبدو كانت

ترتاح بقربي. أتذكر أنني، أحيانا، كنت أبقى مستغرقة في التفكير بشكل غريب وأنا أتأملها، وكنت أخمن أنني، حتى قبل أن أقبل على الحياة، قد فهمت بالفعل أشياء كثيرة في الحياة.

وأخيرا بلغت ثلاث عشرة سنة. وفي هذا الوقت نفسه، كانت الحالة الصحية لألكسندرا ميخايلوفنا تتدهور باستمرار. فقد أصبحت شديدة الغضب، واستفحلت لديها نوبات الحزن الميؤوس منها. كان زوجها يزورها مرارا وتكرارا، ويبقى إلى جانبها، وبطبيعة الحال، كما كان من قبل، صامتا تقريبا، وصارما وقاتما، ولمدة كانت تطول أكثر فأكثر.

أصبحت أهتم بمصيرها اهتماما كبيرا.

كنت قد خرجت بالفعل من مرحلة الطفولة، وكانت تتشكل في داخلي كثير من الإحساسات الجديدة، وشتى الملاحظات، والهوايات، والافتراضات.

ومن الواضح أن الغموض الذي كان يسود في هذه العائلة صار يقلقني بشكل متزايد. كانت هناك لحظات، خيل إلي فيها أنني أفهم شيئا من هذا الغموض. وفي لحظات أخرى، كنت أقع في اللامبالاة، وعدم الاكتراث، وحتى في الانزعاج، وأنسى فضولي، دون أن أجد لأسئلتي أي جواب.

أحيانا وكان يحدث هذا بشكل متزايد - كنت أشعر بالرغبة في أن أبقى وحيدة وأن أفكر دائما: كانت اللحظة الحالية تشبه ذلك الوقت الذي عشته في بيت والدي، عندما كنت، في البداية، قبل أن أرتبط بأبي، أفكر، سنة كاملة، كنت أفكر، وأنا أراقب، من

زاويتي، العالم من حولي، حتى أنني انتهيت إلى العيش متوحشة تماما بين الأشباح الغريبة التي خلقتها أيضا.

كان الفرق أن هناك الآن الكثير من نفاد الصبر، الكثير من القلق، الكثير من الاندفاعات الجديدة، غير الواعية، الكثير من التعطش للحركة، والتعطش للمحاولة، لدرجة أنني لم أستطيع التركيز على شيء واحد، كما كان من قبل. كان يبدو كأن ألكسندرا ميخايلوفنا أصبحت تُعرض عني. في مثل هذه السنّ، لم أعد تقريبا قادرة على أن أكون صديقة لها. لم أعد طفلة، وكنت أطرح الكثير من الأسئلة وغالبا ما كنت أنظر إليها حتى أنها كانت تضطر إلى أن تخفض عينيها.

كانت هناك لحظات غريبة. لم أكن أحتمل أن أرى دموعها، وغالبا ما كانت تغرورق عيناي بالدموع عندما كنت أتطلع إليها. كنت أسرع إلى رقبتها وأعانقها بحرارة. بماذا كان يمكن أن تجيبني؟ شعرت كأنني عبء عليها. ولكن، في لحظات أخرى- وكانت لحظات صعبة، ومؤلمة- كانت هي نفسها، كما في نوع من اليأس، تعانقني وهي متشنجة، كما لو كانت تتوخى شفقتي، كما لو كانت لا تطيق وحدتها، وكأنني كنت، في هذه المرة، أفهمها حقا، وأننا كنا نعاني من نفس الألم. ولكن كان هناك مع ذلك بيننا سر، كان هذا واضحا، وفي هذه اللحظات، بدأت أنا نفسي أبتعد عنها. كنت متضايقة معها. وفضلا عن ذلك، كانت تربطنا أشياء قليلة، عدا الموسيقى. ولكن الموسيقى بدأ يحظرها عليها الأطباء. الكتب؟ ولكن هذا هو الأمر الأصعب. لم تعرف قطعا كيف تقرأ معي. طبعا، كنا سنتوقف عند الصفحة الأولى: كل كلمة كان يمكن أن تكون تلميحا، وكل عبارة تافهة لغزا، فتجنبنا، أنا وهي، كل حوار صادق، وحار.

وفي هذه اللحظة، وعلى حين غرة، وبصورة غير متوقعة تماما، حول القدر حياتي إلى وجهة غريبة. فجأة، كل شيء، انتباهي، مشاعري، قلبي، فكري، بكل قوة في كياني، وصلت حتى إلى حد الحماس، قد اتجه فجأة نحو نشاط آخر، مختلف، غير متوقع تماما، وأنا نفسي، دون أن أنتبه لذلك، رأيتني أنتقل إلى عالم جديد، ولم يكن لدي الوقت للتراجع، والنظر حولي، والتفكير من جديد، كان يمكن أن أهلك، وأحسست بذلك أيضا، ولكن الغَواية كانت أقوى من الخوف، وانطلقت عشوائيا، مغمضة العينين. لقد تشاغلت طويلا عن هذا الواقع الذي بدأ يلقي بثقله علي، وبحثت عن مخرج منه، بنفاد صبر وبلا فائدة.

وهذا هو المراد وكيف حدث ذلك.

من غرفة الطعام كانت هناك ثلاثة مخارج الأول إلى الغرف الكبيرة، الآخر إلى غرفتي وغرفة الأطفال، والثالث يؤدي إلى المكتبة. كان هناك أيضا مخرج آخر إلى المكتبة، الذي لم يكن يفصله عن غرفتي إلا مكتب عمل، كان يشتغل فيه عادة مساعد بيوتر ألكسندروفيتش، الذي هو في الآن ذاته سكرتيره وخادمه الأمين. هو الذي كان يحتفظ بمفتاح الخزائن والمكتبات.

ذات يوم، بعد العشاء، عندما لم يكن في المنزل، وجدت المفتاح على الأرض. دفعني الفضول، وحفزتني لقيتي، فدخلت إلى المكتبة.

كانت حجرة كبيرة جدا، مشرقة جدا، مغطاة الجدران بدائرة من ثماني خزائن مملوءة كلها بالكتب. كانت هناك في الواقع الكثير من الكتب، التي حصل على معظمها عن طريق الإرث. وجزء آخر منها جمعتها ألكسندرا ميخايلوفنا، التي كانت تقتنيها بلا انقطاع.

وحتى ذلك الحين، كانوا يسمحون لي بقراءتها بحذر شديد، لذلك خمنت دون صعوبة أنهم كانوا يحظرون علي الكثير منها وأن الكثير كان بالنسبة إلي لغزا. وهذا هو السبب في أنني، بفضول لا يمكن كبحه، وفي نوبة من الخوف والفرح، وبنوع من الشعور الخاص وغير الواعي، فتحت أول خزانة وأخرجت منها أول كتاب.

كانت هذه الخزانة تحتوي على روايات، أخذت منها واحدة، وأغلقت الخزانة ثم حملت الكتاب بشعور غريب جدا، وقلب خافق بعنف، كما لو كنت أتوقع أن تغييرا كبيرا كان يحدث في حياتي. دخلت إلى غرفتي، أغلقت الباب، وفتحت الرواية. ولكنني لم أتمكن من القراءة، إذ كان بالي مشغولا بشيء آخر: كان علي أولا أن أتأكد نهائيا من حيازتي الآمنة للمكتبة، بحيث لا يمكن لأي شخص أن يخامره الشك، وحتى أستطيع الحصول على أي كتاب متى أشاء. لذلك أجلت دواعي سروري إلى لحظة ملائمة أكثر.

أرجعت الكتاب إلى مكانه وأخفيت المفتاح في غرفتي. وكان ذلك أول عمل سيئ في حياتي. كنت أتوقع العواقب السيئة، لكن كل شيء مر على ما يرام: بعد أن بحث سكرتير ومساعد بيوتر ألكسندروفيتش عن المفتاح طوال المساء وهزيعا من الليل، بشمعة، على الأرض، قرر في الصباح أن يدعو صانع الأقفال، الذي اختار له مفتاحا جديدا من سلسلة المفاتيح التي أحضرها.

توقف الأمر هنا، ولم يسمع أي شخص آخر عن اختفاء المفتاح، وأنا تصرفت بطريقة حذرة وماكرة جدا، فلم أعد إلى المكتبة إلا بعد أسبوع، حين تأكدت تماما أنني في مأمن من كل الشبهات. في البداية، كنت أختار اللحظات التي يكون فيها

السكرتير غائبا، ثم، أخذت أمر من قاعة الطعام، لأن سكرتير بيوتر ألكسندروفيتش لم يكن لديه إلا المفتاح في جيبه ولكن لا علاقة له بالكتب، ولم يدخل قط حتى إلى الحجرة التي توجد فيها.

بدأت أقرأ بنهم، وسرعان ما فتنت بالقراءة تماما.

كل احتياجاتي الجديدة، كل تطلعاتي الأخيرة، كل الرغبات التي كانت لا تزال غامضة في سن مراهقتي، والتي كانت تنتفض في روحي بطريقة مقلقة للغاية، وعاصفة جدا، والتي كانت ناجمة عن تطوري العقلي المبكر جدا، - كل ذلك، اندفع، فجأة، نحو مخرج آخر، مخرج بدا، بطريقة غير متوقعة لفترة طويلة، كأنه مشبع تماما بغذائه الجديد، وكما لو عثر على طريقه الصحيح.

وسرعان ما فتن قلبي وذهني، ونما خيالي بشكل واسع جدا، بحيث بدا كأنني نسيت العالم كله، الذي كان يحيط بي حتى الآن. كان يبدو أن القدر نفسه وضعني على عتبة حياة جديدة، طالما سعيت إليها، وحلمت بها ليل نهار، وقبل الانطلاق في طريق مجهول، رفعتني عاليا لتظهر لي المستقبل في بانوراما ساحرة، في منظر رائع، جذاب.

أتيح لي أن أعيش كل هذا المستقبل وأنا أقرأه أولا في الكتب، وأن أعيشه في الأحلام، والآمال، والعاطفة المرهفة لروحي الشابة.

بدأت قراءاتي دون أي اختيار، بأول كتاب وقع بين يدي، ولكن القدر حماني: كل ما تعلمت وعشت حتى الآن كان في غاية النبل، والصرامة، بحيث لم يعد من الممكن أن تغويني هذه أو تلك الصفحة الخبيثة أو القذرة. لقد أنقذتني غريزتي الطفولية، وسني المبكرة، وحماني ماضي كله. وفي هذه المرة، كان يبدو كأن وعيي أضاء لي فجأة كل حياتي الماضية.

في الواقع، كانت تقريبا كل صفحة قرأتها، تبدو لي مألوفة، كأنني عشتها منذ مدة طويلة، وكأن كل هذه الأهواء، وكل هذه الحياة التي كانت تظهر لي بأشكال غير متوقعة، في لوحات رائعة، قد خبرتها بالفعل منذ عهد بعيد.

وكيف كان يمكن لي ألا أنجذب حتى نسيان الحاضر، حتى الاغتراب عن الواقع، عندما كانت تتجسد أمامي تقريبا في كل كتاب أقرأه، قوانين من نفس المصير، بنفس روح المغامرة التي حكمت حياة الإنسان، ولكنها انبثقت من القانون الأساسي للحياة البشرية، وهو القانون الذي كان شرطا للخلاص، والحماية والسعادة. كان هذا هو القانون، الذي كنت أرتاب في وجوده، وأحاول أن أخمنه بكل ما أوتيت من قوة، وبكل غرائزي التي كانت تحتدم في داخلي تقريبا بشعور الحفاظ على الذات. كان يبدو كأن أحدا كان يحذرني مقدما، ويدعوني إلى الاحتراس. كأن شيئا ما نبويا كان يتعجل في روحي، ويوما بعد يوم كان يكبر الأمل في نفسي، وفي الوقت ذاته كان يشتد اندفاعي نحو هذا المستقبل، وإلى هذه الحياة، التي أذهلتني في كل ما قرأت بكل القوة الكامنة في الفن، وبكل فتنة الشعر. ولكن، كما قلت سابقا، كان خيالي متفوقا جدا على قلة الصبر لدي، وأنا في الحقيقة، لم أكن جريئة إلا في الحلم، ولكنني، في الواقع، كنت فطريا خجولة أمام المستقبل.

لذلك، كما بنوع من الاتفاق المسبق مع نفسي، قررت دون وعي أن أكتفي أولا بعالم الخيال، بعالم الحلم، الذي كنت فيه الملكة الوحيدة، والذي لم يكن فيه غير الغاويات، غير المسرات، والشقاء نفسه، إذا كان مقبولا، لم يكن يلعب إلا دورا سلبيا،

عابرا، دورا أساسيا لحلاوة التناقضات، والتطور المفاجئ للمصير نحو النهاية السعيدة للروايات المضطربة في رأسي. هكذا أفهم اليوم مزاجي في ذلك الحين.

ومثل هذه الحياة، حياة الخيال، حياة الاغتراب الحاد عن كل شيء حولي، كانت قادرة على المضي قدما لمدة ثلاث سنوات كاملة !

كانت هذه الحياة سري، وبعد ثلاث سنوات كاملة، لم أكن أعرف ما إذا كان علي أن أخشى اكتشافها المفاجئ أو لا. إن ما عشته خلال تلك السنوات الثلاث كان قريبا ، وحميميا جدا. وفي كل هذه الأوهام لم تكن تنعكس إلا نفسي، إلى حد أنني، أخيرا، كان يمكن أن أشعر بالحرج والخوف من أية نظرة غريبة، قد تتسلل دون روية إلى أعماق روحي.

وفضلا عن ذلك، كنا جميعا، في المنزل، نعيش حياة منعزلة تماما، منقطعة عن المجتمع، في صمت شبيه بصمت الدير، بحيث كان ينمو فينا جميعا، رغما عنا، ميل إلى الانطواء والانزواء.

وهذا ما حدث لي. خلال هذه السنوات الثلاث، لم يتغير شيء من حولي، كل شيء بقي كما كان في الماضي. كانت تسود بيننا دائما هذه الحياة الرتيبة، الكئيبة، التي - كما أعتقد الآن، لو لم أكن مشغولة بواقعي السري، الخفي، لكانت مزقت روحي، وألقت بي في مصير مجهول، مضطرب، خارج دائرة باهتة ومملة، ويمكن أن تكون دائرة قاتلة.

كانت مدام ليوتار قد أصبحت عجوزا ولا تبرح غرفتها تقريبا،

وكان الطفلان بعد صغيرين، وكان ب. دائما هو نفسه أيضا، وزوج ألكسندرا ميخايلوفنا كذلك كان دائما مكفهرا، وصعب المنال ومنطويا على نفسه دائما أيضا وأكثر من ذي قبل. وكان يسود بينه وبين زوجته السر نفسه دائما، وهو السر الذي كنت أراه في كل يوم رهيبا ومنذرا بشكل متزايد، وصرت أخشى على ألكسندرا ميخايلوفنا أكثر فأكثر.

كانت حياتها، دون فرح، وبلا لون، تنطفئ أمام عيني. وكانت صحتها تتدهور تقريبا في كل يوم. كما كان يبدو كأن بعض اليأس يغزو روحها أخيرا، وكان واضحا أنها كانت ترزح تحت نير شيء مجهول، غير محدد، لم تستطع هي نفسها أن تدركه، شيء رهيب وغير مفهوم أيضا، ولكنها كانت تقبله كصليب لا مناص منه لحياتها المدانة.

وأخيرا بدأ قلبها يقسو في هذا التعذيب الصامت، وحتى فكرها اتخذ اتجاها مختلفا، قاتما، وكئيبا.

تأثرت خاصة بهذه الملاحظة: بدا لي أنني كلما كنت أنا أتقدم في السن، كلما كانت هي تبتعد عني، بحيث إن احتياطها معي تحول حتى إلى نوع من الانزعاج السريع.

وفي بعض اللحظات كان يبدو لي أنها لم تعد تحبني، كما لو أصبحت عبئا ثقيلا عليها. سبق أن قلت إنني كنت قد بدأت، لاإراديا، أبتعد عنها، ولما ابتعدت عنها مرة، كنت كما لو أعدتني طبيعتها الغامضة.

هذا هو السبب في أن كل ما عشته خلال هذه السنوات الثلاث، وكل ما تشكل في وجداني، في أحلامي، في معارفي،

في آمالي، واندفاعاتي الحماسية المحتدمة، ظل كل ذلك كامنا في داخلي بعناد.

وبعد أن بدأنا الاختفاء، إحدانا عن الأخرى، أدركنا أننا غير قادرتين على الاتفاق من جديد، حتى وإن كنت، كما أظن، أحبها في كل يوم أكثر من أي وقت مضى.

لا أستطيع أن أتذكر الآن دون أن تدمع عيناي إلى أي حد كانت تتعلق بي، وكيف جعلت من واجبها أن تغدق علي كل كنز من الحب الذي كان يحتوي عليه قلبها وأن تفي بوعدها حتى النهاية - بأن تكون لي أما. وبطبيعة الحال، كانت مصيبتها الخاصة تبعدها عني أحيانا لفترة طويلة، كأنها كانت عندئذ تنساني، كما كنت، أنا نفسي، أحاول أن لا أذكر لها شيئا عن نفسي، بحيث بلغت السادسة عشرة من عمري، دون أن يلاحظ أحد ذلك.

ولكن، في لحظات الوعي والرؤية الواضحة حولها، كانت ألكسندرا ميخايلوفنا كما لو بدأت فجأة تقلق علي، كانت تدعوني إليها بفارغ الصبر من غرفتي، وتصرفني عن دروسي ومشاغلي، وتمطرني وابلا من الأسئلة، كما لو كانت تمتحنني، وتحاول أن تعرفني جيدا، دون أن تفارقني طوال أيام كاملة، كانت تخمن كل نية ورغبة لدي، مع اهتمام جلي بسني، وباللحظة التي كنت أعيشها، وبمستقبلي، وبحب لا ينضب، وبنوع من الإجلال، أعربت لي عن استعدادها الكامل لمساعدتي. ولكنها كانت غير معتادة علي كثيرا، لذلك كانت تعاملني أحيانا بسذاجة كبيرة، بحيث كنت أفهم كل ما كانت تقول وتريد بكل سهولة. مثلا، وقد

حدث هذا، عندما كنت في سن السادسة عشرة، بعدما فتشت في كتبي، وسألتني عما قرأت، ووجدت أنني لم أخرج بعد من كتب الأطفال، في سن الثانية عشرة، كانت كما لو انتابها الرعب فجأة. فهمت ماذا كان يعني ذلك وأخذت أراقبه بعناية.

خلال أسبوعين كاملين، كان يبدو كما لو كانت تهيئني وتختبرني، وتحاول أن تعرف درجة نموي وتطوري ومدى نمو وتطور احتياجاتي. وأخيرا، قررت أن تبدأ من جديد ورأينا فوق مائدتنا رواية "إيفانهويه" لوالتر سكوت، التي قرأتها بالفعل منذ فترة طويلة، وعلى الأقل ثلاث مرات.

في البداية، كانت تتابع إحساساتي بتوقع خجول، كما لو كانت تخشاها، وفي الأخير، اختفى ذلك التوتر الذي كان ملاحظا بيننا كثيرا، واشتد حماسنا معا، وكنت سعيدة جدا، سعيدة للغاية، لأنني ما عدت قادرة على أن أشيح بوجهي عنها!

عندما أنهينا قراءة الرواية، كانت أكثر ابتهاجا مني.

كل ملاحظاتي أثناء القراءة كانت صائبة وكل انطباعاتي صحيحة.

كنت في نظرها قد تطورت كثيرا جدا.

كانت تتطلع إلي بادية التأثر والذهول بحماستي، وبدأت تتابع دراستي بسعادة غامرة.

وتعهدت بأن لا تفارقني، ولكن ذلك لم يكن يتوقف عليها.

كان سيفرق بيننا القدر سريعا مرة أخرى ويمنع تقاربنا. ولأجل ذلك، كان يكفي أن تصاب بنوبة من مرضها، ومن سوء حظها المستمر، وإذا بها تعود من جديد إلى سلوك القطيعة، والغموض،

وانعدام الثقة، وربما حتى إلى التصرف بقسوة شديدة.

ولكن حتى في لحظات مماثلة، فإن بعض الأوقات كانت تهرب منا. إن مجرد القراءة، أو تبادل بضع كلمات لطيفة، أو سماع موسيقى، كان كفيلا بأن يجعلنا ننسى، ونكشف عن أفكارنا، وأحيانا نسرف في الكشف، وبعد ذلك، كانت كل واحدة منا تشعر فجأة بالإحراج والانزعاج أمام الأخرى.

واستعدنا وعينا، وأخذنا ننظر إلى بعضنا شبه خائفتين، بدهشة طافحة بالشك وانعدام الثقة.

كان لكلتينا حد يمكن أن يذهب إليه تقاربنا، هذا الحد، لم نكن نجرؤ على تجاوزه، ولم نكن نريد اجتيازه.

ذات مساء، قبل الغسق، كنت شاردة أقرأ كتابا، في مكتب ألكسندرا ميخايلوفنا. كانت تجلس أمام البيانو، مرتجلة على موضوع أحد الأنماط المفضلة لديها من الموسيقى الإيطالية. عندما انتقلت أخيرا إلى عزف لحن صاف من الأغنية، بدأت أنا، مفتونة بالموسيقى التي كانت تخترق أعماق قلبي، أغني، على استحياء، بصوت منخفض، مرددة هذا اللحن لنفسي. وسرعان ما انجذبت تماما، فنهضت وتقدمت نحو البيانو، وكما لو خمنت ألكسندرا ميخايلوفنا، مرت إلى مرافقتي وتتبعت بمحبة كل نغمة من صوتي.

كان يبدو أنها أعجبت بغنائه. لم أغن أبدا أمامها حتى الآن، وكنت أنا نفسي بالكاد أعرف إن كان بإمكاني فعل أي شيء. في هذه المرة، كنا معا ملهمتين. رفعت صوتي أكثر فأكثر، كنت أحس في داخلي باستيقاظ لهيب الطاقة، والعاطفة، ذلك اللهيب الذي

كان يزداد إشراقا دائما بالمفاجأة السعيدة التي كنت أخمنها في كل إيقاع من مصاحبتها الموسيقية.

وانتهى الغناء أخيرا بشكل جيد، وبكثير من الحيوية، والقوة، مما جعلها، في غاية الحماس تماما، تمسك بيدي وتلقي علي نظرة طافحة فرحا، وتقول:

- أنّيتا! ولكن لك صوتا رائعا، يا إلهي! كيف لم أنتبه لذلك!

وأجبتها، منتشية بالفرح أنا أيضا:

- أنا نفسي، لم أنتبه لذلك إلا الآن فقط.

- ليباركك الرب، يا عزيزتي، يا بنيتي الغالية! اشكريه على هذه الموهبة. من يدري... آه، يا إلهي! يا إلهي!

كانت شديدة التأثر بالمفاجأة، وفي غاية الانتشاء من الفرح، بحيث لم تدر ماذا تقول، وكيف تدخل السرور على قلبي. كانت هذه اللحظة من الصدق، والتعاطف المتبادل، والتقارب، من تلك اللحظات التي عز نظيرها منذ مدة طويلة.

وبعد ساعة بدا كما لو أن عيدا في المنزل. أُرسل فورا في طلب ب. وأثناء انتظاره، انتقلنا، مصادفة، إلى موسيقى أخرى، كنت أعرفها بشكل أفضل، وبدأنا أغنية جديدة. في هذه المرة، كنت أرتعش من الخجل والوجل. لم أرد أن أحطم بالفشل الانطباع الأول. ولكن سرعان ما أمدني بالشجاعة صوتي وشد من أزري. كنت أنا نفسي متفاجئة بقوته أكثر فأكثر، وبددت هذه المحاولة الثانية كل الشكوك.

وفي غمرة فرحتها العارمة، أرسلت ألكسندرا ميخايلوفنا في طلب طفليها، وحتى مربيتهما، وأخيرا، فتنت تماما، فذهبت إلى زوجها، وأخرجته من مكتبه، وهو أمر ما كان بإمكانها ، في وقت آخر، أن تجرؤ حتى على التفكير فيه. استمع إلى الخبر بعين العطف وهنأني وأعلن أولا أن من الضروري أن يعلمني. ومن شدة سعادة ألكسندرا ميخايلوفنا بالامتنان، كأن الله وحده يعلم أن ما تم القيام به إنما كان من أجلها، أخذت تقبل يديه. وظهر ب. أخيرا. ويفرح الرجل العجوز. كان يحبني كثيرا، ويتذكر أبي، والماضي، وعندما غنيت له قطعتين أو ثلاثا، ألقى نظرة جدية، قلقة، وحتى غامضة قليلا، ليعلن أن هناك قريحة لا ريب فيها، وربما حتى موهبة، وأن من المستحيل، ألا يعلمني. وبعد ذلك، فورا، كما لو أنهما استردا وعيهما، قررا معا، ألكسندرا ميخايلوفنا وهو، أنه كان أمرا خطيرا أن يجاملاني كثيرا منذ البداية، واستطعت أن ألاحظ أنهما تبادلا غمزة، وتفاهما خفية، بحيث كان اتفاقهما ضدي ساذجا وأخرق.

ضحكت ضحكات مكتومة طوال المساء، وأنا أرى كيف كانا معا، في وقت لاحق، بعد أدائي أغنية جديدة، يحاولان كبح نفسيهما، بل أخذا حتى يسجلان أخطائي بصوت عال. ولكن محاولاتهما لم تدم طويلا، وكان أول من فضح نفسه هو ب. الذي استسلم من جديد لفرحته الغامرة والعارمة.

ومرت الأمسية كلها في الأحاديث الودية للغاية والحارة جدا. حكى ب. بعض السير الذاتية لمطربين ومؤدين معروفين وقد حكاها بحماس فنان، بإجلال، وانفعال. ثم، بعد أن أشار إلى أبي، دار الحديث عني، وعن طفولتي، وعن الأمير، وعائلته كلها، التي لم

أكن أعرف عنها إلا القليل منذ فراقنا. ولكن ألكسندرا ميخايلوفنا نفسها لم تكن تعرف عنها أي شيء تقريبا. كان الأكثر اطلاعا هو ب. لأنه تردد عدة مرات على موسكو. ولكن، هنا، اتخذ حديثنا وجهة كانت بالنسبة إلي غامضة، وهناك ظرفان أو ثلاثة ظروف تتعلق بالأمير شخصيا، ظلت غير مفهومة لدي تماما.

تكلمت ألكسندرا ميخايلوفنا على كاتيا، ولكن ب. لم يستطع قول شيء خاص عنها، وهنا أيضا، كان يبدو كما لو تعمد أن لا يقول شيئا. أذهلني ذلك كثيرا. إنني لم أنس كاتيا قط، ولم ينطفئ الحب الذي كنت أكنه لها، وليس هذا فحسب، بل لم يسبق لي أن فكرت حتى في احتمال أن يطرأ أي تغيير على كاتيا. لقد غاب عن انتباهي حتى ذلك الحين الانفصال ومرور السنوات الطوال التي عشناها بعيدا عن بعضنا البعض (دون أن نتبادل أي خبر خلالها) والاختلاف في تعليمنا، والفرق بين طباعنا. وأخيرا، لم تبرح كاتيا فكري أبدا: كانت كأنها تعيش دائما معي، خاصة، في كل أحلامي، وفي كل رواياتي، وكل مغامراتي الرائعة، وكنا نمشي دائما يدا في يد. عندما كنت أتخيل نفسي كبطلة في كل رواية قرأتها، كنت فورا أضع صديقتي الأميرة الصغيرة، في مكان قريب مني، وأقسم الرواية إلى قسمين، كان أحدهما، من إبداعي بالطبع، على الرغم من أنني كنت أسرق المؤلفين المفضلين لدي بلا رحمة.

وأخيرا، تقرر، في مجلس العائلة، أن يستدعى لي معلم غناء. وأوصى ب. بالمعلم الأشهر والأفضل.

ومنذ اليوم التالي، جاء لزيارتنا الإيطالي د. الذي استمع إلى غنائي، وكرر رأي صديقه ب. ولكنه أعلن فورا أن من الممكن أن

أستفيد أكثر إن أنا تلقيت دروسي عنده، مع تلاميذ آخرين، وأن التنافس، والاقتداء، والاغتناء بكل الوسائل التي ستكون رهن إشارتي سوف يساعدني على نمو صوتي.

وافقت ألكسندرا ميخايلوفنا، ومنذ ذلك اليوم، أخذت أذهب، في الثامنة صباحا، برفقة خادمة، إلى المعهد الموسيقي، ثلاث مرات في الأسبوع.

والآن، سأروي حادثة غريبة، كان لها في نفسي تأثير قوي جدا، وميزت عبوري إلى سن أخرى بقطيعة حادة.

كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمري، وفي الآن نفسه، كان قد نشأ في روحي نوع من اللامبالاة، وغزا نفسي نوع من الهدوء الذي لا يطاق، ومن الملل الذي لم أفهمه بتاتا.

كانت كل تأملاتي، كل اندفاعاتي، قد انطفأت فجأة، وحتى الميل إلى الحلم نفسه كان قد اختفى كما لو كان بفعل العجز. وحلت لا مبالاة باردة مكان الحرارة الروحية السابقة العديمة الخبرة. وحتى موهبتي ذاتها، المعترف بها من جميع الذين أحببتهم كثيرا، لم تعد تروق لي، فازدريتها، غير مكترثة تماما. لم يعد يسليني شيء، إلى حد أني شعرت بنوع من اللامبالاة الباردة التي طالت حتى ألكسندرا ميخايلوفنا، تلك اللامبالاة التي لمت نفسي عليها، لأنني لم أستطع ألا أكون على بينة منها. وانقطعت لا مبالاتي بحزن غير مدرك، ودموع مفاجئة. كنت أسعى إلى العزلة. وفي هذه اللحظة الغريبة، هزت روحي من أعماقها حادثة غريبة، وحولت هذا الهدوء إلى عاصفة حقيقية. وأصيب قلبي... وهذا هو كيف حدث ذلك.

الفصل السابع

دخلت إلى المكتبة (هذه اللحظة ستظل محفورة في ذاكرتي إلى الأبد) وتناولت رواية والتر سكوت: "بئر سانت رونان" وهي الرواية الوحيدة التي لم أقرأها حتى ذلك الحين. أتذكر أن قلقا حادا، بلا هدف، كان يعذبني كما بنوع من نذير الشؤم. شعرت بالرغبة في البكاء.

كان هناك في الغرفة ضوء ساطع، ضوء الأشعة الأخيرة المائلة من شمس الغروب والمنسكبة في موجات كثيفة من النوافذ العالية فوق الأرضية الخشبية اللامعة، كان كل شيء هادئا، في كل جهة، وفي الغرف المجاورة، ولا أحد هناك أيضا. لم يكن في المنزل بيوتر ألكسندروفيتش وكانت ألكسندرا ميخايلوفنا مريضة وطريحة الفراش.

وكنت أنا أبكي حقا، ولما فتحت القسم الثاني من الكتاب، تصفحته بلا فائدة، محاولة أن أجد بعض المعنى في جمل مجزأة كانت تلمع أمام عيني.

كنت كأنني أقرأ مستقبلي، كما نحاول قراءته عند فتح الكتاب بطريقة عشوائية.

إن هناك لحظات تتوتر فيها، بصورة مؤلمة، كل القوى العقلية

والروحية، كما لو كانت تندلع فيها شعلة متوهجة من الوعي، وفي هذه اللحظة، يظهر شيء نبوي للروح القلقة التي تعاني من هاجس المستقبل، الذي تتطلع إليه بالفعل.

وهكذا يرغب المرء كثيرا في أن يعيش، ويريد كيانك كله أن يعيش، وتتوهج بلهيب أمل حار، وأعمى، كما لو كان قلبك يستحضر المستقبل، بكل ما فيه من غموض، ومن مجهول، وحتى، مع زوابعه وعواصفه، ولكن مع الحياة فقط. كانت تلك اللحظة من هذا القبيل.

أتذكر أنني كنت قد وصلت للتو إلى إغلاق الكتاب وإعادة فتحه عشوائيا، لكي أقرأ، وأنا أفكر في مستقبلي، الصفحة المفتوحة. ولكن عندما فتحته مرة أخرى، اكتشفت ورقة رسائل مكتوبة، ومسودة تماما، ومطوية على أربع، ومضغوطة جدا، وملحوظ من طياتها أنها وضعت ونسيت في هذا الكتاب منذ سنوات عديدة.

أخذت أفحص هذه اللقية بأقصى قدر من الفضول.

كانت رسالة، بدون عنوان، موقعة بالحرفين الأولين من الاسم س. أو. تضاعف انتباهي، فتحت هذه الرسالةِ الملتصقة الأوراق تقريبا، والتي تركت، منذ أن وضعت هناك، بقعة واضحة بين الصفحات.

كانت طيات الرسالة بالية، ومبشورة: يمكن أن يلاحظ أن هذه الرسالة قد قرئت مرارا وتكرارا، وحوفظ عليها بمثابة كنز ثمين. كان الحبر فيها مائلا إلى الزرقة والشحوب- إذ مضى على كتابة هذه الرسالة وقت طويل!

كانت بعض الكلمات ظاهرة للعيان بالمصادفة، وتحت تأثير الانتظار، اشتد خفقان قلبي.

كنت مرتبكة أقلب هذه الرسالة بين يدي، كأني أؤخر عمدا وقت قراءتها. واتفق أن رفعتها إلى النور: نعم! ثمة فوق هذه الخطوط آثار دموع، بقيت منها بقع على الورق، وهنا وهناك طمست بالدموع مقاطع كاملة. لمن كانت هذه الدموع؟

وقرأت، أخيرا، بقلب جامد من الانتظار، نصف الصفحة الأولى، وانطلقت من صدري صرخة ذهول.

أعدت الكتاب إلى موضعه، وأغلقت المكتبة مرة أخرى، وأخفيت الرسالة تحت وشاحي، وركضت إلى غرفتي، وأغلقت الباب علي واستأنفت قراءة كل شيء من البداية.

غير أن قلبي كان ينبض بشدة، وكانت الكلمات والحروف تومض وتقفز أمام عيني.

لفترة طويلة، لم أفهم شيئا.

كانت هذه الرسالة تحتوي على وحي، وبداية من الغموض، ونزلت علي كالصاعقة، لأنني عرفت لمن كانت موجهة.

كنت أعلم أنني اقترفت تقريبا جريمة بقراءة هذه الرسالة، ولكن اللحظة كانت أقوى مني!

كانت الرسالة موجهة إلى ألكسندرا ميخايلوفنا.

هذه هي الرسالة، سوف أدرجها هنا. لم أفهم إلا بصورة غامضة ما ورد فيها، واستحوذت على فكري مدة طويلة بصورة مؤلمة.

ومنذ هذه اللحظة، كان يبدو كأن حياتي انقسمت إلى شطرين. اهتز قلبي، واضطرب، لفترة طويلة، وربما إلى الأبد، لأن الكثير من الأشياء في هذه الرسالة كانت تتحدث عني.

كانت رؤيتي صائبة، بالبحث عن مستقبلي.

كانت هذه الرسالة رسالة أخيرة، رسالة وداع رهيبة.

عندما قرأتها، شعرت بانقباض قلبي، كما لو كنت أنا نفسي، فقدت كل شيء، كأن كل شيء ضاع مني، إلى الأبد، حتى الأحلام، والآمال، كما لو لم يبق لي أي شيء، على الإطلاق، سوى حياة أصبحت عديمة الفائدة.

من تراه إذن كتب هذه الرسالة؟ وهي، كيف أصبحت حياتها بعدئذ؟ في الرسالة الكثير من التلميحات، الكثير من البيانات، التي لا يمكن للمرء أن يضل فيها، ولكنها كانت تحتوي أيضا على كثير من الألغاز التي لا يمكن التكهن بها.

ولكنني لم أكن مخطئة تقريبا، وفضلا عن ذلك، كان أسلوب الرسالة نفسه يكشف عن أشياء كثيرة، وينمّ أيضا عن طبيعة هذه العلاقة التي سحقت قلبين.

كانت أفكار ومشاعر الذي كتب الرسالة تشي بالوضوح.

كانت خصوصية جدا، وكما قلت سابقا، كانت فيها أشياء كثيرة تساعد على حل اللغز.

ولكن ها هي الرسالة، أدرجها حرفيا تقريبا:

لن تنسيني، قلت ذلك - أصدقك، وها هي، الآن، كل

حياتي تكمن في كلماتك هذه. يجب علينا أن نفترق، دقت ساعتنا! كنت أعرف ذلك منذ فترة طويلة، يا حلوتي، يا جميلتي الحزينة، ولكنني لم أفهمه إلا اليوم. كل وقتنا، طوال الوقت الذي أحببتني فيه، كان قلبي يئن، كان يؤلمني من أجل حبنا، وهل تصدقين ؟ الآن، أشعر بالارتياح! كنت أعرف منذ مدة طويلة أن نهايتنا ستكون هكذا، وأن هذا كان مقدرا لنا من قبل! إنه القدر! اسمعيني، يا ألكسندرا: كنا غير متساويين، كنت أحس بذلك دائما، دائما! كنت غير جدير بك، وأنا، أنا وحدي، كان علي أن أتحمل العقوبة على السعادة التي عشناها! قولي لي: ماذا كنت أمامك قبل الوقت الذي عرفتني فيه؟ يا إلهي، لقد مرت الآن سنتان، وحتى الآن، بقيت كأنني دون ذاكرة، لا أستطيع أن أفهم حتى الآن، كيف كان بإمكانك أن تحبيني! لا أفهم كيف وصلنا إلى هذا، وبماذا بدأ ذلك. هل تذكرين كيف كنت بالنسبة إليك، تذكرين مقارنتي بك؟ هل كنت جديرا بك، بماذا أنفرد، ماذا يميزني حقا؟ قبل أن أعرفك، كنت وقحا وبسيطا، كان مظهري كالحا وكئيبا. لم أكن أتمنى حياة أخرى، ولم أفكر فيها على الإطلاق، ولم أدعها، ولم أرد أن أدعوها. لم أكن أطلب منها شيئا، ولم أكن أريد أن أطالبها بشيء.

كل شيء في داخلي كان كأنه منكسر، ولم أكن أعرف شيئا أهم في الدنيا من عملي العاجل واليومي. كان همي الوحيد- هو الغد، وحتى هنا، كنت غير مبال. من قبل، كان ذلك منذ زمن طويل، كنت أحلم بشيء لم أعد أتذكر ما هو، كنت أحلم، كالمجنون.

ومنذ ذلك الحين، مضى وقت طويل جدا، وبدأت أعيش حياة منعزلة، كئيبة، وهادئة، دون أن أشعر حتى بالبرد الذي كان يجمد قلبي. واستغرق قلبي في النوم.

كنت أعرف جيدا، وتأكد لدي، أن شمسا أخرى لن تشرق من أجلي أبدا، ووثقت بذلك، ولم أشك من أي شيء، لأنني كنت أعرف أنه كان لابد من ذلك.

عندما مررت أمامي، لم أكن أفهم، أليس كذلك، إن كان من حقي أن أجرؤ على رفع عيني للنظر إليك. كنت كعبد أمامك. لم يرتعش قلبي أمامك، لم يئن، ولم يحدثني عنك: كان هادئا. لم تتعرف روحي على روحك، بالرغم من شعورها بالضوء يغمرها قرب شقيقتها الرائعة. أعرف ذلك، شعرت به بغموض. هذا، يمكن أن أشعر به، لأن ضوء الشمس يسطع حتى على أقل قشة من العشب، ويدفئها ويداعبها تماما كأجمل زهرة يقبع بكل تواضع بالقرب منها.

ولكن عندما علمت كل شيء، - تتذكرين، بعد ذلك المساء، بعد هذه الكلمات التي هزت جوهر روحي، - كنت أعمى مصعوقا، مذهولا، كل شيء كان مضطربا في داخلي، و، أتدرين؟ كنت شديد الذهول، بحيث لم أصدق نفسي، ولم أفهمك! ولم أقل لك هذا أبدا. لم تكوني تعرفين شيئا، من قبل، لم أكن كما وجدتني. لو كنت أستطيع، لو كنت أجرؤ على الكلام، لكنت اعترفت لك بكل شيء منذ فترة طويلة.

ولكنني لزمت الصمت، والآن، سأقول كل شيء، لكي تعرفي من

الذي تتركين الآن، وأي رجل تفارقين! أتعلمين كيف فهمتك في البداية؟ اجتاحتني العاطفة كالنار وتسربت إلى دمي، كالسم، وشوشت كل أفكاري، وكل مشاعري، كنت مخمورا، وعشت كالمذهول، واستجبت لهذا الحب النقي، حبك الرحيم بي، ليس كمتكافئين، ليس كما لو كنت جديرا بحبك، بل دون وعي، ولا شعور. لم أستطع أن أفهمك. واستجبت لك كما لمن كانت، في نظري، منسية حتى بالنسبة إلي، وليس لمن كانت تريد أن ترفعني حتى إليها. أتدرين وماذا كان يعني هذا القول: منسية بالنسبة إلي؟ ولكن، لا، لن أهينك بهذا الاعتراف، لن أقول إلا شيئا واحدا: لقد أصبت بخيبة أمل في مريرة! أبدا، لم أتمكن في أي وقت مضى من الارتفاع إليك. لم أتمكن إلا من التفكير فيك، دون قدرة على الوصول إليك، في الحب اللامحدود، الذي شعرت به، عندما استطعت أن أفهمك، لكن ذلك لم يستطع محو الخطأ.

إن هواي، الذي رعيته، لم يكن الحب، الحب كنت أخاف منه، لم أجرؤ على أن أحبك، لم أكن جديرا به... لا أعرف ماذا حدث لي! أواه! كيف أحكي لك، ذلك، حتى تفهمي!... لم أصدق، في البداية... آه! تتذكرين، عندما، مرت الصدمة الأولى، بدأت أرى بوضوح، حينما لم يبق إلا الشعور الأنقى، الأطهر، - وعندئذ، كانت حركتي الأولى المفاجأة، الارتباك، الخوف، تتذكرين إذ ارتميت فجأة، باكيا، جاثيا عند قدميك؟ تتذكرين كيف سألتني، مذهولة، دامعة العينين، عم حدث لي؟ فلذت بالصمت، لم أستطع أن أجيبك، لكن روحي كانت تتمزق إربا إربا، وسعادتي كانت تتحطم مثل عبء لا يطاق، ودموعي كانت تقول في داخلي:

ماذا فعلت لأجل ذلك؟ بماذا أستحقه؟ بماذا أستحق السعادة؟" أختاه! أختاه! آه! كم من مرة -أنت لا تعرفين هذا- كم من مرة، خفية، قبلت فستانك، خلسة، لأنني كنت أعرف أنني غير جدير بك، - فتختنق أنفاسي عندئذ، ويأخذ قلبي يخفق ببطء، وبقوة، كما لو كان يريد أن يتوقف عن الخفقان، وأن يهمد إلى الأبد.

عندما كنت أمسك بيدك، كان يمتقع لوني تماما، وكنت أرتجف، إن ما كان يثيرني هو نقاء روحك. آه، إنني لا أعرف كيف أعبر لك عن كل ما تراكم في نفسي ويود أن يفصح عن نفسه كثيرا جدا! أتعلمين كم كان مرهقا، ومؤلما أحيانا، ذلك الحنان الأبدي من الرحمة التي كنت تسبغينها علي دائما؟ حينما قبلتني "حدث ذلك مرة ولن أنساه أبدا"، غشي الضباب عيني، وغدا تنفسي كله، في ثانية، ضيقا وصعبا. لماذا لم أمت في هذه اللحظة عند قدميك؟ ها أنا الآن، أخاطبك بصيغة المفرد، لأول مرة، حتى ولو كنت تطلبين مني ذلك منذ مدة طويلة. أتفهمين ما أريد أن أقول؟ أريد أن أقول لك كل شيء، وسوف أقوله: نعم، أنت تحبينني، حبا قويا جدا، أحببتني كما تحب أخت أخاها: أحببتني كما تحبين خليقة لك، لأنك أحييت قلبي، وأيقظت ذهني من سبات عميق، وسكبت في صدري أملا عذبا، ولكن، أنا، لم أقدر، لم أجرؤ، أبدا حتى الآن على مناداتك ب "أختي"، لأنني لم أستطع أن أكون أخاك، لأننا كنا غير متكافئين ، لأنك خدعت بشأني!

ولكن، أترين، أنا لا أكتب إلا عني، حتى في هذه اللحظة، في هذه اللحظة من سوء الحظ الرهيب، لا أفكر إلا في نفسي فقط، ومع ذلك كنت أعلم جيدا أنك تعذبين نفسك من أجلي. آه،

لا تعذبي نفسك من أجلي، يا صديقتي الحلوة! أتدرين كم أنا منحط في هذه اللحظة، أمام نفسي! كل ذلك انكشف، كل اللغط الذي نجم عن ذلك ! أنت، ستكونين مرفوضة بالنسبة إلي وسيكون عليك أن تواجهي الازدراء، والسخريات، لأنني كنت واطئا جدا أمامهم! آه، كم أنا مذنب لأنني كنت غير جدير بك! لو كانت لي أهمية، قيمة شخصية، في نظرهم، لو كنت أوحي بمزيد من الاحترام، في عيونهم، لكانوا غفروا لك! ولكنني دنيء، تافه، أنا مضحك، لا شيء يمكن أن يكون أدنى من امرئ مضحك. لأنه، من الذي يصرخ؟ وذلك لأن ، هؤلاء، بدأوا يصرخون، وعلى الفور، كنت أنا جبانا، كنت دائما ضعيفا. أتدرين في أي وضع أنا في الوقت الحالي: أنا نفسي، أسخر من نفسي، ولدي شعور بأنهم يقولون الحقيقة، لأنني، حتى في نظري، مضحك وبغيض. وهذا، أشعر به، أنا أكره وجهي، مظهري، عاداتي، وجميع طرقي غير المثقفة، لقد كرهتها دائما! آه، اغفري لي هذا اليأس الوقح! أنت التي عودتني على قول كل شيء لك. أنا سبب خسارتك، أنا الذي أطلقت العنان للسان الحقد والضحك عليك، لأني لم أكن جديرا بك.

وهذه الفكرة هي التي تعذبني، ولا تكف عن الضجيج في رأسي، إنها تمزق قلبي، وتملأه بالمرارة. كان لدي دائما شعور بأنك أحببت في شخصا آخر كنت تتوقعين أن تجديه في شخصي، وأنك قد خدعت بخصوصي. هذا ما يؤلمني، وهذا ما يعذبني في الوقت الحالي، والذي سيعذبني حتى يودي بي إلى الهلاك، أو بالأحرى سأصاب بالجنون!

وداعا إذن، وداعا! لقد انكشف الآن كل شيء، عندما دوت صرخاتهم، وإشاعاتهم "وقد سمعتها!"، عندما تضاءلت، وتدنيت، في عيني، فخجلت من نفسي، وخجلت حتى من أجلك، ومن اختيارك، وإذ لعنت نفسي، الآن، يجب أن أهرب، ينبغي أن أختفي، من أجل راحتك. هذا ضروري، وأبدا، لن تريني مرة أخرى أبدا! ذلك ما كان يجب، كان مكتوبا! لقد أعطيت أكثر من اللازم، وكان القدر على خطأ، وهو الآن، يصحح خطأه، ويأخذ مني كل شيء. كنا قد التقينا، تعارفنا، والآن علينا أن نفترق، حتى يحين جمع شمل آخر! أين سيكون؟ متى سيكون؟ آه، قولي لي، يا حبيبتي، متى سنلتقي من جديد، أين يمكن أن أجدك، كيف أتعرف عليك مرة أخرى، وأنت نفسك، هل ستتعرفين علي في ذلك الوقت؟ إن روحي كلها مترعة بك. لماذا يحصل لنا ذلك؟ لماذا ننفصل؟ علميني ذلك- لأنني لا أفهمه، ولن أفهمه، ولن أتمكن من فهمه أبدا، علميني كيف أفعل لكي أمزق حياتينا إلى نصفين، كيف أنزع القلب من الصدر وأعيش دون قلب؟ آه، عندما أفكر من جديد في أنني لن أراك مرة أخرى أبدا، أبدا!...

يا إلهي، يا لتلك الصرخة التي رفعوها! كم خفت عليك الآن! لقد رأيت زوجك، نحن معا لا نليق به، حتى ولو كنا بريئين أمامه. إنه على علم بكل شيء، كان يرانا، ويفهم كل شيء، منذ فترة طويلة، كان كل شيء واضحا لديه وضوح النهار. لقد تولى الدفاع عنك ببطولة، سوف ينقذك، سوف يحميك من هذه الوشايات، والصرخات، إنه يحبك، ويقدرك إلى ما لا نهاية، إنه منقذك، بينما أنا سألوذ بالفرار! لقد أسرعت نحوه، وأردت أن أقبل يده!...

طلب مني الذهاب على الفور. قضي الأمر. قيل إنه تشاجر معهم بسببك، هناك، الكل ضدك! إن ما يؤاخذ عليه هو لطفه وضعفه. يا إلهي! ماذا يمكن أن يقولوا عنك؟ إنهم لا يعرفون شيئا، لا يستطيعون، لا قدرة لهم على الفهم! اغفري لهم، يا سيئة الحظ المسكينة، كما أغفر لهم أنا، رغم أنهم أخذوا مني أكثر مما أخذوا منك.

إنني فقدت صوابي، لم أعد أعرف ماذا أكتب لك. عم حدثتك الليلة الماضية، أثناء الوداع؟ نسيت كل شيء. كنت خارجا عن طوري، كنت تبكين... اغفري لي تلك الدموع! أنا ضعيف جدا، جبان جدا! ما زلت أريد أن أقول لك شيئا آخر... آه! لو كنت أستطيع، للمرة الأخيرة، أن أبلل يديك بدموعي، كما أغرق الآن رسالتي بالدموع! لو كنت أستطيع أن أجثو مرة أخرى عند قدميك! ولو كان في وسعهم، هم، أن يعرفوا فقط كم كان شعورك رائعا! ولكنهم عمي، وأفئدتهم متعجرفة وعمياء! لن يستطيعوا أن يصدقوا أنك بريئة، حتى ولو أمام محكمتهم، حتى ولو شهد لهم كل من على وجه الأرض بذلك. هل يمكنهم أن يفهموا هذا! بأي حجر، سوف يقذفونك؟ من سيكون أول من يرفع يده؟ آه، إنهم لن يضطربوا، سيقذفون بآلاف من الأحجار! سيجرؤون على القذف بها، لأنهم يعرفون كيف يفعلون ذلك. سوف يقذفون بها جميعا في نفس الوقت، وسوف يقولون، إنهم، هم أنفسهم، أبرياء، وسوف يضعون عليهم الخطيئة. ليتهم كانوا يعرفون ماذا يفعلون! لو كان يمكن أن يقال لهم كل شيء، دون إخفاء أي شيء عنهم، لكي يبصروا، لكي يسمعوا، لكي يدركوا، ولكي يتأكدوا! ولكن لا، إنهم ليسوا سيئين للغاية. إنني يائس، في هذه اللحظة، وربما أفتري

عليهم! ولعلي أيضا، أفزعك بخوفي! لا تخافي، يا حمامتي! سوف تكونين مفهومة، هناك بالفعل الشخص الذي يفهمك: فلتستعيدي الأمل - إنه زوجك!

وداعا، وداعا! لا أقول لك شكرا ! الوداع وإلى الأبد!

س. أو.

كان اضطرابي شديدا جدا ، بحيث بقيت مدة طويلة غير قادرة على فهم ما حدث لي. كنت قلقة وخائفة. ورماني الواقع بكامل قوته في هذه الحياة السهلة من الأحلام التي استغرقت فيها منذ ثلاث سنوات بالفعل. كنت خائفة أشعر أن بين يدي سرا كبيرا، وأن هذا السر كان يربط الآن كل حياتي.... كيف؟ أنا نفسي لم أكن أعرف ذلك.

ولكنني شعرت أن مستقبلا جديدا كان منذ تلك اللحظة يبدأ بالنسبة إلي. وفي هذا الوقت، كنت أشارك، من غير قصد، مشاركة فعالة جدا، في حياة وعلاقات هؤلاء الناس، الذين كانوا حتى الآن هم عالمي كله، فانتابني الخوف على نفسي. كيف كان لي أن أدخل إلى حيز حياتهم، أنا، غير المدعوة، أنا، الغريبة عنهم؟ ماذا سأحمل لهم؟ كيف ستحل هذه العقد التي ربطتني فجأة بهذا السر الذي لم يكن يعنيني؟ كيف أعرف ذلك؟ ربما سيكون دوري الجديد عذابا، بالنسبة لي ولهم سواء. ولكنني لم أستطع أن ألتزم الصمت، وأن لا أتخذ هذا الدور، وأن أحبس في قلبي إلى الأبد ما كنت قد علمت. ولكن كيف وماذا سأصير؟ ماذا كان يمكن لي أن أفعل؟ وأخيرا ماذا كان إذن ما قد علمت؟ آلاف الأسئلة،

المزعجة، والغامضة، كانت تنتصب أمامي وتؤلم بالفعل قلبي على نحو لا يطاق. كنت كالتائهة.

ثم، أتذكر، جاءت لحظات أخرى، بأحاسيس جديدة، لم أشهدها أبدا. كنت أشعر أن شيئا ما كان كأنه انفرج في صدري، وأن قلقي انزاح فجأة عن قلبي، وحل مكانه شيء ما جديد، لم أكن أعرف إن كان ينبغي علي أن أكون حزينة أو فرحة به. كانت هذه اللحظة تشبه تلك اللحظة التي يترك فيها إنسان إلى الأبد داره، حياته، الهادئة، والصافية، حتى ذلك الحين، للقيام برحلة طويلة، ومجهولة، وللمرة الأخيرة ينظر حوله، قائلا في نفسه الوداع لماضيه، وعندئذ ينقبض قلبه بهاجس كئيب من ذلك المستقبل المجهول، الذي قد يكون قاسيا، وعدائيا، ينتظره على هذا الطريق الجديد.

وفي الأخير، انطلقت التنهدات المتشنجة من صدري وحررت قلبي عبر نوبة مؤلمة. كنت بحاجة إلى أن أرى أحدا وأن أسمعه وأن أحضنه بقوة، وأن أقبله بحرارة. لم أستطع، ولم أعد أريد، الآن، أن أبقى وحيدة: فركضت إلى ألكسندرا ميخايلوفنا وقضيت معها كل المساء. كنا وحدنا. رجوت منها ألا تعزف على البيانو، ورفضت أن أغني، على الرغم من طلباتها الملحة. كان كل شيء قد أصبح شاقا فجأة بالنسبة إلي، ولم أستطع أن أركز اهتمامي على أي شيء. أعتقد أننا بكينا معا. وأتذكر فقط أنني أفزعتها فزعا شديدا. وقد حاولت إقناعي بأن أهدئ من روعي وأن لا أقلق. كانت تنظر إلي بخوف، مؤكدة لي أنني كنت مريضة ولا أعتني بنفسي كفاية. وما لبثت أن تركتها أخيرا، منهكة تماما، ممزقة، كأنني كنت أهذي، وآويت إلى فراشي مرتعشة من الحمى.

مرت عدة أيام قبل أن أتمكن من استعادة وعيي ومن فهم وضعي. وفي ذلك الوقت، عشنا معا، ألكسندرا ميخايلوفنا وأنا، في عزلة تامة.

كان بيوتر ألكسندروفيتش غائبا عن بطرسبورغ. كان قد ذهب إلى موسكو لغرض لا أعلمه، وبقي هناك ثلاثة أسابيع. ورغم أن الفراق لم يكن طويلا، فإن ألكسندرا ميخايلوفنا وقعت في قلق رهيب.

في بعض الأحيان كانت تصبح هادئة جدا، ولكنها كانت تنزوي وحدها، إلى درجة أنها كانت تنزعج حتى مني.

ولكن أنا نفسي كنت أبحث عن العزلة. كان رأسي يشتغل في نوع من التوتر المرضي، كنت كأنني في حالة ذهول.

في بعض الأحيان، كنت أستغرق ساعات في تأملات متواصلة، مؤرقة، معذبة، فيبدو لي عندئذ في أحلامي كأن هناك شخصا ما كان يسخر مني خفية، كأن هناك شيئا ما استقر في داخلي كان يضايقني ويسمم كل أفكاري.

لم أستطع التخلص من الصور المؤلمة، المرتسمة أمامي في كل لحظة ولا تدع لي راحة.

تخيلت معاناة لا نهاية لها، ميؤوسا منها، شهادة، تضحية لابد من تقديمها بطريقة خانعة، مطيعة، وعبثية. كان لدي شعور أن الذي كانت تقدم من أجله هذه التضحية كان يحتقرها ويتهكم عليها. وبدا لي أنني أرى مجرما يغفر لبريء خطاياه، فكان ينفطر قلبي! وفي الوقت نفسه، كنت أرغب بكل ما أوتيت من قوة في

التخلص من شكي، فلعنته، وكرهت نفسي، لأن قناعاتي ليست إلا إحساسات، ولأنني لم أستطع تأكيد كل انطباعاتي أمام ضميري.

وبعد ذلك، استرجعت، في خاطري، كل هذه العبارات، هذه الصرخات الأخيرة، للوداع المرعب. تخيلت هذا الرجل - غير المتساوي، وحاولت أن أخمن معنى هذه الكلمة: "غير متساو" كنت مضطربة، معذبة، بيأس هذا الوداع: "أنا مضحك وأخجل أنا نفسي من اختيارك. ماذا كان ذلك ؟ ما هؤلاء الناس؟ أين كان يكمن قلقهم، وعذابهم؟ ماذا فقدوا إذن؟ وبعد التغلب على نفسي، وبكل توتر أعدت قراءة هذه الرسالة، التي كان في محتواها كثير من اليأس الذي يمزق القلب، وكان معناها بالنسبة إلي غريبا جدا وغير مفهوم تماما.

ولكن الرسالة وقت من بين يدي، واستولى هيجان عاصف على قلبي بشكل متزايد... كل ذلك كان ينبغي أن يحل في نهاية المطاف بطريقة أو بأخرى، ولكنني لم أر مخرجا أو بالأحرى كنت أخشاه!

كنت على وشك أن أمرض، عندما سمعنا يوما، في الفناء، طاقم بيوتر ألكسندروفيتش، الذي عاد من موسكو. هرعت ألكسندرا ميخايلوفنا إلى لقاء زوجها صائحة بفرح. ولكن، أنا، بدوت كما لو كنت جامدة في مكاني.

أتذكر كم كنت مضطربة بهذه العاطفة المفاجئة التي استولت علي. لم أتمالك نفسي وركضت إلى غرفتي. لم أفهم ما الذي أخافني فجأة، ولكنني كنت خائفة من هذا الخوف. وبعد ربع ساعة، دعيت وسلمت رسالة من الأمير.

في الصالون، رأيت رجلا غريبا جاء من موسكو مع بيوتر ألكسندروفيتش ومن بعض الكلمات التي سمعتها، علمت أنه مستعد للبقاء والعيش معنا مدة طويلة. إنه المسؤول عن أعمال الأمير، جاء إلى بطرسبورغ، للقيام بمساع متعلقة بأعمال ما مهمة للأمير وعائلته، أعمال كان يديرها منذ مدة طويلة. مد إلي رسالة الأمير وأضاف أن الأميرة الصغيرة أيضا كانت تريد أن تكتب إلي، وكانت تؤكد حتى اللحظة الأخيرة أن الرسالة ستكون مكتوبة، ولكنها سمحت لي بالذهاب خالي الوفاض، طالبة منه أن يخبرني بأنها لم يكن لديها شيء لتكتبه إلي على الإطلاق، وأن من المستحيل قول أي شيء في رسالة، وأنها سودت خمس صفحات كاملة ومزقتها إربا وكان من الضروري لنا أخيرا تجديد صداقتنا لكي نتراسل. ثم عهدت إليه أن يؤكد لي أننا سوف نلتقي مرة أخرى قريبا. وردا على سؤالي الفاقد الصبر، أكد لي الرجل الغريب أن خبر هذا اللقاء التالي، كان صحيحا حقا، وأن العائلة كلها عازمة على زيارة بطرسبورغ في أقرب وقت ممكن.

وطرت فرحا بهذا الخبر، وانطلقت بسرعة إلى غرفتي، وأغلقت علي الباب، واغرورقت عيناي بالدموع، وأنا أفتح رسالة الأمير. وعدني الأمير بلقاء قريب معه وكاتيا وهنأني على موهبتي بشعور عميق، وفي الأخير، بارك لي مستقبلي ووعدني بكفالته. بكيت وأنا أقرأ هذه الرسالة، ولكنني أضفت إلى دموع الفرح حزنا لا يطاق، بحيث أتذكر أنني خفت على نفسي، ولم أعرف أنا نفسي ماذا حدث لي.

مرت عدة أيام. في الغرفة المجاورة لغرفتي والتي كان يحتلها

سابقا سكرتير بيوتر ألكسندروفيتش، كان يشتغل الآن كل صباح، غالبا في المساء، حتى بعد منتصف الليل، الوافد الجديد. كثيرا ما كانا يحبسان نفسيهما، بيوتر ألكسندروفيتش وهو، في مكتبه، ويشتغلان معا.

ذات يوم، بعد الغداء، طلبت مني ألكسندرا ميخايلوفنا الذهاب إلى مكتب زوجها لأسأله إن كان يريد تناول الشاي معنا.

وبما أنني لم أجد أحدا في المكتب، وافترضت أن بيوتر ألكسندروفيتش لن يتأخر في المجيء، قررت انتظاره هناك. كانت صورته معلقة على الجدار.

أذكر الرجفة التي انتابتني فجأة، وأنا أنظر إلى هذا البورتريه، الذي أخذت أراقبه بعناية، مأخوذة بعاطفة لم أفهمها أنا نفسي. كان البورتريه معلقا عاليا، فضلا عن العتمة الشديدة، ولكي أراقبه عن كثب، تناولت كرسيا وصعدت عليه.

كنت أود أن أجد شيئا، كأنني كنت أبحث هناك عن حل لجميع شكوكي، وأذكر أن ما كان يسترعي الانتباه في هذا البورتريه، هما عيناه. دهشت من أنني في الواقع لم أر تقريبا أبدا عيني هذا الرجل، اللتين كان يخفيهما دائما تقريبا خلف نظارتين.

عندما كنت طفلة، لم أكن أحب نظرته، تبعا لحكم مسبق غريب وغير مفهوم، ولكن، بدا كما لو تأكد هذا الحكم المسبق الآن. كانت مخيلتي كلها متوترة. وخيل لي فجأة أن عيني هذا البورتريه، المحرجتين، تتحاشيان نظرتي الثاقبة، الطفولية، وتحاولان أن تشيحا عنها، وأن هناك خداعا وكذبا في هذين العينين، وكان

لدي شعور بأنني خمنت جيدا، ولم أفهم لماذا استولى علي فرح غامض بهذا التخمين. وانطلقت من صدري صرخة خافتة.

وفي هذه الأثناء، سمعت حفيفا ورائي. فالتفت: كان بيوتر ألكسندروفيتش منتصبا خلفي، ينظر إلي. بدا لي أنه احمر فجأة. واحمر وجهي تماما، وقفزت من فوق الكرسي.

سألني بلهجة حادة:

- ماذا تفعلين هناك؟ عم تبحثين؟

لم أدر بماذا أجيب. تمالكت نفسي، ونقلت إليه، لا أدري كيف، دعوة ألكسندرا ميخايلوفنا. لم أعد أتذكر بماذا رد علي، ولا أتذكر كيف خرجت من المكتب مرة أخرى، ولكن، عندما رجعت إلى ألكسندرا ميخايلوفنا، نسيت تماما الجواب الذي كانت تنتظره، وأجبت عشوائيا بأنه سيأتي.

سألتني:

- ولكن ماذا جرى لك، يا نيتوتشكا؟ أنت محمرة تماما، انظري إليك. ماذا حدث لك؟

فأجبتها:

- لست أدري... ركضت بسرعة...

قالت لي وهي تقاطعني بارتباك:

- ماذا قال لك إذن ؟

لم أرد بشيء. وفي هذه اللحظة، تناهى إلينا وقع خطى بيوتر ألكسندروفيتش، فخرجت من الغرفة حالا. انتظرت ساعتين

كاملتين من القلق الشديد. وفي آخر الأمر، أرسلت في طلبي ألكسندرا ميخايلوفنا. بقيت ألكسندرا ميخايلوفنا صامتة، وقلقة. عندما دخلت، ألقت علي نظرة سريعة، ومتفحصة، ولكنها خفضت عينيها فورا. بدا لي أن نوعا من الارتباك كان منعكسا على محياها. وسرعان ما لاحظت أنها كانت في حالة مزاجية سيئة، ولا تتكلم إلا لماما، ولا تنظر إلي بتاتا وردا على أسئلة قلقة كان يلقيها ب. كانت تشتكي من الصداع. كان بيوتر ألكسندروفيتش أكثر ثرثرة من المعتاد، لكنه لا يتكلم إلا مع ب.

اقتربت ألكسندرا من البيانو ذاهلة.

قال ب. متوجها بالكلام إلي:

- غني لنا شيئا!

وأضافت ألكسندرا ميخايلوفنا، التي بدت سعيدة تماما بإيجاد ذريعة:

- نعم، يا أنّيتا، أسمعينا أغنيتك الجديدة!

رفعت عيني إليها: كانت تنظر إلي بانتظار قلق.

بيد أنني كنت غير قادرة على تمالك نفسي. بدلا من أن الذهاب إلى البيانو، والغناء، ولو كيفما اتفق، شعرت بالإحراج، والارتباك، ولم أعرف كيف أتهرب. وفي آخر الأمر، استشطت غيظا، ورفضت رفضا قاطعا.

قالت ألكسندرا ميخايلوفنا، وهي ترمقني بنظرة معبرة وألقت في الآن ذاته على زوجها نظرة عابرة:

- لماذا لا تريدين أن تغني إذن؟

أفقدتني صبري هاتان النظرتان. فنهضت عن المائدة باضطراب شديد جدا، ولكن، دون إخفاء أي شيء، وأنا أرتجف من بعض الأحاسيس النافدة الصبر والمزعجة، كررت بحماس أنني لا أريد، ولا أستطيع، وأنني لست على ما يرام. كنت وأنا أفوه بهذه الكلمات أواجه كل نظراتهم، ولكن الله وحده يعلم كم كنت أتمنى أن أكون آنذاك في غرفتي وأن أتوارى عن أنظار الجميع.

فوجئ ب. وكان القلق الشديد ملحوظا على ألكسندرا ميخايلوفنا فلم تنبس ببنت شفة. ولكن بيوتر ألكسندروفيتش نهض فجأة من مقعده وتظاهر بأنه نسي شيئا وأسرع بالخروج من الغرفة واضح الانزعاج من ضياع الوقت، قائلا أيضا إنه قد يعود، في وقت لاحق، ورغم ذلك صافح ب. دليلا على الوداع.

سألني ب.

- ولكن ماذا حدث لك أخيرا؟ يبدو أنك، حقا، مريضة.

أجبته بفارغ الصبر:

- نعم، لست على ما يرام، لست في حالة جيدة على الإطلاق.

لاحظت ألكسندرا ميخايلوفنا وتوقفت فجأة:

- أنت حقا شاحبة، وقبل قليل، كنت محمرة الوجه تماما.

- كفى!

قلت ذلك، متجهة نحوها مباشرة ومحدقة في عينيها. لم تحتمل المسكينة نظرتي، فخفضت عينيها، كالمذنبة، واصطبغت

وجنتاها الشاحبتان بحمرة خفيفة. تناولت يدها وقبلتها. نظرت إلي ألكسندرا ميخايلوفنا، بفرحة صادقة، وساذجة.

قلت لها بانفعال:

- اغفري لي إذا كنت اليوم طفلة سيئة، وقاسية جدا، ولكنني، حقا، أحس بأنني مريضة. لا تلوميني، واسمحي لي أن أذهب إلى غرفتي.

قالت بابتسامة خجولة:

- نحن جميعا أطفال، أنا أيضا طفلة.

وأضافت وهي تهمس في أذني:

- وأنا طفلة، أسوأ منك بكثير. مع السلامة، اعتني بنفسك. ولكن، باسم السماء، لا تغضبي مني.

سألتها، إذ دهشت كثيرا جدا باعترافها الساذج البسيط:

- لماذا ؟

فكررت، بذهول رهيب، حتى بدت كأنها كانت تخشى على نفسها:

- لماذا؟ لماذا؟ حسنا، أنت ترين كيف أنا؟ يا نيتوتشكا. ماذا كان بوسعي أن أقول لك؟ الوداع! أنت أذكى مني... أنا، أسوأ من الأطفال.

أجبتها، متأثرة بعمق، دون أن أعرف ماذا أقول:

- طيب، يكفي.

وقبلتها مرة أخرى، وخرجت بسرعة من الغرفة.

لقد أخذ مني الغيظ الشديد والحزن الرهيب. وفوق ذلك، كنت غاضبة علي، وأشعر أنني متهورة ولا أعرف كيف أتمالك نفسي. كان هناك شيء كنت أخجل منه حتى البكاء، ونمت وأنا أعاني من الحزن العميق.

في الصباح، حين استيقظت، كانت فكرتي الأولى أن اليوم السابق كله لم يكن إلا كابوسا، وسرابا، وأننا لم نقم إلا بخداع بعضنا البعض، وأننا تسرعنا، وأخذنا على محمل الجد تفاهات، وأن كل ذلك كان ناجما عن قلة خبرتنا، وافتقارنا إلى الاعتياد على تلقي الانطباعات الخارجية.

شعرت أن الخطأ كله يكمن في هذه الرسالة، التي تزعجني كثيرا، وأن مخيلتي تائهة، فقررت أن من الأفضل لي أن لا أفكر في أي شيء.

وبعد حل كل ما عندي من ألم، بطريقة سهلة جدا ومقنعة تماما، بحيث كنت أود أن أطبق بالسهولة نفسها كل ما صممت عليه، فهدأ بالي واطمأنت نفسي، وذهبت إلى درس الغناء، مبتهجة تماما، ومنتعشة الرأس بهواء الصباح.

كنت أحب كثيرا هذه الرحلات الصباحية في الطريق إلى منزل أستاذ الغناء. كان ممتعا جدا عبور مدينة كانت، في الساعة التاسعة، مفعمة بالحيوية تماما، تبدأ بقلق حياتها كل يوم.

كنا نمر عامة من أكثر الشوارع ازدحاما وحركة، وكنت أحب كثيرا هذا الوضع المبكر لحياتي الفنية، والتناقض بين هذه الأشياء

اليومية الصغيرة، وهذا الهم الصغير جدا، ولكنه مفعم بالحيوية، والفن الذي كان ينتظرني على بعد خطوتين من هذه الحياة، في الطابق الثاني من بناية ضخمة غاصة من أعلاها إلى أسفلها، بمستأجرين، لا علاقة لهم على الإطلاق، كما بدا لي، بأي شكل من أشكال الفن.

وأنا وسط هؤلاء المارة القلقين، المتجهمين، بدفتر النوتات الموسيقية تحت إبطي، مع ناتاليا التي كانت ترافقني و تلقي علي، دون أن تعرف هي نفسها ذلك، مشكلة تتطلب حلا: فيم تفكر أكثر؟- وأخيرا، أستاذي، نصف الإيطالي، نصف الفرنسي، الأبله، المتحمس في بعض اللحظات، المتحذلق في أغلب الأحيان، والبخيل على الأخص،- كل ذلك كان يسليني ويجعلني أضحك أو أفكر. ثم، إنني، حتى ولو بخجل، ولكن، أحببت فني بشغف شديد، كنت أبني قصورا على الرمال، وأطرز المستقبل الأكثر استثنائية، و غالبا ما كنت، عند عودتي، أحس كأنني ملتهبة بكل أوهامي. باختصار، كنت، في هذه اللحظات، سعيدة تقريبا.

جاءت بالضبط لحظة مماثلة، عندما عدت من الدرس إلى المنزل، في الساعة العاشرة. كنت قد نسيت كل شيء، وأتذكر أنني كنت مرحة أحلم بشيء. وفجأة، بينما بدأت الصعود على السلم، ارتجفت، كأني لسعت بنار. إذ سمعت من فوقي صوت بيوتر ألكسندروفيتش، الذي كان نازلا على الدرج في هذه اللحظة. كان الشعور بالانزعاج الذي غزاني قويا جدا. وأذهلتني ذكرى الأمس العدائية حتى أنني لم أستطع إخفاء قلقي. انحنيت له قليلا، ولكن وجهي، ربما، كان معبرا جدا في هذا الوقت، لأنه وقف أمامي

مدهوشا تماما. لاحظت حركته، واحمر وجهي خجلا، وتابعت صعودي بسرعة. كان يتمتم بشيء في ظهري وهو يواصل نزوله على السلم. كنت على وشك أن أبكي من الغيظ، ولم أستطع أن أفهم ما حدث.

قضيت الصباح كله في حالة ذهول ولم أعرف ماذا أفعل للتخلص والانتهاء من ذلك كله بأسرع وقت. وعدت نفسي، ألف مرة، بأن أتعقل أكثر، وألف مرة، غزاني الخوف على نفسي. شعرت أنني كنت أكره زوج ألكسندرا ميخايلوفنا، وفي الوقت نفسه، كنت يائسة من ذلك. في هذه المرة، أصبت بمرض شديد، تحت تأثير بعض الانفعالات، وكنت عاجزة حقا عن السيطرة على نفسي. كنت مغتاظة من الجميع: قضيت الصباح كله في غرفتي ورفضت حتى الصعود إلى ألكسندرا ميخايلوفنا. كانت هي التي أتت إلى غرفتي. حدقت في وكادت أن تصرخ. كنت شديدة الشحوب، وأنا أنظر إلى وجهي في المرآة، شعرت بالخوف. قضت ألكسندرا ميخايلوفنا ساعة كاملة معي، وهي تحيطني برعايتها كما بطفلة.

لقد جعلني اهتمامها بي حزينة جدا، وبدت لي مداعباتها مؤلمة كثيرا، وكان النظر في وجهها يعذبني تقريبا، بحيث طلبت منها أخيرا أن تتركني وشأني. فخرجت من غرفتي، وهي في حالة قلق شديد علي. ولم يلبث قلقي أن زال نهائيا بسيل من الدموع ونوبة عصبية. ولم يأت المساء، حتى شعرت بنفسي أفضل حالا

كنت أفضل حالا لأنني قررت الذهاب إليها. كنت قد قررت أن أرتمي عند قدميها، وأن أعطيها الرسالة، التي ضاعت منها، وأن أعترف لها بكل شيء: أن أعترف بكل العذابات التي عانيتها، وبكل

شكوكي، وأن أحضنها بكل ذلك الحب اللانهائي المشتعل في داخلي من أجلها ومن أجل عذابي، وأن أقول لها إنني طفلتها، صديقتها، وإن قلبي مشرع أمام عينيها، وبإمكانها أن تنظر في أعماقه لترى كل ما يكنه لها من مشاعر متقدة، وثابتة. يا إلهي! كنت أعرف، كنت أشعر أنني آخر من كان يمكن أن تفتح قلبها له، ولكن، على الأصح، بدا لي، أن كلامي سينقذها وكان يمكن أن يكون وقعه قويا عليها... كنت أفهم قلقها، ولو بطريقة غامضة، وكان قلبي يغلي غيظا من فكرة أنها يمكن أن تحمر خجلا أمامي، ومن رأيي عنها... أيتها البائسة، يا عزيزتي يا سيئة الحظ، أهي أنت، هذه المذنبة؟ هذا ما كنت أود أن أقوله لها، باكية وجاثية عند قدميها. ثار إحساسي بالعدالة، غير أني لم أعد أتمالك نفسي.

لا أدري ماذا كان بإمكاني أن أفعل، لكنني لم أستعد وعيي إلا فيما بعد، عندما أنقذنا حدث غير متوقع، أنا وهي، من الهلاك، بإيقافي منذ الخطوة الأولى تقريبا. فاستولى علي الخوف. أكان قلبها المنهك لا يزال قادرا على أن يحيا مرة أخرى من أجل الأمل؟ كان يمكن أن أقتلها بضربة واحدة!

هذا ما حدث: كنت على بعد غرفتين من مكتبه عندما دخل من باب جانبي، ودون أن يلاحظني، مر من أمامي. كان هو أيضا ذاهبا إليها. توقفت، جامدة في مكاني على الفور، كان آخر شخص كنت أرجو لقاءه في لحظة مثل هذه. أردت أن أذهب، لكن الفضول جمدني في مكاني فجأة.

وقف لحظة أمام المرآة، رتب شعره، وأثناء ذهولي الكامل، سمعت فجأة أنه كان يهمهم. وفي لمحة، لمعت في ذاكرتي ذكرى

غامضة. ولفهم هذا الشعور الغريب الذي خامرني، في هذه اللحظة، لابد لي من رواية هذه الذكرى. خلال السنة الأولى من إقامتي في هذا المنزل، أدهشني حدث أنار الآن فقط ضميري، لأنني الآن فقط، في هذه اللحظة فحسب، أدركت بداية الكره غير المفهوم الذي شعرت به نحو هذا الرجل!

سبق لي أن أشرت إلى أنني، منذ هذه اللحظة، أحسست بأن وجوده كان يؤلمني كثيرا. وسبق لي أن ذكرت أي شعور بالقلق كان ينتابني من مظهر هيئته القاتمة والكالحة، وتعبير سحنته، المتجهمة والمحبطة غالبا، وكم كنت أعاني بعد هذه الساعات التي كنا نقضيها جميعا حول مائدة الشاي عند ألكسندرا ميخايلوفنا، وأخيرا، كيف كان الألم المبرح يمزق قلبي، عندما كان يحدث لي، أن أكون شاهدة، مرتين أو ثلاث مرات، على هذه المشاهد القاتمة والكئيبة، التي تحدثت عنها في البداية. اتفق أنني، في ذلك النهار، التقيت به، تماما كما في هذه المرة، في الغرفة نفسها، والساعة ذاتها، عندما كان ذاهبا، مثلي، إلى ألكسندرا ميخايلوفنا.

غالبا ما كنت أحس بخجل طفولي عندما أصادفه وحيدا، ولذلك كنت أقبع في ركن، كمذنبة، راجية من القدر ألا يلاحظني. تماما كما في هذه المرة، إذ وقف أمام المرآة، فارتجفت بنوع من الشعور غير المحدد، الخالي من أية صبيانية. بدا لي كأنه كان يحاول تغيير ملامح وجهه. رأيت بوضوح على الأقل الابتسامة المرتسمة على وجهه قبل أن يقترب من المرآة، رأيت ضحكته، التي لم أرها قط لأنه (أتذكر، ذلك ما أدهشني أكثر) لم يكن يضحك أبدا أمام ألكسندرا ميخايلوفنا. فجأة، لم يكد يجد الوقت

لإلقاء نظرة على المرآة، حتى تغير وجهه تماما. فاختفت بسمته، كما لو تلقى أمرا، وحل مكانها، نوع من الشعور بالمرارة، كما لو كان ذلك لا إراديا، كان يبدو كأن هذا الشعور خرج بالقوة من أعماق قلبه، وهو شعور لم يكن من الممكن إنسانيا إخفاؤه، على الرغم من كل الجهود السمحة التي كان يمكن القيام بها، فشوه شفتيه، وحفر نوع من الألم المتشنج تجاعيد فوق جبينه وعقد حاجبيه. وعلى نحو كئيب، توارت النظرة خلف النظارتين، وبكلمة، وفي لحظة، وكما لو تلقى أمرا، أصبح رجلا آخر. أتذكر أنني عندما كنت طفلة، أخذت أرتعش خوفا، من فهم ما رأيت للتو، ومنذ ذلك اليوم، استقر في قلبي شعور مؤلم وكريه إلى الأبد. نظر إلى وجهه في المرآة، طأطأ رأسه، انحنى، كما كان يظهر عامة أمام ألكسندرا ميخايلوفنا، وعلى رؤوس أصابع قدميه، دخل إلى مكتبه. وهذه الذكرى هي التي أذهلتني.

في هذه المرة، كالمرة الأخرى، كان يظن أنه وحده، فوقف أمام نفس المرآة. كالمرة السابقة، وجدتني على مقربة منه، طافحة بشعور معاد، سيء. ولكن عندما سمعته يغني (هو الذي كان من المستحيل أن يصدر عنه شيء من هذا القبيل) بدا لي ذلك غير متوقع بتاتا فبقيت كالجامدة في مكاني وفي اللحظة نفسها، ذكرني التشابه بمشهد مماثل تقريبا من طفولتي- وبالتالي لا أستطيع أن أقول أي شعور حاقد قد اخترق قلبي.

كانت كل أعصابي ترتعش، وردا على هذه الأغنية البائسة، انفجرت ضاحكة بحيث صرخ المغني، وتراجع خطوتين أمام المرآة، وشاحبا كميت، كما لو قبض عليه متلبسا بجرم، ألقى علي

نظرة فيها مزيج من الفزع، والدهشة، والغضب. كان لنظرته أثر سيء علي. أجبته بضحكة عصبية، هستيرية، ملء وجهه، ومررت ضاحكة من أمامه ودون أن أكف عن الضحك، دخلت عند ألكسندرا ميخايلوفنا.

كنت أعرف أنه كان وراء الباب، يتردد في الدخول، وأنه مسمر في مكانه من الغضب والخوف، وباستفزاز نافد الصبر انتظرت ما سوف يقرر. كنت أراهن أنه لن يدخل، وكنت على حق، فلم يأت إلا بعد نصف ساعة. ظلت ألكسندرا ميخايلوفنا تنظر إلي طويلا بذهول تام.

كانت تسألني عبثا لتعرف ما حدث لي. لم أستطع أن أجيبها بشيء، لأنني كنت أختنق. وأدركت أخيرا أنني مصابة بانهيار عصبي وحدقت في بقلق. وبعد أن هدأت قليلا، تناولت يديها وانهلت عليهما تقبيلا. وفي هذه اللحظة فقط غيرت رأيي، وفي هذا الوقت فحسب، أدركت فجأة أنني قد أكون قتلتها، دون لقاء زوجها. نظرت إليها كأنها بعثت من جديد.

وعندئذ دخل بيوتر ألكسندروفيتش

رفعت عيني إليه، كان يبدو عليه كأن شيئا لم يحدث بيننا، يعني أنه كان قليل الكلام وقاسيا كعادته. ولكنني استطعت أن أخمن من خلال وجهه الشاحب وزوايا شفتيه المرتعشتين أنه كان يحاول إخفاء اضطرابه الشديد. ألقى تحية باردة على ألكسندرا ميخايلوفنا وجلس بصمت.

كانت يده ترتعش عندما تناول فنجان الشاي.

كنت أتوقع انفجارا واستولى علي نوع من الخوف غير الواعي. كنت أود الخروج ولكنني لم أجرؤ على ترك ألكسندرا ميخايلوفنا التي امتقع لون وجهها وهي تنظر إلى زوجها. هي أيضا كانت تتوقع شيئا سيئا. وأخيرا حدث ما كنت أخشى وقوعه.

في صمت عميق، رفعت عيني من جديد، فالتقيت بنظارات بيوتر ألكسندروفيتش، التي كانت موجهة إلي مباشرة. لم يكن متوقعا أن أرتعش من ذلك، كدت أن أصرخ، ثم طأطأت رأسي، لاحظت ذلك ألكسندرا ميخايلوفنا.

صاح الصوت العنيف والقاسي لبيوتر ألكسندروفيتش:

- ماذا جرى لك؟ لماذا تحمرين خجلا؟

لذت بالصمت، كان قلبي شديد الخفقان بحيث لم أستطع أن أنبس ببنت شفة.

سأل وهو يخاطب ألكسندرا ميخايلوفنا ويشير إلي بكل وقاحة:

- لماذا احمرت خجلا؟ لماذا لا تكف عن الاحمرار خجلا؟

خنق الغضب أنفاسي. نظرت بتوسل إلى ألكسندرا ميخايلوفنا. فهمت قصدي. وتضرجت وجنتاها الشاحبتان.

قالت لي بلهجة حازمة فاجأتني:

-أنّيتا، اذهبي إلى غرفتك، سآتي لرؤيتك بعد لحظة: سوف نقضي المساء معا.

قاطعها بيوتر ألكسندروفييتش، رافعا صوته من جديد، وكأنه لم يسمع ما قالت زوجته:

- أنا أسألك، تسمعينني أم لا؟ لماذا تحمرين خجلا عندما تلتقين بي؟ ردي علي!

أجابت ألكسندرا ميخايلوفنا بصوت متقطع من الانفعال:

- لأنك تجبرها على الاحمرار خجلا، وتجبرني أنا أيضا.

نظرت بذهول إلى ألكسندرا ميخايلوفنا. بقيت حدة ردها، منذ الوهلة الأولى، غير مفهومة.

ردّ عليها، هو أيضا، كان يبدو مذهولا، ومشددا على كلمة "أنا":

- أنا، أجبرك على الاحمرار خجلا، أنا؟ بسببي أنا تحمرين خجلا؟ ولكن، هل أنا أستطيع أن أجبرك على الاحمرار خجلا مني أنا؟ من منا يجب أن يشعر بالخجل، أنا أم أنت، ما رأيك في ذلك؟

هذه الجملة، التي فهمتها جيدا، ألقيتْ بسخرية لاذعة جدا، وعنيفة جدا، بحيث أطلقت صرخة خوف واندفعت نحو ألكسندرا ميخايلوفنا. كان الذهول، والألم، واللوم، والخوف، يرتسم على وجهها الممتقع اللون كوجه ميت.

ألقيت نظرة نحو بيوتر ألكسندروفيتش جامعة يدي على صدري في إشارة إلى التوسل. كان يبدو أنه هو نفسه قد ثاب إلى رشده، ولكن الغضب الذي انتزع منه هذه الجملة لم يهدأ بعد. إلا أنه لاحظ توسلي الصامت فاضطرب. كانت إشارتي تقول بوضوح إنني كنت أفهم أشياء كثيرة، بقيت، حتى ذلك الحين، سرا بينهما، وإنني فهمت جيدا ما قاله.

كررت ألكسندرا ميخايلوفنا بلهجة ضعيفة ولكنها قاطعة وهي تنهض من مقعدها:

- أنّيتا، اذهبي إلى غرفتك، أريد أن أتكلم مع

كانت تبدو هادئة، ولكن هذا الهدوء كان يفزعني أكثر من كل العواصف. كنت كأنني لم أسمع كلماتها، وبقيت كالجامدة في مكاني. بذلت كل ما وسعي لأقرأ فوق وجهها ما كان يدور ببالها في تلك اللحظة. كان لدي شعور بأنها لم تفهم لا إشارتي ولا توسلي.

قال وهو يمسك يدي ويشير في الوقت ذاته إلى زوجته:

- هذا ما فعلت!

يا إلهي! لم أر أبدا يأسا كهذا الذي قرأته على هذا الوجه الهامد، والمحطم. أمسك بيدي وأخرجني من الغرفة. أرسلت نظرة أخيرة إلى ألكسندرا ميخايلوفنا. كانت واقفة، متكئة بمرفقها على المدخنة، ورأسها بين يديها. كانت في حالة مؤلمة لا تطاق. أمسكت بيد بيوتر ألكسندروفيتش وشددت عليها بحرارة.

قلت له بصوت متقطع:

- بحق السماء! بحق السماء! كن رحيما!

فقال لي متطلعا إلي بنظرة غريبة:

- لا تخافي، لا تخافي! لا شيء، إنها نوبة عصبية. اخرجي إذن، هيا اذهبي.

عندما دخلت إلى غرفتي، ارتميت على الأريكة وأخفيت وجهي بيدي. بقيت هكذا لمدة ثلاث ساعات قاتلة، وفي هذا

الوقت، عشت جحيما لا تطاق. وفي الأخير لم أطق صبرا، فبعثت أسأل إن كان يمكنني أن آتي إلى ألكسندرا ميخايلوفنا. كانت مدام ليوتار هي التي حملت إلي الجواب. كان هو الذي أرسلها لتقول لي إن النوبة العصبية مرت وليس هناك خطر ولكن ألكسندرا ميخايلوفنا بحاجة إلى الهدوء.

لم أستطع النوم قبل الساعة الثالثة صباحا واستغرقت في التفكير وأنا أذرع غرفتي جيئة وذهابا. كان وضعي أغمض من أي وقت مضى، ولكنني شعرت كأنني أكثر ارتياحا أيضا- ربما لأنني شعرت بأنني مذنبة أكثر من الجميع. وأخيرا ذهبت إلى فراشي وأنا أنتظر الصباح بفارغ الصبر.

ولكن، في اليوم التالي، لاحظت، بدهشة مؤلمة، بعض البرودة غير المفهومة من قبل ألكسندرا ميخايلوفنا تجاهي. في البداية، اعتقدت أن هذا القلب الطاهر والنبيل كان يشعر بانزعاج مني بعد المشهد الذي حدث بالأمس مع زوجها، ذلك المشهد الذي كنت شاهدة عليه دون إرادتي، كنت أعرف أنها كانت قادرة على أن تحمر أمامي وأن تطلب حتى الصفح مني لوكان المشهد البائس قد جرح بالأمس قلبي. ولكن سرعان ما لاحظت لديها قلقا آخر، وغيظا كان يتجلى بشكل مؤلم جدا: تارة، كانت تردّ عليّ ببرود، وجفاء، وتارة أخرى، كان يُسمع في كلماتها معنى خاص، وأخيرا، كانت أحيانا، تصبح فجأة في غاية الرقة والحنان معي، كما لو كانت آسفة على هذه القسوة، التي لا يمكن أن تكون إلا غريبة عن قلبها، وترن كلماتها الرقيقة، الهادئة، كنوع من العتاب. وفي الأخير، سألتها مباشرة، عن حالها وإذا كان لديها أي شيء

تقوله لي. في البداية، اضطربت قليلا، عند سماع سؤالي، ولكنها لم تلبث أن رفعت نحوي عينيها الواسعتين الرائعتين ونظرت إلي بابتسامة رقيقة، وأجابت:

- لا شيء البتة، يا نيتوتشكا، ولكن، أتدرين، كان سؤالك غير متوقع، فاضطربت قليلا. لأن سؤالك كان مفاجئا، أؤكد لك. ولكن، اسمعي، يا طفلتي، وقولي لي الحقيقة: هل يوجد في قلبك شيء، أنت أيضا، ستكونين مضطربة، لو سئلت عنه بسرعة، وبطريقة مفاجئة؟

أجبتها وأنا أتطلع إليها بنظرة واضحة:

- كلا.

- طيب، آه هذا جيد! لو تدرين، يا صديقتي، كم أنا ممتنة لك بهذه الإجابة الرائعة. لا يعني هذا أنني يمكن أن أظن فيها شيئا سيئا، لا، أبدا! لا أغفر لنفسي مثل هذه الفكرة. ولكن، اسمعي: عندما أخذتك، كنت طفلة، والآن، أنت في السابعة عشرة من عمرك. رأيت بنفسك: أنا مريضة، أنا نفسي، مثل طفلة، ويجب حتى الاعتناء بي، لم أستطع قط أن أكون لك أمّا ثانية، حتى وإن كان لدي فائض من الحب لك في قلبي. وإذا كان القلق الآن يعذبني كثيرا، فلا يعود الخطأ إليك بل يعود إلي أنا. اغفري لي إذن هذا السؤال، واغفري لي أيضا إذا كنت لا إراديا لم أف بكل الوعود التي قطعتها لك ولوالدي عندما أخذتك معي. أقلقني هذا كثيرا وما زال يقلقني، يا عزيزتي.

احتضنتها وطفقت أبكي.

قلت لها وقد بللت يديها بدموعي:

- آه، أشكرك، أشكرك على كل شيء! لا تكلميني هكذا، لا تمزقي قلبي. لقد كنت لي أكثر من أمّ، بارك الله فيك على كل ما قمتما به معا، أنت والأمير، من أجلي، أيتها البائسة، المغلوب على أمرها! أيتها المسكينة، يا عزيزتي!

- كفى، يا نيتوتشكا، كفى، عانقيني، هكذا، بكل قوة! أترين، يعلم الله لماذا، ولكن يبدو لي أنني أحضنك للمرة الأخيرة.

صرخت وأنا أنتحب كطفلة:

- كلا، كلا! لا لن يكون هذا. ستكونين سعيدة. صدقيني، سنكون سعداء.

- أشكرك على حبك لي هكذا. الآن هناك بالقرب مني قليل من الناس الذين يحبونني. لقد تخلوا عني جميعا.

- من تخلوا عنك! من هم إذن؟

- من قبل، كان هناك أشخاص آخرون من حولي، أنت لا تعرفين، يا نيتوتشكا. كلهم تركوني، ذهبوا جميعا، كما لو كانوا أشباحا. وأنا انتظرتهم كثيرا، طوال حياتي، انتظرتهم... ليكن الله في عونهم! انظري، يا نيتوتشكا، أترين أي خريف قاتم... قريبا يسقط الثلج، ومع الثلج الأول، سوف أموت. نعم... ولكنني لست حزينة، وداعا!

كان وجهها شاحبا وهزيلا، وكانت وجنتاها حمراوين، وشفتاها ترتعشان، جافتين من الحمى.

اقتربت من البيانو وعزفت على بعض الأوتار. وفي هذه اللحظة انقطع وتر وخمد بصوت مديد ومرتعش...

قالت فجأة بصوت ملهم وهي تشير إلى البيانو:

- أتسمعين، يا نيتوتشكا، أتسمعين؟ كان هذا الوتر مشدودا جدا، فلم يتحمل ومات. هل تسمعين كيف يموت الصوت بأنين حزين!

كانت تواجه صعوبة في الكلام. كان هناك ألم داخلي عميق ينعكس على وجهها، وكانت عيناها طافحتين بالدموع.

- حسنا، كفى كلاما على هذا، يا نيتوتشكا، يا عزيزتي، كفى، هيا أحضري الطفلين.

قمت بذلك. كانت كأنها تشعر بالراحة وهي تنظر إليهما و، بعد ساعة، سمحت لهما بالانصراف.

قالت لي همسا كأنها كانت تخشى أن يسمعها أحد:

- عندما أموت، لن تتركيهما، يا أنّيتا ؟ لا؟

- كفى، ستقتلينني!

لم أجد جوابا أكثر من ذلك.

قالت وهي تبتسم بعد لحظة من الصمت:

- ولكنني كنت أمزح، وأنت، صدقتني؟ يعلم الله وحده ما أقول في بعض الأحيان. إنني مثل طفلة، في هذه اللحظة، يجب أن يغتفر لي كل شيء.

ألقت علي نظرة خجولة، كما لو أنها كانت تخشى أن تقول شيئا. هذا الشيء، كنت أتوقعه.

قالت أخيرا، خافضة عينيها، ومحمرة قليلا، وبصوت منخفض جدا، لم أسمعه إلا بصعوبة:

- انتبهي، لا تخيفيه.

سألتها، وأنا مستغربة:

- من؟

- زوجي. يمكن أن تقولي له كل شيء في خفاء.

كررت، وأنا مستغربة بشكل متزايد:

- ولكن لماذا إذن، لماذا؟

أجابت، محاولة ما أمكن أن تحدق في بنظرتها الأكثر مكرا، على الرغم من أن ابتسامة صادقة لا تزال مشرقة على شفتيها ولا تزال حمرة وجهها تزداد احمرارا:

- حسنا، ربما لن تقولي، من يدري! كفى حديثا عن هذا الأمر، إنني ما زلت أمزح.

كان قلبي ينقبض أكثر فأكثر.

وأضافت بجدية وبنوع من الغموض مرة أخرى:

- ولكن، اسمعي، ستحبينهما عندما سأكون ميتة، أليس كذلك؟ كما ستحبين أولادك، أليس كذلك ؟ لا تنسي أبدا: أنا، أحببتك دائما كابنتي، لم أجعل أي فرق بينك وبينهما أبدا.

أجبتها، دون أن أعرف ماذا أقول، مختنقة بالدموع ومن الاضطراب:

- نعم، نعم.

فاجأتني قبلة محرقة على يدي قبل أن أجد الوقت لأسحبها بسرعة. جمد الذهول لساني.

"ماذا جرى لها؟ فيم تفكر؟ ماذا دار بينهما بالأمس؟" -هذا ما خطر ببالي.

وبعد دقيقة، اشتكت من تعبها.

قالت:

- أنا مريضة منذ مدة طويلة، ولكنني لم أرد أن أفزعكما معا، لأنكما تحبانني، أليس كذلك؟ إلى اللقاء، نيتوتشكا، اتركيني الآن، ولكن، في المساء، تعالي إلي بالتأكيد. ستأتين؟

وعدتها، ولكنني كنت سعيدة بالخروج. لم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك.

تساءلت وأنا أنتحب:

"البائسة! المسكينة! أي شك سيرافقك إلى قبرك؟ أي حزن جديد ينخر و يمزق قلبك، والذي بالكاد تجرئين على الحديث عنه بكلمة؟ يا إلهي! هذه المعاناة الطويلة ، التي أعرفها الآن عن ظهر قلب، هذه الحياة القاتمة، هذا الحب الخجول، الذي لا يحتاج إلى أي شيء، وحتى الآن، الآن، وهي تقريبا على فراش الموت، عندما يتمزق قلبها نصفين من الألم، فإنها كانت، مثل مجرمة،

تخاف من أي احتجاج، ومن أية شكوى، - وبعد تصور، وابتكار حزن جديد، كانت تستسلم له بالفعل وتتصالح معه!...

في المساء، عند الغسق، اغتنمت غياب أوفروف "الوافد الجديد من موسكو"، وذهبت إلى المكتبة، فتحت خزانة، وبدأت أبحث بين الكتب، لأختار منها كتابا أقرأه بصوت مرتفع على مسمع ألكسندرا ميخايلوفنا. كنت أودّ أن أصرفها عن أفكارها السوداء وأن أختار شيئا ممتعا وسهلا... بحثت طويلا، بلا انتباه. هبط الليل، وزاد قلقي. وقع بين يدي من جديد نفس الكتاب مفتوحا على نفس الصفحة، التي رأيت عليها، هناك، أثر الرسالة، التي لم تبرح صدري، منذ تلك اللحظة، - منطوية على السر الذي بدت حياتي انطلاقا منه كأنها تحطمت واتخذت اتجاها جديدا وشعرت بها منذئذ في مهب ريح باردة، مجهولة، غامضة، ومعادية، ومنذ الآن كانت تحمل لي تهديدا بعيدا ولكنه رهيب جدا... قلت مع نفسي: ماذا سيحل بنا؟ هذا الركن، الذي كنت فيه سعيدة جدا، ودافئة تماما، بصدد أن يتحول إلى فراغ، والروح الطاهرة، المشرقة، التي كانت ترعى شبابي تتركني الآن. وماذا يحدث في المستقبل؟"

لقد نسيت لبعض الوقت ماضي كله، الذي أحببته الآن كثيرا، كما لو كنت أحاول أن أتوقع المستقبل، المجهول الذي كان يهددني... أتذكر هذه اللحظة، كما لو كنت أعيشها من جديد: إذ إنها ظلت محفورة عميقا في ذاكرتي.

كنت ممسكة بين يدي بالرسالة والكتاب المفتوح، وكان وجهي مبتلا بالدموع. وفجأة، ارتعشت خوفا: دوّى فوق رأسي

صوت أعرفه جيدا. وفي اللحظة نفسها، شعرت بأن الرسالة انتزعت مني. أطلقت صرخة والتفت: كنت أمام بيوتر ألكسندروفيتش. أمسكني من يدي وأوقفني بعنف في عين المكان، وبيده اليمنى، أدنى الرسالة من الضوء وحاول قراءة الأسطر الأولى... فشرعت أصرخ، كنت بالأحرى مستعدة لأموت على أن أترك له هذه الرسالة. ومن ابتسامته الظافرة، أدركت أنه نجح في فك حروف سطورها الأولى. كدت أن أفقد عقلي...

وبعد لحظة، اندفعت إليه، في سورة غضب، وانتزعت الرسالة من بين يديه. كل ذلك حدث بسرعة، إلى حد أنني، أنا نفسي، لم أفهم تقريبا كيف وجدت هذه الرسالة بين يدي من جديد. ولكن، لما لاحظت أنه كان يريد انتزاعها مني مرة أخرى، أسرعت بإخفائها فوق صدري وتراجعت ثلاث خطوات.

خلال نصف دقيقة، نظر كل منا إلى الآخر في صمت. ارتعشت أيضا خوفا، وهو شاحب الوجه، مرتعش الشفتين، الزرقاوين من الغضب، كسر حاجز الصمت.

قال بصوت خائر من الانفعال:

- كفى! لا تريدين، بدون شك، أن أستخدم العنف، هاتي لي إذن هذه الرسالة عن طيب خاطر.

وعندئذ فقط تمالكت نفسي. واستولى على روحي الشعور بالذل، والعار، والسخط ضد عنفه الوحشي. وانحدرت دموع محرقة فوق وجنتي المضرجتين. كان جسمي كله يرتعش من الانفعال، ولبعض الوقت، كان من المستحيل علي النطق بكلمة واحدة.

قال وهو يتقدم خطوتين نحوي:

- هل سمعت؟

صحت وأنا أتراجع بعيدا عنه:

- دعني! دعني! لقد تصرفت بشكل دنيء، غير نبيل، نسيت نفسك. اسمح لي أن أذهب!

- كيف؟ ماذا يعني ذلك؟ وتتجرئين أيضا على مخاطبتي بهذه اللهجة...بعد أن... هاتي هذه الرسالة، اسمعي ما أقول لك.

وتقدم خطوة أخرى نحوي، ولكن، عندما نظر إلي، رأى في عيني الكثير من العزم، فتوقف، كما لو أنه كان يفكر.

قال أخيرا بصوت جاف، كأنه اتخذ قرارا، ولكنه مازال غير قادر على أن يتمالك نفسه:

- حسنا! كل شيء في وقته، ولكن، أولا

وهنا، نظر حوله. ثم تابع قائلا:

- أنت... من سمح لك بالدخول إلى المكتبة؟ لماذا هذه الخزانة مفتوحة؟ من أين أخذت المفتاح؟

قلت له:

- لن أجيبك، لا أستطيع أن أكلمك. دعني، دعني!

اتجهت نحو الباب.

قال لي، ممسكا بذراعي:

- عفوا، لن تذهبي هكذا!

انتزعت منه يدي بصمت، وتقدمت مرة أخرى خطوة نحو الباب.

- حسنا إذن. ولكنني لا يمكن أن أسمح لك، حقا، بأن تتلقي رسائل غرامية من عشاقك، في بيتي...

أطلقت صرخة رعب، ونظرت إليه، ذاهلة...

- ولذلك...

صحت:

- توقف. كيف يمكن لك؟ كيف تجرأت على أن تكلمني هكذا؟ يا إلهي! يا إلهي!

- ماذا؟ ماذا؟ وتهددينني أيضا؟

ولكنني كنت أنظر إليه، شاحبة، محبطة. بلغ المشهد بيننا الدرجة الأخيرة من التوتر، والتي لم أستطع أن أفهمها. توسلت إليه بعيني أن لا يستمر أبعد من ذلك. كنت مستعدة لأن أغفر له الإهانة التي وجهها إلي، حتى يتوقف فقط. كان يحدق في وجهي، وبالطبع، كان يتردد.

همست بخوف:

- لا تثر غضبي إلى أقصى حد.

قال أخيرا كأنما اتخذ قرارا آخر:

- آه لا، يجب أن نضع حدا لذلك.

ثم أضاف بسخرية غريبة:

- أعترف لك بأنني ترددت تقريبا بعد النظرة التي ألقيتها علي. ولكن للأسف، القضية تتحدث عن نفسها. كان لدي الوقت الكافي لقراءة بداية الرسالة. إنها رسالة غرامية. إنك لن تجعليني أغير رأيي! لا، لن تنتزعي ذلك من رأسي! وإذا كنت أشك للحظة واحدة، فذلك يدل ببساطة على أنني لابد أن أضيف إلى كل صفاتك الرائعة قدرة كبيرة على الكذب بشكل عجيب ولهذا السبب فإنني أكرر...

وبينما كان يتكلم، كان وجهه يتشوه أكثر فأكثر تحت تأثير الغضب. كان شاحبا، وكانت شفتاه ترتعشان وتلتويان، لدرجة أنه كانت لديه مشكلة في النطق بكلماته الأخيرة. حل الليل. كنت هناك، دون حماية، وحيدة، أمام رجل قادر على إهانة امرأة. وفي الأخير، كانت كل المظاهر ضدي، كنت أتمزق عارا. كنت ضائعة. لم أستطع أن أفهم غضب هذا الرجل. ودون أن أجيبه، وأنا مجنونة من الرعب، اندفعت خارج المكتبة، ولم أثب إلى رشدي إلا أمام باب حجرة ألكسندرا ميخايلوفنا. وفي هذه اللحظة، سمعت وقع خطوات. كنت على وشك الدخول إلى الغرفة، عندما توقفت فجأة كما لو ضربت بصاعقة. ولمع في ذهني: ماذا سيحدث لها؟ هذه الرسالة!.. لا، كل شيء في العالم أفضل من هذه الضربة الأخيرة في قلبها" وتراجعت فورا. ولكن كان قد فات الأوان: كان منتصبا إلى جانبي.

همست له، وأنا أمسكه من ذراعه:

- اذهب حيث تشاء، ولكن ليس هنا، ليس هنا! كن رحيما بها! سأعود إلى المكتبة، أو، إلى حيث تشاء! سوف تقتلها!

أجاب وهو يزيحني:

- أنت التي سوف تقتلينها!

تلاشت كل آمالي. شعرت أن ما كان يريد، بالضبط، هو أن ينقل هذا المشهد إلى ألكسندرا ميخايلوفنا.

قلت له، وأنا أمنعه بكل ما أوتيت من قوة:

- بحق السماء!

ولكن، في هذه اللحظة، ارتفع الستار، وظهرت أمامنا ألكسندرا ميخايلوفنا. كانت تنظر إلينا بذهول. كان وجهها شاحبا أكثر من المعتاد. وكانت بالكاد تقف على ساقيها. كان يمكننا أن نرى الجهد الكبير الذي كان عليها أن تبذله للوصول إلينا عندما سمعت صوتنا.

سألتنا، شاخصة إلينا بذهول تام:

- من هناك؟ عم تتحدثان هنا ؟

استمر الصمت بضع لحظات. كانت شاحبة اللون كوجه ميت. هرعت إليها، وضممتها بين ذراعي بكل قوة، وسحبتها إلى حجرتها. دخل بيوتر ألكسندروفيتش ورائي. كنت أخبئ وجهي في صدر ألكسندرا ميخايلوفنا، وأعانقها بقوة متزايدة، جامدة القلب من الانتظار.

سألت مرة أخرى ألكسندرا ميخايلوفنا:

- ماذا حدث لك؟ ما لكما؟

قال بيوتر ألكسندروفيتش، وهو يهوي ثقيلا على أريكة:

- اسأليها. بالأمس فقط، كنت تدافعين عنها بحرارة.

وبينما كان يتكلم كنت أنا أضمها بين ذراعي بكل قوة.

تمتمت ألكسندرا ميخايلوفنا، بخوف رهيب:

- يا إلهي، ماذا حدث إذن؟ أنت مضطرب جدا، وهي خائفة، باكية. أنّيتا، قولي لي كل ما حدث بينكما.

قال بيوتر ألكسندروفيتش، وهو يدنو منا، ويمسكني من ذراعي ويبعدني عن ألكسندرا ميخايلوفنا.

- لا، اسمحي لي أولا، قفي هناك.

قال لي ذلك وهو يشير إلى وسط الغرفة. ثم أضاف:

- أريد أن أحاكمك أمام تلك التي كانت لك بمثابة الأم.

وأضاف، وهو يجلس ألكسندرا ميخايلوفنا على أريكة:

- وأنت، اهدئي، اجلسي. يؤسفني هذا بشدة، ولكنني لا أستطيع أن أعفيك من هذا التفسير المؤلم، ولكنه ضروري.

تمتمت ألكسندرا ميخايلوفنا، وهي تنقل نظراتها، بقلق عميق، بين زوجها وبيني:

- يا إلهي! ماذا أيضا؟

كنت ألوي يدي، وأنا أستشعر اللحظة القاتلة. ولكنني لم أعد أنتظر منه أية رحمة.

وتابع بيوتر ألكسندروفيتش:

- باختصار، أريد أن تحكمي عليها معي. أنت دائما (ولا أدري لماذا، هذه إحدى نزواتك) أنت دائما- بالأمس أيضا، على سبيل المثال- كنت تظنين، وتقولين... ولكن لا أعرف كيف أقول، أنا أستحي من الافتراض... باختصار، كنت دائما تدافعين عنها، وهاجمتني، واتهمتني بقسوة غير واردة، وأشرت أيضا إلى شعور، لنقل، إنه كان من الممكن أن يوحي بهذه القسوة التي لا صلة لها بالموضوع، أنت... ولكنني لا أدري لماذا لم أتمكن من قمع ارتباكي، وهذا الاحمرار الذي يتبادر إلى ذهني من افتراضاتك، لماذا لم أستطع الحديث عنه بصوت عال، وبصراحة، أمامها... باختصار، أنت...

صاحت ألكسندرا ميخايلوفنا، مضطربة تماما، ومحترقة بالعار:

- آه، لن تفعل ذلك! لا، لن تقول ذلك! لا، أشفق عليها. أنا، أنا التي اخترعت كل شيء! ليس لدي الآن أي شك! اغفر لي، أطلب منك المغفرة. أنا مريضة، يجب أن تغفر لي، ولكن، فقط، لا تقل لها، لا

قالت لي، وهي تدنو مني:

- أنّيتا، اخرجي من هنا، بسرعة، بسرعة! لقد كان يمزح، أنا المذنبة في كل شيء، إنها مزحة لا صلة لها بالموضوع...

قال بيوتر ألكسندروفيتش، مرسلا هذا الكلام دون أية رحمة ردا على انتظارها المقلق:

- باختصار، كنت تغارين منها.

أطلقت صرخة، وامتقع لونها، واتكأت على الأريكة، وهي لا تكاد تقف على ساقيها.

وتمتمت أخيرا بصوت ضعيف:

- سامحك الله! أنا آسفة له، يا نيتوتشكا، اغفري لي، أنا المذنبة في كل شيء. كنت مريضة، كنت...

صحت بحنق شديد، بعد أن عرفت أخيرا كل شيء، وفهمت لماذا كان يريد أن يحاكمني أمام زوجته:

- ولكن هذا ظلم، هذه وقاحة، هذه خسة، هذا أمر جدير بالاحتقار، أنت...

صاحت ألكسندرا ميخايلوفنا، ممسكة بيدي، ومذعورة:

- أنّيتا !

قال بيوتر ألكسندروفيتش متمتما، وهو يقترب منا بانفعال لا يوصف:

- كوميديا! كوميديا! وهذا كل شيء!

وتابع، ناظرا إلى زوجته بإمعان، وبابتسامة تهديد:

- كوميديا، أؤكد لك. وفي هذه الكوميديا، أنت، الوحيدة المخدوعة.

وأضاف لاهثا ومشيرا إلي بأصبعه:

- أتعتقدين أننا لسنا خائفين من مثل هذا التفسير، أتظنين أننا حقا لسنا عفيفين بما يكفي لكي نستاء، ونحمر خجلا، ونصم

آذاننا، عندما نتحدث عن مثل هذه الأمور. أنا آسف، إنني أعبر بطريقة بسيطة، واضحة، وجارحة، ربما، ولكن هذا ضروري. أأنت واثقة، يا سيدتي، من السلوك المحترم لهذه... البنت؟

تمتمت ألكسندرا ميخايلوفنا، مشدوهة، ومجمدة من الخوف:

- يا إلهي! ماذا دهاك؟ أنت تنسى نفسك!

قاطعها بيوتر ألكسندروفيتش قائلا بازدراء:

- أرجوك! دون كلمات رنانة! أنا لا أحب هذا، المسألة هنا بسيطة، مباشرة، وفي غاية الابتذال، أنا أسألك عن سلوكها، هل تعرفين...

ولكنني لم أدعه ينهي كلامه، فأمسكته من ذراعه وسحبته بقوة جانبا. لو مرت دقيقة أخرى، لكان يمكن أن يضيع كل شيء.

قلت له بسرعة، هامسة في أذنه:

- لا تتحدث عن الرسالة. ستقتلها حالا سيقع اللوم علي وعليها في نفس الوقت. إنها لا تستطيع أن تحاكمني، لأنني أعرف كل شيء... هل تفهم، أعرف كل شيء!

حدق في، بفضول محموم وبقي مضطربا، واحمر وجهه.

وكررت قائلة له:

- كل شيء، أعرف كل شيء!

وظل مضطربا. كان يلوح على طرف شفتيه سؤال. فاستبقته. وقلت بصوت عال، وبسرعة فائقة، مخاطبة ألكسندرا ميخايلوفنا، التي كانت تنظر إلينا بذهول خجول وقلق:

- هذا ما حدث. أنا وحدي المذنبة. لقد خدعتكما منذ أربع سنوات كاملة. أخذت مفتاح المكتبة ومنذ أربع سنوات خلت وأنا أقرأ كتبا في الخفاء. باغتني بيوتر ألكسندروفيتش وأنا أقرأ كتابا... لم يكن يجوز، ولا ينبغي أن يكون بين يدي. فخاف علي، وضخم الخطر في عينيك!

وأضفت بسرعة، عندما لاحظت ابتسامته الساخرة:

- ولكنني لا أحاول تبرئة نفسي، أنا المذنبة تماما. كانت المحاولة أقوى مني، ولما أذنبت مرة، خجلت بعدئذ من الاعتراف لكما بخطئي... هذا كل شيء، هذا تقريبا كل ما حدث بيننا...

همس بيوتر ألكسندروفيتش في أذني:

- أوه، يا لذلاقة اللسان!

استمعت إلي ألكسندرا ميخايلوفنا بانتباه شديد، ومع ذلك انعكس على وجهها الشك. ولم تكف عن تمرير نظرتها بين زوجها وبيني. مرت لحظة من الصمت. كانت لدي صعوبة في التنفس. طأطأت رأسها فوق صدرها، وأخفت وجهها بين يديها، كما لو كانت تفكر في شيء، وهي تزن كل كلمة نطقت بها. وأخيرا رفعت رأسها وحدقت في بإمعان.

همست:

- نيتوتشكا، طفلتي، أنا أعلم أنك لا تعرفين كيف تكذبين. هذا كل ما حدث، كل شيء على الإطلاق؟

أجبتها:

- هذا كل شيء.

سألت، مخاطبة زوجها:

- هذا كل شيء؟

فأجاب بجهد شديد:

- نعم، هذا كل شيء، كل شيء!

وتنفست أنا الصعداء.

سألتني:

- هل تعطينني عهدا قاطعا، يا نيتوتشكا؟

فأجبتها بدون تردد:

- نعم.

ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من إلقاء نظرة نحو بيوتر ألكسندروفيتش. كان يبتسم وهو يسمعني أعطيها عهدا. احمر وجهي تماما، ولم يفت ارتباكي ألكسندرا ميخايلوفنا. كان ينعكس على وجهها قلق مؤلم، وساحق.

قالت بحزن:

- كفى. أنا أصدقك. لا أستطيع ألا أصدقك.

تمتم بيوتر ألكسندروفيتش

- أظن أن هذا الاعتراف يكفي. هل سمعت؟ ما رأيك في ذلك؟

لم تجب ألكسندرا ميخايلوفنا. أصبح المشهد مقلقا أكثر من أي وقت مضى.

واصل بيوتر ألكسندروفيتش كلامه قائلا:

- منذ الغد، سأفتش في كل الكتب. لا أدري ماذا يوجد بداخلها، ولكن...

سألت ألكسندرا ميخايلوفنا:

- ولكن أي كتاب كانت تقرأه إذن؟

قال بيوتر ألكسندروفيتش، موجها كلامه إلي:

- أي كتاب؟ جاوبيها، أنت.

وأضاف بسخرية خفية:

- أنت تعرفين توضيح الأمر أفضل مني.

كنت منزعجة، لم أقدر على النطق بكلمة. احمرت ألكسندرا ميخايلوفنا وخفضت عينيها. وأعقب ذلك صمت لمدة طويلة.

كان بيوتر ألكسندروفيتش، مغتاظا، يذرع الغرفة جيئة وذهابا.

بدأت أخيرا ألكسندرا ميخايلوفنا، ناطقة كل كلمة بخجل:

- لا أعرف ما حدث بينكما. ولكن، إذا لم يكن هنالك غير ذلك...

وتابعت قائلة، وهي تحاول أن تعطي لكلماتها معنى خاصا، ولا تزال منزعجة بالفعل من نظرة زوجها، حتى وإن حاولت ألا تنظر إليه:

- إذا لم يكن هنالك غير ذلك، فأنا إذن لا أرى لماذا ينبغي علينا جميعا أن نكون في غاية الحزن واليأس. الأكثر ذنبا من

الجميع، هي أنا، أنا وحدي، ويعذبني ذلك كثيرا. أنا لم أُولِ اهتماما كافيا بتعليمها، وأنا التي ينبغي أن أجيب على كل شيء. يجب أن تغفر لي، وأنا، لا يحق لي، ولا أستطيع أن أحاكمها. ولكن، مرة أخرى، لماذا نيأس؟ لقد مر الخطر. لننظر إليها.

قالت ذلك، وهي تزداد انتعاشا وتلقي نظرة قلقة على زوجها:

- لننظر إليها: هل ترك تصرفها الطائش أية عاقبة على الأقل؟ ألم أعرفها، بنيتي الصغيرة، طفلتي الحبيبة؟ ألم أعرف أن قلبها طاهر ونبيل.

وتابعت كلامها وهي تلاطفني وتجذبني إليها:

- وأن في هذا الرأس الصغير الجميل، عقلا صافيا ومشرقا، وأن ضميرها خائف من الخداع... كفى، أحبائي! لنتوقف! إنه بدون شك شيء آخر هو الذي يكمن في حزننا، ربما، ألقى علينا بشكل عابر فقط ظله المعادي. ولكننا سنطرده بحبنا، وبتفاهمنا الجيد، وتبديد حيرتنا. ربما، هناك بيننا الكثير من الأشياء التي لم تقل، وألوم عليها أولا نفسي. أنا الأولى التي كتمت كل شيء، أنا الأولى التي نشأت لدي شكوك لا يعلمها إلا الله، ولا يلام عليها إلا رأسي المريض. ولكن.... ولكن بما أننا قلنا مع ذلك بعض الأشياء، فإن عليكما، أنتما معا، أن تغفرا لي، لأنه... لأنه، أخيرا، ليست هناك خطيئة كبرى في ما شككت...

وبعد أن قالت هذه الكلمات، ألقت على زوجها نظرة خجولة، واحمرت وانتظرت كلماته بقلق.

عندما كان يصغي إليها كانت تظهر على شفتيه ابتسامة ساخرة.

كان قد كف عن الذهاب والإياب في الغرفة ووقف أمامها مباشرة، شابكا يديه وراءه. كان يبدو كأنه يراقب اضطرابها، يدرسه، ويتأمله، ولما شعرت بنظرته ثابتة عليها، ارتبكت. وانتظر لحظة، كأنه كان يتوقع شيئا أبعد من ذلك. فتضاعف اضطرابها. وأخيرا، وضع حدا لهذا المشهد الذي لا يطاق بضحكة طويلة هادئة وساخرة.

وقال أخيرا بجدية ومرارة، وقد كف عن الضحك:

- أرثي لك، أيتها المرأة البائسة! لقد اتخذت لنفسك دورا يفوق طاقتك. ماذا كنت تريدين؟ أردت أن تدفعيني إلى الإجابة، وأن تحرقيني بشكوك جديدة، أو على الأصح، بتلك الشكوك القديمة التي أخفيتها في كلماتك بصورة سيئة. إن معنى كلامك أنها لا شيء يدعو إلى الاستياء منها، أنها جيدة جدا، وحتى بعد قراءة كتب غير أخلاقية، والأخلاق التي يبدو أنها بدأت تؤتي بعض الثمار، وأخيرا، أنت نفسك التي تجيبين عنها، أليس كذلك؟ وإذن، عندما تشرحين ذلك، تلمحين إلى شيء آخر، تشعرين أن شكوكي وقسوتي آتية من عاطفة مختلفة. قلت لي، بالأمس، تلميحا، أرجوك، لا تقاطعيني، أريد أن أقول الأشياء كما هي - قلت ذلك لي، بالأمس، تلميحا، إن هناك بعض الأشخاص (أتذكر أن هؤلاء الأشخاص، وفقا لملاحظتك، هم دائما رزينون، صارمون، صريحون، أذكياء، أقوياء، والله وحده يعلم أية نعوت أخرى لم تغدقيها عليهم في نوبة كرمك!)، بعض الأشخاص الذين -أكرر- لا يمكن أن يظهر الحب لديهم (يعلم الله وحده لماذا ذهبت إلى اختلاق ذلك!) إلا عن طريق هذه الصرامة، بطريقة حارة وحادة وعنيفة، وغالبا عن طريق الشكوك، والاضطهاد. لا

أتذكر جيدا هل هكذا قلت بالأمس... رجاء، لا تقاطعيني، أعرف جيدا تلميذتك ، يمكن أن تسمع كل شيء، كل شيء، أكررها لك للمرة الألف- كل شيء. لقد كنت مخدوعة. ولكنني لا أدري لماذا يحلو لك الإصرار كثيرا على أنني شخص من هذا النوع تماما! يعلم الله لماذا تريدين أن تلبسيني قفطان المهرج. إن عشق هذه الفتاة لم يعد يناسب عمري و في الأخير صدقيني، يا سيدتي، إنني أعرف واجباتي، ومهما استطعت أن تغفري لي بسخاء، سأستمر في قول ما قلت: إن الجريمة تبقى دائما جريمة، والخطيئة ستكون دوما خطيئة، مخزية، حقيرة، وضيعة، مهما يكن مستوى العظمة الذي يمكن أن نرفع إليه عاطفة فاسدة! ولكن كفى، كفى! لا أحب أن أسمع المزيد عن هذه الأشياء المثيرة للاشمئزاز!

كانت ألكسندرا ميخايلوفنا تبكي.

وأخيرا تمتمت وهي تنتحب وتضمني بين ذراعيها:

- حسنا، أريد أن أتحمله، هذا الخطأ! أريد أن تكون شكوكي مخزية، وأن تسخر منها، بطريقة قاسية جدا! ولكن، أنت، يا عزيزتي البائسة، لماذا. محكوم عليك إذن بأن تسمعي مثل هذه الإهانات؟ وأنا لا أستطيع الدفاع عنك! وأنا بكماء! أوه، يا إلهي! لا أستطيع أن أسكت، يا سيدي! لا أستطيع أن أتحمل... إن سلوكك مجنون!...

همست أنا، في محاولة لتهدئة انفعالها، وخوفا من أن تفقد صبرها بسبب هذا اللوم القاسي الشديد. ولكنني كنت لا أزال أرتجف خوفا عليها:

- كفى، كفى!

فصاح بيوتر ألكسندروفيتش:

- ولكن، يا امرأة عمياء! ولكنك لا تعلمين، لا ترين...

وتوقف لمدة دقيقة.

ثم قال، متوجها إلي وهو يسحب يدي من يد ألكسندرا ميخايلوفنا:

- دعيها. لن أسمح لك بأن تلمسي زوجتي، أنت تلوثينها، وتهينينها بحضورك!

وصرخ ضاربا بقدمه الأرض:

- ولكن... ولكن ما الذي يضطرني إذن إلى السكوت، عندما يجب علي، عندما يكون من الضروري أن أتكلم؟ وسأتكلم، وسأقول كل شيء. لا أدري ماذا تعلمين، أنت يا سيدتي، وبماذا أردت أن تهدديني، ولا أريد أن أعرفه.

وتابع كلامه مخاطبا ألكسندرا ميخايلوفنا:

- اسمعي! اسمعي إذن!

صرخت أنا، مندفعة إلى الأمام:

- اسكت! اسكت، ولا كلمة!

- اسمعي...

- اسكت، بحق ال...

قاطعني، محدقا في بنظرة سريعة وثاقبة:

- بحق ماذا، يا سيدتي؟ بحق ماذا؟ اعلمي أنني انتزعت من

بين يديها رسالة من عشيقها! هذا ما يحدث في بيتنا! هذا ما يحدث تحت أنظارك! هذا ما لم تريه، وما لم تلاحظيه!

لم أقوى على الوقوف في مكاني. كانت ألكسندرا ميخايلوفنا شاحبة كميتة.

همست، بصوت غير مسموع تقريبا:

- هذا غير ممكن.

- لقد رأيت هذه الرسالة، يا سيدتي، كانت بين يدي، قرأت السطور الأولى ولم أكن مخطئا: كانت هذه الرسالة آتية من عشيقها. وقد انتزعتها من بين يدي. وهي معها، في هذه اللحظة، هذا واضح، هذه حقيقة، ليس هناك أدنى شك في ذلك. وإذا كنت ما زلت تشكين، القي عليها نظرة، وحاولي، بعد ذلك، أن تتوقعي ولو بصيص أمل من الشك.

صاحت ألكسندرا ميخايلوفنا، وهي تندفع نحوي:

- نيتوتشكا! ولكن كلا، لا تقولي شيئا، لا تقولي شيئا! أنا لا أعرف ماذا وقع، وكيف حدث ذلك... رباه، رباه!

وبدأت تنتحب، مغطية وجهها بين يديها.

وصرخت من جديد:

- بل كلا! هذا شيء غير ممكن! أنت مخطئ.

وهمست، محدقة في زوجها:

- ذلك...أعرف ماذا يعني ذلك! أنت...أنا... لن تستطيعي

خداعي، لا يمكنك أن تخدعيني! احكي لي كل شيء، لا تخفي عني شيئا: لقد أخطأ؟ هكذا، كان مخطئا، أليس كذلك؟ لقد رأى شيئا آخر، كان أعمى؟ هكذا، أليس كذلك؟ هكذا؟ اسمعي: لماذا لا تريدين أن تقولي كل شيء، يا أنّيتا، يا طفلتي، يا بنيتي؟

دوى فوقي صوت:

- أجيبي، أجيبي بسرعة! أجيبي: رأيتها أم لم أرها، هذه الرسالة بين يديك؟

أجبت، لاهثة من الانفعال:

- نعم!

- هي رسالة من عشيقك؟

أجبت:

- نعم!

- الذي ما زلت على علاقة به حتى اليوم؟

قلت، وأنا بالفعل في حالة ذهول:

- نعم، نعم، نعم!

كنت أجيب بالإيجاب على جميع الأسئلة لمجرد الحصول على نهاية هذا التعذيب.

- استمعت لها. حسنا، ماذا تقولين الآن؟

وأضاف، ممسكا بيد زوجته:

- صدقيني، قلبك طيب جدا، وساذج كثيرا. صدقيني، ولا

تثقي بكل ما اختلقه خيالك المريض. ها أنت ترين الآن من هي هذه... الآنسة. كنت أود فقط تأكيد استحالة شكوكك. وقد لاحظت كل ذلك منذ فترة طويلة وأنا سعيد لأنني كشفتها أمامك.

كان من الصعب علي أن أراها قريبة منك، بين ذراعيك، حول مائدتنا، وفي بيتي، أخيرا. كنت مستاء من عماك. هذا هو السبب، السبب الوحيد، الذي جعلني أنتبه إليها، وأراقبها، وهذا الانتباه، هو الذي لفت انتباهك، والله وحده يعلم ما هي الشكوك التي انتهيتِ إليها، وما نسجتِ عليها. ولكن الوضع الآن أصبح واضحا، وتبددت كل الشكوك.

وختم كلامه متوجها إلي:

- ومنذ الغد، يا سيدتي، منذ الغداة، لن تكوني في بيتي!

قالت ألكسندرا ميخايلوفنا، وهي تنهض من مقعدها:

- توقف! لا أصدق شيئا من هذا المشهد كله. لا تنظر إلي بهذه الصورة المريعة، ولا تضحك علي. سأدعوك أنت بنفسك للحكم على رأيي. أنّيتا، طفلتي، تعالي إلي، هاتي لي يدك، هكذا.

قالت بصوت مرتجف من الدموع، ناظرة إلى زوجها بتواضع:

- نحن جميعا مذنبون! من منا يستطيع رفض يد الآخر؟ هاتي لي إذن يدك. أنّيتا، يا طفلتي العزيزة، أنا لست أولى، وأفضل منك، لن تستطيعي إهانتي بحضورك، لأنني، أنا نفسي، أنا نفسي، مذنبة.

صاح بيوتر ألكسندروفيتش بذهول:

- سيدتي! سيدتي! تمالكي نفسك! لا تنسي!...

- لم أنس شيئا. لا تقاطعني، دعني أقل كل شيء. رأيت رسالة بين يديها، وقرأتها أيضا، تقول إنك... وهي أيضا، قد اعترفت بأنها رسالة من ذلك الذي كانت تحبه. ولكن هل يثبت هذا أنها مجرمة؟ هل يبيح لك هذا أن تعاملها بهذه الطريقة، وأن تهينها هكذا أمام زوجتك؟ نعم، يا سيدي، أمام زوجتك؟ أنت إذن حكمت على كل هذه القضية؟ أنت إذن تعرف كيف حدث كل شيء؟

صاح بيوتر ألكسندروفيتش قائلا:

- وإذن لم يبق لي إلا أن أهرع إليها وأطلب منها المغفرة! هذا ما تريدين؟ ضقت ذرعا من الاستماع إليك! فكري في ما تقولين! هل تعرفين ماذا تقولين؟ هل تعرفين عن ماذا تدافعين، وعن من؟ ولكنني أرى كل شيء، واضحا كضوء النهار...

- ولا ترى الشيء الأساسي، لأن الغضب والزهو يعميانك. لا ترى ما أدافع عنه، وما أعنيه. أنا لا أدافع عن الرذيلة. ولكن هل فكرت،- وسترى ذلك بوضوح، لو فكرت- هل فكرت في حقيقة أنها قد تكون بريئة مثل طفلة! كلا، أنا لا أدافع عن الرذيلة! أسارع إلى قول ذلك، إن كان هذا يرضيك. لا، لو أنها كانت زوجة، أما، ولو كانت نسيت واجباتها، لكنت قبلت ما تقول... أرأيت، أنا قلت ذلك. فلتلاحظ هذا إذن، ولا تنح باللائمة علي! ولكن، إذا كانت تلقت هذه الرسالة دون أن تقصد أي ضرر؟ إذا كانت مدفوعة بشعور مفتقر إلى الخبرة، وإذا لم يكن هناك أحد ليحميها؟ إذا كنت، أنا، المذنبة الأولى أكثر من الجميع، لأنني لم أحرس قلبها؟ إذا كانت هذه الرسالة هي الأولى؟ إذا كانت شكوكك البذيئة تهين أعز شعور لديها؟ إذا كنت تلطخ خيالها بملاحظاتك الساخرة حول

هذه الرسالة؟ إذا كنت لم تر هذا الخجل العذري والسماوي، المشرق فوق وجهها، النقي كالبراءة، المنهك بالألم، دون أن تعرف ماذا تقول، وبعد أن تمزقت من القلق، أجابت باعتراف على أسئلتك غير الإنسانية، أجل، أجل! إنه أمر غير إنساني، قاس جدا، لم أعد أعرفك، لن أغفر لك ذلك أبدا، أبدا!

صحت، وأنا أضمها بقوة بين ذراعي:

- نعم، ارحميني، ارحميني قليلا! كوني رحيمة، صدقيني، لا تبعديني...

وجثوت أمامها على ركبتي.

وتابعت كلامها، بصوت لاهث:

- وأخيرا، إذا، أخيرا، إذا أنا لم أكن قريبة منها، إذا كنت أرهبتها بكلماتك، إذا كانت البائسة تصدق أنها مذنبة، إذا كنت عكرت صفو ضميرها، إذا كدرت روحها، إذا كنت كسرت راحة قلبها... يا إلهي! تريد أن تطردها من المنزل! ولكن أتدري لمن تفعل ذلك؟ أتدري لو طردتها، فإنك تطردنا معا، نحن الاثنتين، وأنا أيضا؟ أتسمع، يا سيدي؟

كانت عيناها تلمعان، وكان صدرها يهتز، وكان توترها المرضي قد بلغ أقصى درجة.

وصاح أخيرا بيوتر ألكسندروفيتش:

- لقد سمعتك بما فيه الكفاية، يا سيدتي! يكفي كل هذا! أعرف أن هناك مشاعر أفلاطونية- وأعرفها لسوء حظي، يا سيدتي،

أتسمعين؟ لسوء حظي. ولكنني لا أقبل أن أعيش، يا سيدتي، مع الرذيلة المموهة بالذهب! لا أفهم ذلك.

يكفي كوميديات! وإذا كنت تحسين بأنك مذنبة، إذا كان لديك شيء تلومين عليه نفسك (لست أنا الذي عليك أن تذكريه به، يا سيدتي) وأخيرا، إذا كانت فكرة أن تتركي منزلي تروق لك... فلم يبق لي إلا أن أقول لك، أن أذكرك بأنك كنت مخططة إذ نسيت تحقيق نيتك عندما حان الوقت حقا، عندما كان يمكن القيام بذلك حقا... منذ كم سنة؟ إذا كنت قد نسيت ذلك، أستطيع أن أذكرك به...

رفعت عيني نحو ألكسندرا ميخايلوفنا. كانت متكئة علي بتشنج، منهكة بالتعذيب المعنوي، وعيناها نصف مغمضتين، وتعاني من ألم عميق جدا. كانت على وشك أن تسقط مغشى عليها.

صحت، جاثية على ركبتي أمام بيوتر ألكسندروفيتش، وقد نسيت أنني كنت أخون نفسي:

- آه، بحق السماء! ارحمها! على الأقل في هذه المرة. لا تقل كلمة أخرى!

ولكن كان قد فات الأوان. أعقبت كلماتي صرخة خافتة، وانهارت المرأة البائسة مغمى عليها.

قلت له:

- قضي عليها! قتلتها! ناد الناس. أنقذها، إذا كنت تستطيع. سأنتظرك في مكتبك. يجب أن أتكلم معك. سأقول لك كل شيء.

- ولكن ماذا؟ ولكن ماذا؟

- فيما بعد!

استمرت حالة الإغماء والأزمة لمدة ساعتين. لقد روع المنزل كله. كان الطبيب يهز رأسه بصورة تدعو إلى الارتياب. بعد ساعتين، دخلت إلى مكتب بيوتر ألكسندروفيتش. كان قد عاد للتو من عند زوجته، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا، ويعض على أظافره حتى الإدماء، وكان شديد الشحوب والانزعاج. لم أره من قبل في هذه الحالة.

سألني بلهجة فظة وقاسية:

- بماذا كنت تريدين أن تخبريني؟ تريدين أن تقولي لي شيئا؟

- هذه هي الرسالة التي انتزعتها مني. هل عرفتها؟

- نعم.

- خذها.

أخذ الرسالة وحملها إلى النور. راقبته بانتباه. بعد بضع دقائق، عاد على عجل إلى الصفحة الرابعة وقرأ الإمضاء. رأيت الدم يصعد إلى وجهه.

سألني وقد استولى عليه الذهول:

- ما هذا؟

- منذ ثلاث سنوات وجدت هذه الرسالة في كتاب. فهمت أنها نسيت، قرأتها وعلمت كل شيء. منذ ذلك اليوم، احتفظت بها، لأنه لم يكن لدي أحد أسلمها له. هي، لم أستطع أن أعطيها لها. أنت؟ ولكنك لا يمكن ألا تعرف محتويات هذه الرسالة، وأنها

تتضمن كل هذه الحكاية الحزينة... ولكنني أتساءل: لماذا تظاهرت؟ ما زال ذلك غامضا بالنسبة إلي. وما زلت غير قادرة على الرؤية الواضحة في روحك المظلمة. أردت الاحتفاظ بتفوقك عليها، وكان لك ما أردت. ولكن لم ذلك؟ لكي تنتصر على شبح، على خيال مهزوم لمريضة، لكي تثبت لها أنها مخطئة، وأنك أطهر منها؟ وقد وصلت إلى هدفك، لأن الشك كان فكرة ثابتة من روح تنطفئ، ربما الشكوى الأخيرة لقلب منكسر ضد ظلم حكم الرجال، الحكم الذي شاركت فيه. "ما أهمية أنك أحببتني!" هذا ما قالته، هذا ما كانت تريد أن تثبته لك. كانت غيرتك، أنانيتك الغيورة، دون رحمة. وداعا! لا جدوى من كل التفسيرات! ولكن، حذار، أنا أعرفك تماما، أقرأ كل نياتك، لا تنس هذا أبدا!

ذهبت إلى غرفتي، وأنا بالكاد أتذكر ما حدث لي. أمام الباب أوقفني أوفروف، مساعد بيوتر ألكسندروفيتش. قال لي بتحية مهذبة:

- أود أن أتكلم معك.

نظرت إليه، دون أن أفهم تقريبا ما قال لي. أجبته وأنا أمر من أمامه:

- فيما بعد، معذرة، لست على ما يرام.

قال لي، وهو يحييني بابتسامة غامضة:

- حسنا، غدا إذن.

ولكن، ربما كان هذا انطباعا. كل ذلك كان يبدو كأنه ومض أمام عيني.

الفهرس

دوستويفسكي

نيتوتشكا نيزفانوفا

كتبت هذه الرواية بين 1847 و1849، حين كان عمر دستويفسكي دون الثلاثين ربيعا، بحيث يضع في المشهد فتاة شابة يتيمة مغرمة ومتيمة بزوج أمها - عازف الكمان الذي من الممكن أن يكون حقا عبقريا ولكنه مدمن على الخمر- ثم مفتونة بهوى ابنة الرجل الذي كفلها أخيرا وعلّمها في قصره. وفي بعض الآراء أن دستويفسكي مثَّل "عقدة إليكترا" بحبّ نيتوتشكا لزوج أمها السكير وانجذابها إليه، والشعورِ بالعداءِ والنفورِ تجاه أمها البائسة التي كان يتخذها ذريعة لفشل عبقريته. كما ترى ذاتُ الآراء أنه مثَّل أيضا لما يُعرف «بالحبّ المِثْلي» من خلال حبّ نيتوتشكا لابنة الأمير الكفيلِ بها إلى حدّ تقبيلِ قدمها ويديها وشعرها وكتفيها، وغمرتْ وغسلتْ حتى منديلها بالقبلات والدموع. ومن خلال مسار حياتها المضطربة، يتمّ الكشفُ عن شغفها بالغناء. هذه الرواية، المعتبرةُ كعمل رئيسي، والمنشورةُ جزئيا، توقفتْ كتابتُها بسبب اعتقال دستويفسكي سنة 1849. وظلت غير مكتملة. ثم استُؤنفتْ كتابتُها ونُشرتْ من جديد عام 1860 وسنة 1866، وتوقفتْ في منتصف مشهد محدّد، وبالضبط، حين أدركت الطفلةُ البطلةُ مرحلة البُلوغ والنُّبوغ. وبالتالي، فإن دستويفسكي، لم يتحدث، في مكان آخر، حتى الآن، بمثل هذه القوة الغنائية، وعلى هذا النحو العميق، عن الفن وعن الطفولة.

إدريس الملياني